بوريس لافرينيف

الواحد والأربعون

قصص عن الثورة

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة ماهر عسل

Б. Лавренев
СОРОК ПЕРВЫЙ
Рассказы о революции
На арабском языке

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب ، وشكـــــل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .
العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار «رادوغا» ، ١٩٨٩

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Л $\frac{4702010200\text{-}379}{031(01)\text{-}89}$ 091-89

الواحد والاربعون



الاهداء :
الى ذكرى بافل ديميتريفيتش جوكوف

الفصل الاول

الضرورة وحدها دفعت الكاتب الى كتابته

عند الفجر انكسر هنيهة طوق السيوف القوزاقية اللامعة فى الطرف الشمالى ، تحت وابل من رصاص المدافع الرشاشة واخترق ايفسيوكوف المفوض الارجوانـى الثغرة فـى اندفاعة اخيـــرة محمومة .

استطاع ايفسيوكوف الارجوانى وثلاثة وعشرون رجـــلا وماريوتكا وحدهم ان ينجوا من شرك الموت .

كان مئة وتسعة عشر رجلا وجميع الجمال تقريبا مجندليـــن على الرمال القارسة بين أشرطة أشجار السكساوول وشجيرات التمارسك الحمراء .

وعندما بلغ الايساول * بوريغا بان فلول العدو قد خرقت الطوق ، فتل شاربيه الغليظين بيده الخشنة وفتح فمه كالمغارة متثائبا وزمجر بتكاسل :

– لهم الويل ! لن نضنى الخيل باللحاق بهم ؛ فســـوف يهلكون من تلقاء أنفسهم – لا محالة – فى الرمال جميعا .

اما ايفسيوكوف الارجوانـى والثلاثـة والعشرون نفـــرا وماريوتكا فقد اغذوا فى السير فى مفازة الرمال مثـل ابن آوى السهوب .

لعل القارئ قد نفد صبره شوقا ويود ان يعرف لماذا اقـول «ايفسيوكوف الارجوانى» ؟

سوف نأتى على ذلك فى حينه .

حينما سد كولتشاك خط اورنبورغ سدا محكما بخليط مـن الرجال الشاكى السلاح وترك القاطرات المبهوتة يأكلها الصـدأ فى السكك الفرعية الضائعة لم يبق فى جمهورية تركستـــان صباغ اسود للجلود .

بيد ان الاوقات التى جاءت كانت اوقاتا عاصفة مضطربة ، انها اوقات الجلود .

ان الجسد الانسانى الطريد من دفء المنزل الى سعير الحرارة وقر البرد ، تحت الامطار وأشعـــة الشمس وازيز الرصاص يشعر بحاجة الى ملابس متينة .

ولذلك ظهرت على الناس الجاكيتات الجلدية .

كانت هذه الجاكيتات تصبغ بالاسود فى كل مكان ولهـــا التماعات زرقاء كالفولاذ انه للون صارم ، شديد مثل الذيـــن يرتدونها .

وانعدم الصباغ الاسود فى تركستان .

واضطرت القيادة الثورية الى أن تصادر من عنـد السكان المحليين مخزون الصباغ الالمانى الانيلى الذى كانت النســـاء

* رتبة الايساول فى تشكيلات القوزاق فى روسيا القيصرية كانت تعادل رتبة النقيب فى تشكيلات الجيش العادية . (الناشر) .

الاوزبكيات فى فرغانة يستعملنه لتلميع شالاتهن الحريريـــة الهفهافة والذى كانت نساجات السجاد فى تركمانيا ذوات الشفاه الجافة يستعملنه لصبغ تزيينات سجادهن .

وبدئ بصبغ الجلود بهذا الصباغ ، وتلون الجيش الاحمـر فى تركستان بجميع ألوان قوس قزح : ارجوانى ، وبرتقالى ، وليمونى ، وزمردى ، وفيروزى ، وبنفسجى .

وشاء القدر – فى شخص امين مستودع الملابس ذى الوجه الذى حفره الجدرى – أن يتسلم المفوض ايفسيوكوف بوصية من أركان الحرب جاكيتا وبنطلونا جلديين ارجوانيين .

كان وجه ايفسيوكوف منذ نعومـة أظفاره ارجوانيا بنفس اللون مع نقاط صفراء فيه وعلى رأسه زغب ناعم كزغب البط يقوم مقام الشعر .

واذا أضفنا الى ذلك انه قصير القامة قوى البنية يبـــدو شخصه بشكل بيضوى منتظم ، فان المرء ليحسب انه عندمـا يلبس البنطلون والجاكيت الارجوانيين يشبه بيضة عيد الفصح الملونة شبها غريبا .

كان ايفسيوكوف يؤمن بالسوفييت والاممية والتشيكا * والمسدس الثقيل الذى يمسكه بأصابعه العجر القوية .

ان الثلاثة والعشرين رجلا الذين كانوا قد شقوا طريقهـــم وايفسيوكوف عبر طوق الموت من السيوف القوزاقية متجهين الى الشمال ، كانوا جنودا من الجيش الاحمر كسائر الناس الآخرين ، اناسا عاديين جدا .

ولكن ماريوتكا وحدها كانت بينهم غير عادية .

كانت يتيمة الابوين ، وقد ولدت فى قرية للصيادين قرب مدينة استراخان ، تقبع فى دلتا نهر الفولغا الواسعة المليئـــة بالقصب .

اشتغلت منذ سن السابعة من عمرها ، طوال اثنى عشر عاما وهى تقعد على مقعد قذر من أحشاء الاسماك مثلما يقعد المرء على صهوة جواد وكانت ترتدى بنطلونا من القماش السميك ، وهـى تبقر الاسماك الفضية اللزجة .

* التشيكا تعنى اللجنة الاستثنائية لمكافحـــة اعداء الثورة . (الناشر) .

ولكن حينما اعلن فى جميع المدن والقرى طلب متطوعين للحرس الاحمر – هكذا كان يقال آنذاك – غرزت ماريوتكا سكينها فى المقعد وذهبت ببنطلونها السميك لتسجل اسمها فى صفوف المتطوعين .

وقد طردت فى بادئ الامر ، الا انه لفرط ما راوها تعود كل يوم ، قبلت على سبيل الهزل بنفس الحقوق التى للآخرين . غير انهم جعلوها توقع سندا تتعهد فيه ان تتخلى عن شكل حياة المرأة ولا سيما انجاب الاولاد حتى ينتصر العمل نهائيا على رأس المال .

كانت ماريوتكا مثل قصبة نهرية لطيفة ، لها جديلتان شقراوان مدروجتان تحت قلبق أغبر اللون ، تلتمع تحته عيناها كعينى الهر ببريق أصفر .

كانت الاحلام هى الشىء الاساسى فى حياة ماريوتكا . كانت ذات ميل عات ينزع الى الاحلام وكانت تحب قرض الشعر وتسطره بقطعة قلم رصاص على اية قصاصة من الورق ، حيثما اتفق ، بحروف مائلة مشوشة .

هذا شىء كانت تعرفه الفصيلة كلها . فحينما كانوا يصلون الى مدينة ما تصدر فيها جريدة كانت ماريوتكا تذهب الى السكرتارية تطلب صفحة من الورق .

كانت تبلل بلسانها شفتيها اللتين جففهما الانفعال فتعيد نسخ قصائدها بعناية وتضع فوق كل واحدة عنوانا وتوقع تحتها «شعر ماريا باسوفا» .

كان يوجد لديها كل نوع من الشعر : عن الثورة ، وعن النضال ، وعن القادة ، ومن جملتها عن لينين :

لينين ! يا بطلنا البروليتارى .
سوف نقيم تمثالك وسط الساحة .
انت الذى دك عرش القيصر .
ووضع قدمك فى العمل .

ثم تحملها الى هيئة التحرير حيث كانوا يتأملون بدهشة واعجاب هذه الفتاة الناعمة المرتدية جلدا والمسلحة ببندقية

الفرسان ، فيأخذون منها القصيدة واعدين بقراءتها .

كانت ماريوتكا تجيل بكل هؤلاء الناس نظرة صافية وتنصرف .

كان سكرتير التحرير – وقد انشغل باله – يقرأها باهتمام . فترتفع كتفاه وترتعدان وينفرج فمه بضحكة شديدة مسعورة لا يملك لها كبتا . فيسارع أعضاء الهيئة ويقرأ عليهم السكرتير الاشعار بصوت متقطع .

ويضحك الجميع ويتهاوون على جوانب النوافذ لأن هيئة التحرير لم يكن فيها أثاث فى ذلك العهد .

وتعود ماريوتكا فى اليوم التالى وتتأمل وجه السكرتير الذى يتمالك نفسه بمشقة عن الضحك فتسترد اوراقها وتقول وهى تمط كلماتها :

– اذن لا يمكن نشرها ؟ يجب تنقيحها ؟ لقد متحتها من أعماقى ونجرتها – كما يقال – بالفأس ثم لا تزال سيئة . سأعمل بها أيضا فلا سبيل الى غير ذلك . ولماذا هى صعبة الى هذا الحد ؟ لها بلوى السمك ! كيف ؟

وتمضى ذاهبة وهى تهز كتفيها وقلبقها التركمانى غانص حتى عينيها .

كان الشعر يستعصى على ماريوتكا ، غير انها بالمقابل كانت تحكم الرمى ببندقيتها بشكل غريب . كانت أفضل الرماة فى فصيلة ايفسيوكوف وكانت فى أثناء المعارك توجد بجانب المفوض الارجوانى دائما .

كان ايفسيوكوف يمد اصبعه قائلا :

– يا ماريوتكا ! انظرى ! ضابط !

فتضيق ماريوتكا عينيها وتبلل شفتيها بلسانها وتلصق أخمص البندقية بخدها بتريث ، وكانت الطلقة تدوى ولا تخطئ الهدف أبدا .

وتخفض البندقية وتقول كل مرة :

– وهذا التاسع والثلاثون ! له بلوى السمك ! وهذا الاربعون ! له بلوى السمك !

كانت عبارة «له بلوى السمك» هى الشتيمة المحببة لماريوتكا .

اما الكلمات البذيئة فكانت تكرهها . فاذا شتم أحد امامهـا كانت تتجهم ويتضرج وجهها بحمرة الخجل .

كانت تحافظ بدقة على التعهد الذى وقعته لهيئـة اركان الحرب وما من امرئ فى الفصيلة كان يستطيع التباهى بانـه نال حظوة منها .

وذات ليلة حاول المجرى غوتشا – وهو قادم جديـد الى الفصيلة – أن يتسلل اليها وكان قد افترسها طوال ايام عديدة بعينيه . وقد انتهى الامر شر نهاية . فقد تكسرت ثلاث اسنان له وجرح صدغه ونجا بنفسه بشق النفس . لقد تدبرت امرها معه على هذا النحو بمقبض المسدس .

كان الجنود الحمر يسخرون بلطف من ماريوتكا ولكن حينما كانت تستعر نار القتال كانوا يهتمون بها اكثر من أنفسهم .

كان هذا تعبيرا عن حنان غير واع دفين فى الاعماق تحت الرداء القاسى من جاكيتاتهم ذات الالوان الصارخة ، وعن شهوة اجسامهم الملتهبـة المشوقـة للزوجات اللواتى خلفوهن فى البيت .

هكذا كان الثلاثة والعشرون رجلا وايفسيوكوف الارجوانـى وماريوتكا الذين كانوا يتجهون الى الشمال فى لجة بحار مـن الرمال القارسة .

كان شهر شباط – وقت العواصف الثلجيـة والاعاصير الرملية – يلقى بسطا فضية رخوة متجمدة على الحفر بيـن الكثبان ، وتفلت السماء من عقالها صافرة فوق رؤوس الذيـن يقتحمون العتمة والعاصفة حتى ان المرء ليحسب صوت الريـح المسعورة او الهواء الهاجس كأنه الرصاص يشق الهواء جادا فـى أثرهم .

كانت الاقدام المنتعلة جزمات مثقبة تبدو كأنها قدت مـن رصاص ، تنجر بمشقة فى الرمال والثلوج ، والجمال الجائعـة تتنخع وتزبد .

كان الغضار الذى جففته الريح يلمع وقد غطتـه بلورات الملح ، وكانت السمـاء تبدو فى نطاق دائرة قطرهـا مئات الفراسخ منفصلة عن الارض كأنما قطعت بسكين جزار على طول افق متساوى الاطراف غائم .

ان هذا الفصل – والحق يقال – حشو فى قصتى .

كان يحسن بى ان ابدأ بالشىء الاساسى الذى سيكون مدار القصة فى الفصول التالية .

غير ان القارئ لا بد له من ان يعرف من أين وكيف كانت تأتى فلول الفصيلة الخاصة من مدينة غوريبف على بعد سبعـة وثلاثين فرسخا فى الشمال الغربى من آبار قره – كودوك ولماذا كانت توجد امرأة فى فصيلة من الجنـود الحمـر ، ولماذا كان المفوض ايفسيوكوف ارجوانيا ، وكثير من الاشياء ايضا التى يجب أن يكون القارئ على علم بها .

استلست القيادة للضرورة وكتبت هذا الفصل ، ولكنـى اجرؤ على ان اؤكد لكم ان ليست له اية اهمية .

الفصل الثانى

تظهر فى الافق بقعة قاتمة ، تأخذ عن كثب شكل ملازم الحرس وهو غوفوروخا – اوتروك

تبعـد آبار سوى-كوداك عن آبار جان-غيلـدى سبعين فرستا * ، ومن هناك حتى آبار عين اوشكان توجد مسافة اثنين وستين فرستا .

خير الليل وقال ايفسيوكوف بصوت مرتعد وهـو يضرب باخمص بندقيته ارومة مقلوعة :

– وقوف ! سوف نبيت هنا !

أوقد الرجال نارا من عيدان السكساول الجافة التى كانـت تشتعل وتنشر دخانا اسود وكان الرمل يؤلف بقعة قاتمة رطبة حول النار .

اخرج الرز واللحم من الاخراج . كانت تفوح مـن مرق الرز رائحة لحم الغنم وهو يغلى فى القدر .

تحلق الجنود حول النار وصمتوا واسنانهم تصطك من البرد محاولين أن يدافعوا عن أجسامهم من أصابع العاصفة الثلجيـة

* فرستا – مقياس طول روسى قديـم يساوى ١٠٦٠ مترا (المترجم) .

الباردة التى كانت تنسل من جميع الثقوب . كانوا يدفئون ارجلهم على النار وجلد الجزمات يطقطق .

كانت الجمال المعقولة تحرك اجراسها برنين رتيب فى مهب زمهرير الريح الثلجية التى تكتسح الارض .

لف ايفسيوكوف باصابعه المرتعشة سيكارة غليظة وما ان سحب نفسا حتى قال بجهد :

– هيا ايها الرفاق يجب ان نقرر الى اين نذهب فى هذه الساعة .

أجاب صوت ميت من الطرف الآخر للنار :

– الى اين تريد ان نذهب ؟ لقد ضللنا الطريق على كل حال والموت لا مفر منه لنا . لا مجال للرجوع الى غوريف اذ توجد هناك شراذم من القوزاق ، ومع ذلك فما عدا غوريف ليس هناك مكان يمكننا ان نلوذ به .

– وخيوة ؟

– أتهذر ؟ انها تبعد حوالى ستمئة فرستا عبر صحراء قره قوم فى هذا الشتاء القارس ولا يوجد شىء نقتات به طول هذه المدة ! وانت لعلك ستفلى القمل من بنطلونك وتطبخ الحساء منه ؟

وانفجر ضحك ، الا ان الصوت الميت نفسه ختم الكلام كئيبا دونما أمل :

– قضى الامر ولم يبق لنا سوى الهلاك !

وينقبض قلب ايفسيوكوف تحت الجاكيت الجلدى الارجوانى بيد انه لا يكشف عن قلقه فيقاطع بحنق كلام الذى كان يتكلم :

– أيها الحقير ! كفى ذعر ! الهلاك ليس فيه ذكاء ! ان الشىء اللازم الآن هو أن نشغل دماغنا قليلا كيلا نهلك .

– يمكن الاتجاه الى قلعة الكسندروفسك . ان اخواننا هناك ، وهم الصيادون .

أجاب ايفسيوكوف :

– لسنا بصدد هذا . فقد علمنا أن دينيكين قد قام بعملية انزال هناك . ان البيض الآن قد احتلوا كراسنوفودسك والكسندروفسك .

ويصدر صوت انين حزين من جندى وهو نائم .

ويضرب ايفسيوكوف بيده ركبته التى أدفأتها النار ويقول بصوت حاسم :

– كفى ! لا يوجد ايها الرفاق سوى طريق واحد ، وهو الطريق الى بحر آرال ! فاذا قدر لنا ان نصل الى آرال ، فسوف نجد بعض البدو عند ساحله فنقتات قليلا ، ومن هناك نعرج على كازالينسك . فهناك توجد قيادة الجبهة . والمكان امين عندهم .

وما ان قال حتى سكت . فقد كان هو نفسه لا يعتقد انه يمكن الوصول الى هناك .

يرفع الرجل المضطجع الى جانبه راسه ويسأل :

– وماذا نأكل حتى نصل الى آرال ؟

فيعود ايفسيوكوف ويقول بصوت حاسم :

– يجب ان نشد الاحزمة على البطون . لسنا امراء اليس كذلك ! السيد يرغب سردينا مغمسا بالعسل ؟ خذ جلدة الصرم ! ما يزال لدينا رز وقليل من الطحين .

– لثلاث مراحل ؟

– وماذا يعنى ؟ من هنا حتى خليج تشيرنيش عشر مراحل . لدينا ستة جمال . وحينما نأتى على المؤن سنبدأ بذبح الجمال . وعلى كل حال لسنا بحاجة الى الجمال . نذبح جملا ونحمل لحمه على جمل آخر . وهكذا لا بد ان نصل .

ما كان أحد لينبس ببنت شفة . كانت ماريوتكا مستلقية قرب النار مستندة على مرفقيها تتامل اللهيب بعينيها كعينى الهرة اللتين لا ترفان . سرت فى بدن ايفسيوكوف ارتعاشة اضطراب .

فنهض واقفا ونفض الثلج عن جاكيته .

– انتهى ! هذا امرى ، سنحمل عصار الرحيل عند الفجر . ربما لا نصل كلنا – وارتعش صوت المفوض كأنه صوت عصفور مجفل – ولكن يجب ان نتقدم . . . لأنه ، ايها الرفاق . . . الثورة . . . هى . . . لشغيلة الدنيا كلها !

أخذ المفوض يستعرض وجوه جنوده واحدا واحدا ويحدجهم فى عيونهم . فلم يجد فيها ذلك اللهيب الذى اعتاد أن يراه خلال هذا العام . كانت نظراتهم باهتة تحيد عن عينيه ، واليأس والخوف ينضحان من تحت الاهداب المطرقة .

قال أحدهم :

– عندما ننتهى من أكل الجمال ، فلن يبقى لنا الا ان ناكل بعضنا بعضا .

وظل الجميع ساكنين ايضا .

وفجأة صاح ايفسيوكوف بصرخة حادة مسعورة :

– كفى هراء ! الواجب الثورى ، أتعرف ماذا يعنى ؟ سكوت ! ما دامت الاوامر قد صدرت فكفى ! من يخالفها – امامه الاعدام !

وغص بنوبة من السعال فقعد .

أما الذى كان يحرك الجريش بعصا البارودة فقد صاح فى الريح صيحة فيها فرحة مفاجئة :

– ما بكم حتى تبكوا على هذا الشكل ؟ تعالوا كلوا ! لماذا طبخته ؟ يا لكم من جنود ، يا ابن الكلب !

واخذوا يغترفون بملاعقهم لقما دسمة من الرز . كانت أفواههم تكويها حرارة اللقم لدى ازدرادها قبل تبريدها ، غير انه كان يبقى على الشفاه مع ذلك طبقة متجمدة من الدهن ذات طعم مالح .

كانت النار تخمد نافثة فى أحشاء الظلمة من حين الى آخر شرارات برتقالية . وكان الجنود يرتصون أكثر فأكثر على بعضهم بعضا وهجعوا وهم يشخرون ويئنون ويشتمون فى نومهم .

استيقظ ايفسيوكوف عند الفجر على ضربات خفيفة سريعة على كتفه . ما كاد يفتح أهدابه المتجمدة حتى ارتعش ومد يده المتخدرة بحركة سريعة ، بحكم العادة ، الى البندقية ليتناولها .

– على رسلك ! لا تتحرك !

أبصر ماريوتكا تميل عليه وعيناها كعينى الهرة تلمعان فى صفرة العاصفة الرميلة المعتمة .

– ماذا تريدين منى ؟

– انهض أيها الرفيق المفوض ! ولكن بدون ضوضاء ! لما كنتم نائمين ركبت جملا . ان قافلة قرغيزية قادمة من جهة جان-غيلدى .

انقلب ايفسيوكوف الى جنب آخر ، وسأل كأنه شرق :

– اية قافلة ؟ الا تكذبين ؟

– صحيح . . . صحيح . له بلوى السمك ! البدو ! نحو أربعين جملا .

ونهض ايفسيوكوف مندفعا وصفر فى أصابعه . وكان الثلاثة والعشرون ينهضون بصعوبة يسخنون أجسادهم التى صارت كأنها أجساد الغير من شدة البرد ، ولكنهم أفاقوا بسرعة لما سمعوا عن القافلة .

ولم ينهض الا الاثنان والعشرون ، أما الاخير فلم ينهض . كان يرقد متدثرا بحصيرة ، وكانت الحصيرة ترتجف رجفة متموجة من جسم الرجل المضطرب فى الهذيان .

جست ماريوتكا باصبعها جسم المريض تحت ياقة قميصه وقالت :

– انها الحمى !

– وماذا سنعمل به ؟ غطوه باللباد . سنأخذه فى طريق العودة . من أى جهة مرت قافلتك ؟

أشارت ماريوتكا الى الجهة الغربية .

– ليست بعيدة ، ستة فرسخات . بدو مترفون بشكل مضحك . توجد أكياس مكتظة على ظهور الجمال .

– يا للحظ ! شريطة الا ندعهم يهربون . حالما نراهم يجب أن نحاصرهم من كل اتجاه . واركضوا بكل قواكم من اليمين وبعضكم الآخر من الشمال . الى الامام هيا !

ومضى خطهم بين الكثبان وقد حنوا قاماتهم وأخذوا يعدون فتمتلىء أجسامهم من حرارة الركض .

ومن أعلى ذروة كثيب خططته التواءات الرمال أبصروا من بعيد على احدى الهضاب المسطحة ظلالا قاتمة لخط من الجمال .

كانت الاحمال على اسنام الجمال تتأرجح بتثاقل . كان غفوزديف وهو جندى ذو وجه مجدر يتمتم بحرارة :

– ساقها اللّه الينا ! فالحمد للّه !

لم يستطع ايفسيوكوف أن يحبس شتيمة غص بها حلقه :

– . . . اللّه ؟ كم مرة يجب ان نكرر عليك انه لا يوجد أى اله وان كل شىء يفسر بطبيعته الفيزيائية .

ما كان الوقت يسمح بالتلكؤ والجدل . وما ان اعطيت الاشارة حتى ركضوا يقفزون مستفيدين من كل عطفة من منعطفات

الرمال وكل قطعة من الشجيرات . كانوا يشدون على اخامص بنادقهم بعصبية . وكانوا يعرفون انه لا يجب – بل يستحيل – ان يتركوا هذه القافلة تهرب ، فهى الحياة والامل والنجاة .

كانت القافلة تمشى على رسلها هادئة . فبانت على ظهور الجمال بسط اللباد المخططة ورجال من القرغيز مرتدون العباءات الدافئة وعلى رؤوسهم القلابق .

انتصب ايفسيوكوف على كثيب بسرعة كانه برق ارجوانى وهز مسدسه وصاح بصوت جهير :

– قفوا ! اذا كان معكم أسلحة ، فحطوها على الارض ، حذار ان تتراذلوا ! والا قتلتكم جميعا !

ما كاد ينهى صياحه حتى انبطح القرغيز على الارض مذعورين واعجازهم للسماء .

كان الجنود الحمر يركضون لاهثين من كل جانب . صاح ايفسيوكوف :

– امسكوا الجمال يا شباب !

وفى هذه اللحظة اطلقت النار من القافلة فقطعت كلامه .

أخذ الرصاص يئز ازيزا شديدا والى جانب ايفسيوكوف سقط رجل ، راسه فى الرمال وذراعاه ممدودتان لا تحيران بحركة . صاح ايفسيوكوف وقد ارتمى فى أخدود من رمال الكثيب :

– انبطحوا واطلقوا النار على هؤلاء الاوغاد ! – وابتدا اطلاق الرصاص يدوى متلاحقا .

كان رجال مجهولون يطلقون النار من وراء الجمال المناخة . أتراهم قرغيز ؟ ليس محتملا ، فالرصاص الذى يطلقونه كان محكم التصويب .

كان الرصاص ينغرز فى الرمال بالقرب من الجنود الحمر المتمددين .

وكانت السهوب تعكس صدى طلقات الرصاص الا أن اطلاق الرصاص من جانب القافلة خف شيئا فشيئا .

أخذ الحمر يقتربون منهم قفزة بعد قفزة .

وعلى بعد ثلاثين خطوة أبصر ايفسيوكوف وراء جمل راسا عليه قلبق غطته قلنسوة برنس بيضاء ، ثم كتفا فوقها عصابة

ذهبية فصاح وهو يلفت راسه للفتاة التى كانت تزحف وراءه :

– يا ماريوتكا ! انظرى ! ضابط !

– أجل ! رأيته !

سددت البندقية بأناة واطلقت النار .

أترى أصابعها مخدرة من البرد أم كانت مرتعشة من الانفعال والتسرع ؟ فانها ما كادت تتمتم «الواحد والاربعون ، له بلوى السمك !» حتى نهض من وراء الجمل الرجل ذو القلنسوة البيضاء يرتدى برنسا قصيرا أزرق ورفع بندقيته عاليا . كان منديل أبيض يرف فى طرف الحربة .

رمت ماريوتكا بندقيتها فى الرمل وبكت غيظا وهى تمسح الدموع على وجهها الوسخ .

انقض ايفسيوكوف على الضابط ، ولكنه كان قد سبقه جندى احمر راكضا وهو يتهيا ليحكم الضربة بالحربة .

صاح المفوض :

– لا تلمسه ! امسكه حيا !

امسكوا الضابط ذا البدلة الزرقاء واوقعوه على الارض .

أما الرجال الخمسة الذين كانوا معه فقد ظلوا مضطجعين وراء الجمال حتى حصدهم الرصاص .

كان الجنود يضحكون ويسبون ويجرون الجمال من خزاماتها ويربطونها زمرا زمرا .

كان القرغيز يركضون وراء ايفسيوكوف ويتعلقون باذيال جاكيته ومرفقيه وينطلونه ويتمتمون وينظرون اليه نظرة ضارعة من شقوق عيونهم الضيقة .

والمفوض يشيح عنهم ويتخلص منهم بشراسة ويعربد ويمتعض وقد نالت منه الشفقة امتعاض الرائى لحالهم ويهدد بمسدسه الوجوه الدبيغة ذات الوجنات البارزة .

– كفى ! الى الوراء ! لا سبيل الى المناقشات .

تعلق بحزام ايفسيوكوف عجوز ذو لحية بيضاء يلبس عباءة متينة .

اخذ يتكلم بسرعة ويتمتم متوسلا :

– نعم يا باى . . . الامور سيئة . . . القرغيزى بحاجة الى الجمل ليعيش . . . القرغيزى بدون جمل يموت . . . لا تصنع

هكذا يا باى . . . أتريد مالا ؟ نعطيك المال . . . مال القيصر ، مال كيرينسكى . . . كم تريد أن نعطيك كى تعيد الجمال ؟

– الا تفهم – يا راس الجحش – نحن ايضا سنموت بدون جمال . أنا لست قاطع طريق ، انا اصنع هذا بضرورة ثورية مؤقتا . . . انتم يمكنكم – ايها البدو – ان تصلوا الى اهلكم مشيا ، اما نحن فالموت بالمرصاد لنا بدونها .

– نعم يا باى . . . ليس حسنا . . . اعد الجمال وخذ فدية ، خذ مالا . . . – فعاود القرغيزى توسله وتضرعه .

تخلص ايفسيوكوف منه .

– كفى كلاما ! خذ ايصالا وانتهى الامر .

وقدم الى القرغيزى ايصالا مكتوبا على قطعة جريدة .

رماه القرغيزى على الرمل وتهاوى هو نفسه على الارض وطفق ينتحب وقد غطى وجهه بيديه .

كان الباقون ساكتين ودموع صامتة ترتعش فى مآقى عيونهم المتغضنة السوداء .

التفت ايفسيوكوف وتذكر الضابط الاسير .

أبصره بين جنديين احمرين . كان الضابط يقف هادئا وساقاه المنتعلتان جزمة لباد سويدية متباعدتين قليلا . كان يدخن ويتأمل المفوض بابتسامة هازئة . سأله ايفسيوكوف :

– من أنت ؟

– ملازم فى الحرس غوفوروخا – اوتروك . وانت ؟ من انت ؟ – سأله الضابط بدوره وهو ينفث نفسا من الدخان .

ورفع رأسه .

عندما نظر الى الجنود الحمر مواجهة راى ايفسيوكوف والباقون ان الملازم ذو عينين زرقاوين زرقة شديدة ، كانهما كرتان من النيلة تعومان فى رغوة الصابون الناصعة .

الفصل الثالث
عن بعض المضايقات التى تحدث فى الاسفار عبر آسيا الوسطى بدون جمال ، وعن مشاعر رفاق كريستوفر كولومبس

كان ينبغى لملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك ان يكون فى جدول قنائص ماريوتكا الرقم الواحد والاربعين .

ولكن البرد والانفعال كان سبب اخفاق الطلقة .

وهكذا ظل الملازم فى الدنيا رقما زائدا فى لائحة الاحياء .

جرى تفتيش الاسير بأمر من ايفسيوكوف فنقب جيوبه فاكتشف فى ظهر جاكيته جيب سرى .

جمع الملازم كالمهر الارن حينما لمست يد الجندى الاحمر الجيب الا انه كان ممسوكا بشدة ولم يكشف عن ارتباكه الا بشحوب وجهه وارتعاش شفتيه .

تناول ايفسيوكوف الصرة المصنوعة من الخيش وفتحها بحذر على محفظة الخرائط وقرأ الاوراق بنهم ، ثم هز الرأس ساهما .

كان مكتوبا فى هذه الاوراق : ان ملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك فاديم نيقولايفيتش مكلف من قبل حكومة الحاكم الاعلى لروسيا الاميرال كولتشاك بأن ينوب عنه لدى حكومة ما وراء بحر قزوين للجنرال دينيكين .

وكانت الرسالة تقول : أما الرسالة السرية فان الملازم سينقلها شفويا الى الجنرال دراتسنكو .

طوى ايفسيوكوف الاوراق ودسها فى عبه باحتراس وسأل الملازم :

– ما هى الرسالة السرية ايها السيد الضابط ؟ يحسن بك ان تقولها لنا دون ان تخفى شيئا فانت اسير بين ايدى الجنود الحمر وأنا قائدهم المفوض ارسنتى ايفسيوكوف .

رمقت عينا الملازم الزرقاوان ايفسيوكوف .

وتبسم الملازم هازئا وتهيأ ضاربا كعبى رجليه . وقال :

– السيد ايفسيوكوف ؟ لى الشرف بمعرفتك . يؤسفنى ان حكومتى لم تخولنى ان ادخل فى مفاوضات دبلوماسية مع شخصية رفيعة مثلك !

صار النمش فى وجه ايفسيوكوف اكثر شحوبا من وجهه . ان الملازم يسخر منه امام الفصيلة كلها .

اخرج المفوض المسدس .

– قل اذن ايها الابيض الحقير ! لا تتحذلق ! والا أكلـــت رصاصة !

هز الملازم كتفيه .

– انت غر ، ولو انك مفوض ! إن قتلتنى فلـــن تنال شيئا أبدا !

خفض المفوض مسدسه وسب :

– سترقص عندنا أيها النتن ! سأريك نجوم الظهر . . .

ومرة اخرى ابتسم الملازم من طرف شفتيه .

قذف ايفسيوكوف بصقة وابتعد .

سأل أحد الجنود :

– اذن ايها الرفيق المفوض نرسله الى جنة الفردوس أم ماذا ؟

حك المفوض انفه المقشر بطرف ظفره :

– لا ، هذا صيد ثمين . يجب اقتياده الى كازالينسك . وفى هيئة الاركان سيجدون وسيلة لحمله على الكلام .

– ما جدوى اقتياده معنا ؟ كاننا متأكدون من اننا سنضـــل نحن انفسنا .

– هل بدئ الآن بتجنيد الضابط ؟

قوس ايفسيوكوف صدره وقال بلهجة صارمة حاسمة :

– ليست هذه من شأنك ! انا المسئول ، مفهوم !

والتفت فرأى ماريوتكا :

– حسنا يا ماريوتكا ! اعهد اليك بالسيد الضابط ! ضعـى عينيك عليه . فاذا تركته يهرب فسوف يكون لك شأن معى !

وبدون أن تقول شيئا ، اصلحت ماريوتكا وضع بندقيتهـــا فى نجادها فاقتربت من الاسير .

– هيا تعال الى هنا ! فانا حارستك . ولكن حذار أن تتصور انك تستطيع الافلات منى لاننى امرأة ، فانا سأرميك من بعـــد ثلاثمئة خطوة وانت تركض ! لقد اخطأتك مرة ولن أخطئك هذه المرة . لك بلوى السمك !

ألقى عليها الملازم نظرة من طرف عينه وابتسم ابتسامـة ناعمة وانحنى لها بوجاهة :

– أنا سعيد جدا بأن اكون اسير فارسة ساحرة !

قالت ماريوتكا بلهجة ممطوطة وهى تنظر اليه نظرة شرسة :

– ماذا ؟ ماذا تغمغم ؟ يا نذل ! يا رقاص ! كفـى ثرثرة ! هيا الى الامام سر !

وفى ذلك المساء توقفا عنـــد شاطئ بحيرة صغيرة وألقوا عصا التسيار ليبيتوا هناك .

كان الماء المالح من تحت الجليد يفوح برائحة النتانة واليود . هجعوا وغطوا فى سبات عميق . كانوا قد أخذوا من عـــلى جمال القرغيز البسط واللبابيـــد فتدثروا بها ونعمـوا بالدف، فشعروا كانهم فى الجنة .

وقبل ان تنام ، ربطت ماريوتكا وثيقا الملازم برسن جمـــل ثم لفته حول خصره محتفظة بطرفه فى يدها .

كان جميع الجنود يمزحون . صاح سيمانى وهـــو رجل ذو عينين كعينى السمكة :

– انظروا معى الى هذا يا شباب ! ان ماريوتكا تسعـــى لان تفتن صديقها الحلو !

نظرت ماريوتكا الى الساخرين نظرة ساحقة قاتلة .

– كفى هذرا ومزاحا ! لكم بلوى السمك ! واذا هرب ؟

– يا بهيمة ! هل له راسان والى أين سيذهب فى الصحراء ؟

– لا ادرى . ان نفسى لتطمئن هكذا اكثر . نم ، ايها الفارس الابرص .

دفعت ماريوتكا الملازم تحت البساط وتمددت بجواره .

كان النوم حلوا تحت الغطاء الصوفى واللبادى الذى تنبعث منه رائحة السهوب وحرارة تموز القائظة ، والافسنتين ، فتبعث فى خاطر المرء صورة الرمال الشاسعة . استرخى الجســـم واستسلم لنعاس ناعم حلو .

كان ايفسيوكوف يشخر تحت بساطه ، وكانت على شفـــة ماريوتكا – وهى نائمة – ابتسامة حالمـــة . أما ملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك فقد نام مستلقيا على ظهره وهو يزم شفتيه الجميلتين .

سهر الحارس وحده فقد جلس على طرف لباد والبندقية على ركبتيه ، تلك البندقية التى هى أعز عليه فى هذه الساعة من زوجته أو حبيبته .

كان ينظر الى الظلمة التى يشوبها شىء من البياض حيث ترن بهدوء أجراس الجمال .

يوجد الآن أربعة وأربعون جملا ، والطريق مستقيم مع انه شاق .

لم يعد الشك ينهش نفوس الجنود الحمر .

كانت الريح تعصف وتعول وتنفث نتف الثلج فى كم الحارس . كان الحارس جاثما يرتعد بردا فيرفع ذيل الغطاء ويضعه على ظهره . وسرعان ما يقف البرد على طعنه ويستدفئ الجسم المتجمد .

الثلوج ، والظلمة . والرمال ، دائما رمال !

بلاد آسيوية غامضة !

– الجمال ! اين الجمال ؟ يا ابن . . . انت نائم . . . نعم ، أنت نائم يا نذل ! ماذا فعلت يا ابن الحرام ؟ آه ! ساقتلك !

يدور رأس الحارس من ضربة جزمة فظيعة تلقاها . ويجيل الطرف فيما حوله مضطربا .

ثلوج وعتمة .

الشفق الذى لفه الضباب . والرمال ، دائما رمال !

وليس هناك جمال .

وهناك حيث كانت ترعى الجمال عثروا على آثار حيوانات ورجال . انها آثار أحذية قرغيزية مدببة .

ربما تعقبهم ثلاثة من القرغيز طيلة الليل واستردوا الجمال حينما كان ينام الحارس .

تجمع الجنود الحمر صامتين . ليس هناك جمال . هل يجدون فى أثرها ؟ لن يلحقوا بها ولن يعثروا عليها فى الرمال . . .

قال ايفسيوكوف للحارس :

– يجب ان ترمى بالرصاص يا ابن الكلب !

لم يرد الحارس وانما تعلقت بجفونه دموع جامدة .

تدحرج الملازم من تحت غطائه ونظر فيما حوله وصفر . ثم قال بسخرية :

– انه الانضباط السوفييتى ! يا لكم من عصبة حمقى !

صاح ايفسيوكوف بصوت ساخط :

– سد بوزك ! ما من أحد يطلب منك شيئا !

ثم اردف بهمس كئيب غير مألوف :

– ماذا ننتظر ؟ هيا نسير يا اخوان !

كان أحد عشر رجلا فقط يسيرون وراء بعضهم بثياب رثة يترنحون ويتسلقون الكثبان .

أما العشرة الباقون فكانوا صوى على الطريق المظلم .

وفى الصباح كانت عينا احدهم اللتان تخبوان من الاعياء ، تفتحان لآخر مرة . وكانت رجلاه المتورمتان تتجمدان وليس ثمة صوت سوى حشرجة رهيبة .

اقترب ايفسيوكوف الارجوانى من المحتضر ولكن وجه المفوض كان لم يعد بنفس لون جاكيته الارجوانى . اذ أصبح جافا رماديا والنمش الذى فى وجهه يشبه دراهم نحاسية عتيقة .

كان ينظر ويهز رأسه ثم أحرقت سبطانة مسدسه الباردة صدغ المسكين مخلفة ثغرة مستديرة سوداء لا تكاد الدماء تنزف منها .

وبعد ما أهالوا الرمال على الجثة بسرعة واصلوا طريقهم .

كانت الجاكيتات والبناطيل ممزقة والجزمات قد تمزقت فلم يعد لها شكل وكانت الارجل تغلف بقطع اللباد وتعصب الاصابع المتجمدة بالخرق .

الرجال العشرة يمشون مترنحين متعثرين والرياح تلطمهم .

ورجل واحد يمشى منتصب القامة هادئا .

انه ملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك .

قال الجنود الحمر لايفسيوكوف غير مرة :

– أيها الرفيق المفوض ! هل سنستمر فى اقتياده طويلا ؟ انه يستهلك وجبة طعام بلا طائل منه ثم يمكننا ان نقتسم ملابسه وحذاءه الجيدة .

الا أن ايفسيوكوف ما كان يسمح بلمس الملازم .

– ساقتاده الى اركان الحرب أو سأموت معه . يمكنه

ان يعطى معلومات مفيدة . لا يجوز قتل مثل هذا الرجل بلا جدوى . على كل حال سينال ما يستحقه .

كان ذراعا الملازم مغلولتين من المرفقين بالرسن وطرفه الآخر مربوط بحزام ماريوتكا . كانت تمشى بمشقة . لم يبق فى وجهها شىء حى سوى العينين اللتين كعينى الهرة فقد اصبحتا كبيرتين .

اما الملازم فكان كالزهرة بخير حال . ولم يطرأ عليه سوى شحوب قليل .

وذات مرة دنا منه ايفسيوكوف ونظر فى عينيه الزرقاوين العميقتين . وعوى فى وجهه بصوت مبحوح :

– ما يدرينى ، هل انت من الحديد ام ماذا ؟ تبدو غلاما خرعا ، ولكنك تحتمل احتمال رجلين ! من اين لك هذه القوة ؟

رد عليه الملازم بهدوء وقد رفت على شفتيه ابتسامته الساخرة المالوفة :

– انك لن تدرك . هناك الفرق بين الثقافتين : الجسد عندك يسيطر على الروح ، بينما الروح عندى تهيمن على البدن . استطيع ان آمر نفسى الا اتالم .

قال المفوض بصوت ممطوط :

– آه ! هكذا اذن !

كانت الكثبان الوعثاء المتحركة المتموجة تحيط بهم من كل جانب . وكانت الرمال تسفيها الرياح اعاصير صافرة وتبدو كانها لن تنتهى .

سقط احد الجنود وهو يكز بأسنانه ويتمتم :

– لن اذهب الى ابعد . دعونى استريح . ما عادت بى قوة !

غير ان ايفسيوكوف يقترب منه وينهضه بالشتائم وبضربات برجله .

– امش ! ليس لك حق فى الهرب من الثورة !

فينهض هذا الجندى ويمشى . وكان احدهم قد تسلق قمة كثيب . التفت وابدى وجها متشنجا وصاح :

– آرال ! . . يا اخوان ! . .

وهوى بوجهه على الارض . تسلق ايفسيوكوف كثيبا بجهد

اخير ، فصافحت عينيه الملتهبتين زرقة تعشى البصر . اغمض عينيه واخذ يهبش الرمل باصابعه المتشنجة .

لم يسمع المفوض قط الحديث عن كريستوفر كولومبس وما كان يعرف ان البحارة الاسبان لدى سماع الراصد يصيح «ارض !» كانوا يهبشون كذلك ظهور السفن الشراعية .

الفصل الرابع

اول حديث لماريوتكا مع الملازم وارسال المفوض بعثة بحرية

وصلوا فى اليوم التالى الى قرية قرغيزية على الشاطئ .

واول ما وصل الى خياشيمهم رائحة دخان واردة من وراء الكثيب الاخير فحركة عصافير البطون .

بدت قباب الخيام الحمراء من بعيد واسرعت الكلاب تعوى مسعورة .

كان القرغيز متجمهرين امام خيامهم ينظرون بعطف وذهول الى هذه الاشباح الآدمية التى تقترب .

قام عجوز افطس ومسح لحيته الخفيفة ثم صدره وقال مع اشارة من رأسه :

– السلام عليكم . الى اين ذاهبون هكذا ؟

صافح ايفسيوكوف بضعف اليد الجافة الصلبة الممدودة اليه :

– نحن من الحمر ، ذاهبون الى كازالينسك . استقبلونا واطعمونا ، ولسوف يكافئك السوفييت .

هز القرغيزى لحيته وغمغم :

– نعم ، يا باى . . . عساكر حمر . . . بولشفيك . . . انت جئت من الوسط ؟

– لا ! لم نأت من الوسط ، جئنا من غورييف .

– غورييف ؟ اوه يا باى ! اوه يا باى ! عبر قره قوم ؟

كان الخوف والاحترام يتقدان فى عيون القرغيز الضيقة امام هذا الرجل الارجوانى الذى اجتاز صحارى قره قوم الرهيبة مشيا على الاقدام حتى بحر آرال فى أشد برد شباط .

صفق العجوز بيديه وكلم النسوة اللواتى اقتربن منه مسرعات ، بصوت فيه غنة .

أمسك المفوض من ذراعه .

– تعال الى الخيمة . تنام قليلا وبعد النوم تاكل البيلاو (الرز المفلفل) .

تهاووا كانهم موتى فى دفء الخيام وغطوا فى سبات عميق حتى المساء . كان القرغيز قد اعدوا البيلاو فاطعموا ضيوفهم وربتوا بلطافة على اكتافهم البارزة العظام .

– كل ، كل ! أنت جاف قليلا ! كل ، وستكون بصحة جيدة !

التهموا الطعام بنهم وهم يغصون . امتلأت البطون بالبيلاو الدسم حتى اصيب بعضهم بالتخمة . كانوا يركضون فى السهب ويدسون اصابعهم فى حلوقهم ليخففوا عن انفسهم ويعودون بعدئذ ليلتهموا . انتفخوا من الطعام فعادوا الى النوم .

ما عدا ماريوتكا والملازم فلم يناما .

كانت ماريوتكا ساهرة امام الفحم المتقد فى الموقد ناسية الآلام التى مرت بها .

كانت قد اخرجت من خرجها قطعة قلمها الصغير العزيز واخذت تسطر حروفا على صفحة ملحق مصور بمجلة «العصر الحديث» كانت قد استجدتها من امراة قرغيزية . كانت الصفحة كلها تشغلها صورة الكونت كوكوفتسيف وزير المالية القيصرى ، وكانت السطور التى تنهمر من اشعار ماريوتكا تقطع جبهة كوكوفتسيف الواسعة ولحيته الشقراء .

غير ان الرسن كان ما يزال مربوطا بحزام ماريوتكا والطرف الآخر يغل يدى الملازم وراء ظهره بشكل وثيق .

وقد افلتته ماريوتكا لمدة ساعة فقط ليأكل البيلاو وما ان شبع حتى عادت واوثقت يديه .

كان الجنود الحمر يمزحون وينكتون :

– ككلب الحراسة .

– عشقته يا ماريوتكا ؟ اربطى حبيبك العزيز . حذار ان تاتيك جنية ببساط الريح وتخطفه منك .

ما كانت ماريوتكا لتتناول بالرد عليهم .

كان الملازم جالسا وكتفه مستند الى دعامة الخيمة وعيناه الزرقاوان ترقبان جهود قطعة القلم الصعبة .

مال وسأل بصوت خافت :

– ماذا تكتبين ؟

نظرت اليه ماريوتكا شزرا من خلال خصلها الشقراء المتدلية من شعرها :

– ماذا يعنيك هذا ؟

– لعلك تكتبين رسالة ؟ املِيها علىّ وانا اكتب .

ضحكت ماريوتكا بهدوء :

– انك خبيث ! تريد أن أفك وثاقك كى تهرب . ماذا تظننى يا عزيزى ؟ لست بحاجة الى مساعدتك . انا لا اكتب رسالة وانما انظم شعرا .

تفتحت اهداب الملازم كالمروحة وابتعد ظهره عن الدعامة .

– شعرا ؟ تنظمين شعرا ؟

اوقفت ماريوتكا ارتعاشات القلم وتضرج وجهها بحمرة الخجل .

– ماذا اصابك ؟ تظن انك تستطيع أن ترقص وانني بلهاء ؟ لست أشد بلاهة منك !

فتح الملازم مرفقيه لأن يديه موثقتان .

– لا اظنك بلهاء . اننى لأندهش مجرد دهشة . هل هذا وقت نظم الشعر ؟

تركت ماريوتكا قلمها والقت راسها الى الوراء فغمرت كتفيها بشعرها البرونزى المذهب .

– ما اسخفك ! اذن حسب رايك يجب ان اغط تحت اللحاف لنظم الشعر ؟ واذا كانت روحى تغلى ؟ واذا كنت اود احكى كيف قطعنا الرمال بدون أن نقتات بشىء وبدون ملابس ؟ أقول كل شىء لأسر قلوب الناس الطيبين ! أضع فى شعرى كل دمى ولكنهم لا يريدون نشره . انهم يقولون يجب ان أدرس أولا . من اين لى الوقت للدراسة ؟ اننى أكتب من قلبى ، من بساطتى !

افتر الملازم عن ابتسامة وادعة :

– الا تريدين أن تطليعنى على شعرك ؟ انه لشيق . ولى معرفة فى الشعر .

اجابت ماريوتكا بلهجة حزينة :

– لن تفهم . ان دمك ارستقراطى لزج ! ان ما تريده فى الشعر هو الغزل والفتيات . بينما فى شعرى يوجد الناس الفقراء المساكين ثم الثورة .

فاجاب :

– ولماذا لن افهم ؟ قد يظل محتوى الشعر غريبا على ، ولكن البشر يستطيعون دائما ان يفهموا بعضهم بعضا .

قلبت ماريوتكا صورة كوكوفتسيف راسا على عقب وهى مترددة وخفضت بصرها .

– حسنا ، لا بأس ! اسمع ولا تمزح أو تضحك . ان اهلك قد جلبوا لك المربين حتى بلغت العشرين ، هذا مؤكد غير انني انا قد تعلمت بنفسى .

– وايم الحق ، لن اضحك .

– اذن اسمع . قلت كل شىء هنا . كيف تقاتلنا مع القوزاق وكيف رحنا الى السهوب .

سعلت ماريوتكا سعلة خفيفة وخفضت نبرة صوتها واخذت تنشد وهى تقطع الكلمات بصوت عميق وتحرك عينيها بشراسة :

عندما كان القوزاق
جلادو القيصر ، يهاجموننا
استقبلناهم بوابل من الرصاص
نحن الجنود الحمر البواسل .
بيد ان القوزاق كانوا كثيرين
فكان لا بد لنا من الانسحاب .
فاصدر ايفسيوكوف امرا .
باختراق طوق هؤلاء الانذال .
حصدناهم بالرشاش
وعلى كل حال قد ضعنا .
وسقطت جميع السرية
ما عدا عشرين
قد راحوا الى السهوب .

– طيب والبقية لم تات ، لها بلوى السمك ! لا ادرى كيف اضع الجمال فيها ؟ – قالت هذا ماريوتكا بصوت خامد الانفاس .

كانت عينا الملازم الزرقاوان فى الظل ولكن لهيب الموقد

الاخير كان يلقى انعكاسات على البياض من عينيه . قال بعد صمت :

– نعم . . . عظيم ! فيه تعبير وعاطفة . هل تفهمين ؟ انه يبدو منبعثا من قلبك . – وهنا انتفض جسم الملازم انتفاضة شديدة وكانما انتابته شهقة واضاف بسرعة : – يجب الا تنزعجى فاشعارك سيئة ، فليس فيها صنعة وتنقصها البراعة .

تركت ماريوتكا الورقة تسقط على ركبتيها ونظرت الى سقف الخيمة وهزت كتفيها .

– هذا ما قلته – انها من قلبى . ان نفسى كانت فريسة الحزن عندما كتبت هذا . تنقصها البراعة ، انهم يقولون لى فى كل مكان الشىء نفسه «اشعارك ليست سوية . لا يمكن نشرها» . فكيف ساجد البراعة ؟ ما حيلتها ؟ انت مثقف ولعلك تعرف ذلك ؟ – كانت ماريوتكا تقول للملازم بانفعال .

تريث هذا حتى اجاب :

– من الصعب ان اجيبك . الشعر – كما ترين – فن . وهكذا فان كل فن يتطلب دراسة وله قواعده وقوانينه . اسمعى مثلا : اذا كان مهندس لا يعرف كل قواعد بناء الجسور فإما انه لا يستطيع بناء جسر ابدا ، واما انه يبنى جسرا هزيلا لا يصلح لشىء .

– الجسر ليس هو الشىء نفسه . من أجل هذا لا بد من معرفة الحساب وكل ما يتعلق به . بينما الشعر هو فى قلبى منذ المهد . انه موهبة كما يقال .

– اوافقك ! والدراسة خلقت لتنمية الموهبة . ان المهندس اصبح مهندسا بدلا من ان يكون طبيبا لأنه منذ صغره كذلك كان يشعر بميل الى البناء . ولو لم يدرس ما كان شيئا يذكر .

– هكذا ! آه ، صحيح ؟ هذا عظيم ، له بلوى السمك ! حسنا . عندما ننتهى من الحرب ساذهب الى المدرسة لأتعلم الشعر . يجب ان تكون مدارس لهذا ، أليس كذلك ؟

اجاب الملازم ساهما :

– بلى ، هذا ما أعتقد .

– لا بد ان اذهب . ان الشعر يقض مضجعى . انه لجنون ،

اذ تتملكنى الرغبة بطبعها فى كتاب ووضع توقيعى فى كل مكان : «شعر ماريا باسوفا» .

كانت النار قد انطفأت . وكانت الريح فى الظلام تلطم لباد الخيمة مزمجرة . قالت ماريوتكا فجأة :

– قل ايها الضابط : يداك تؤلمانك ، أليس كذلك ؟

– ليس كثيرا ولكنهما مخدرتان .

– اسمع . احلف لى انك لا تهرب اذا فككت وثاقك .

– الى أين أهرب فى هذه الرمال ؟ كى تفترسنى بنات آوى ؟ لست مجنونا الى هذا الحد .

– لا ! احلف . ردد ما أقوله لك : اقسم بالبروليتاريا البائسة التى تناضل فى سبيل حقوقها ، واقسم امام الجندية الحمراء ماريا باسوفا اننى لا اريد ان اهرب .

ردد الملازم القسم .

وانجلت عقدة الرسن وتحررت اليدان المغلولتان .

حرك الملازم اصابعه بلذة وفرحة .

قالت ماريوتكا متثائبة :

– الآن نم . اذا هربت بعد هذا فسوف تكون أنذل الانذال . هاك هذا الغطاء تغط به .

– شكرا ، لدىّ معطفى . طابت ليلتك يا ماريا . . .

– فيلاتوفنا ، – هكذا اردفت ماريوتكا بوقار وهى تندس تحت غطائها .

كان ايفسيوكوف قد سارع الى تقديم انبائه الى قيادة اركان الجبهة .

كان لا بد من الاستراحة فى القرية والتدفؤ واستعادة القوى . وقرر الرحيل بعد اسبوع عن طريق اللف على خط الشاطىء ، الى بلدة آرالسك ومن هناك الى كازالينسك .

أنبأه بعض القرغيز العابرين فى الاسبوع التالى ان عاصفة خريفية قد قذفت قاربا للصيادين الى الشاطىء على بعد اربعة فرسخات وهو بحالة جيدة كما قالوا . انه مهجور على الشاطىء ، أما الصيادون فلعلهم غرقوا .

ذهب المفوض الى المكان المعين للاستطلاع .

فوجد القارب وهو شبه جديد من خشب البلوط الاصفر الجيدة . ولم تتلفه العاصفة وكل ما فعلته هو انها مزقت الشراع وانتزعت الدفة .

وبعد ما استشار ايفسيوكوف جنوده قرر ان يرسل بعض الرجال دونما تريث بطريق البحر الى مصب سير داريا . كان القارب يستطيع أن ينقل بسهولة أربعة رجال مع حمولة صغيرة .

قال المفوض :

– ان هذا سيكون احسن . اولا ، سيكون نقل الاسير أسرع الى وجهته . ومن يدرى ماذا قد يحدث أثناء الطريق . وهو يجب ان يوصل الى القيادة لا محالة ، وثانيا ، سيكون لدى القيادة شىء من انبائنا ، وسوف يبعثون الينا اذ ذاك خيولا وملابس واشياء اخرى .

فاذا كانت الريح مواتية فلن يتاخر القارب فى قطع آرال أكثر من ثلاثة ايام او اربعة ، وفى اليوم الخامس سيكونون فى كازالينسك .

كتب ايفسيوكوف تقريرا ووضعه فى الصرة التى كانت فيها أوراق الاسير التى كان يحتفظ بها طوال الوقت فى الجيب الداخلى لجاكيته .

رقعت القرغيزيات الشراع وصنع المفوض بذاته دفة من قطع خشب ومن مقعد القارب .

وفى صباح بارد من ايام شباط عندما ارتفعت الشمس صفراء فى السماء الزرقاء الصافية ، جرّت الجمال القارب حتى حافة الثلوج على البحر .

دفع فى الماء وركبه الركاب الذاهبون .

قال ايفسيوكوف لماريوتكا :

– لك القيادة ! المسئولية عن كل شىء عليك . لتكن عينك على الضابط . اذا تركته يهرب فسوف تأسفين على عمرك . اقتاديه حتى القيادة حيا او ميتا . واذا وقعتم صدفة بين أيدى البيض فلا تتركيه لهم حيا . والآن على الطائر الميمون !

الفصل الخامس

هذا الفصل مقتبس كل الاقتباس
من دانيل ديفو مع فارق واحد
هو أن روبنسون لم ينتظر طويلا «جمعة»

بحر آرال ليس بحرا وادعا مرحا .

كانت الشواطىء المستوية مغطاة بالافسنتين والرمال والكثبان الوعثاء .

وكانت جزر آرال منتشرة فوق الماء كارغفة على مقلاة ، مسطحة ولامعة . فما ان يراها المرء حتى لا يجد فيها حياة .

لا طائر ولا قشة عشب ، اما الانسان فلا يوجد له أثر فيها الا فى الصيف .

ان الجزيرة الرئيسية فى آرال هى برسا – كيلمس . وما كان يعرف ماذا يعنى هذا الاسم . ولكن القرغيز يزعمون أن هذا يعنى «هلاك المرء» .

تغادر مراكب الصيد فى الصيف بلدة آرالسك قاصدة الجزيرة . والصيد فيه وفير كل الوفرة فالماء يغلى بالاسماك .

ولكن ما أن تعصف رياح الخريف فتثير الامواج العاتية حتى يلجأ الصيادون الى خليج آرالسك الهادىء ولا يخرجون منه حتى الربيع .

فاذا لم يسعفهم الوقت لنقل الصيد قبل موسم العواصف ، فان الاسماك المصطادة تبقى طيلة الشتاء فى الجزيرة فى سقائف خشبية باكوام مملحة .

وفى فصول الشتاء القاسية عندما يغشى الجليد البحر من خليج تشيرنيشيف حتى جزيرة برسا يكون هذا حظا كبيرا لبنات آوى . فانها تركض على الجليد الى الجزيرة وتلتهم السمك المملح حتى تموت فى الحال .

وفى الربيع عندما تحطم فيضانات سيرداريا المصفرة الجموديات ، يعود الصيادون فلا يجدون شيئا من السمك الذى كانوا قد ملحوه فى الخريف .

تجتاح الرياح البحر من شهر تشرين الثانى حتى شباط . الا انه فى الوقت الباقى لا يوجد سوى هبات من الرياح القليلة وفى الصيف كله يكون آرال ساكنا كصفحة المرآة .

ان آرال لبحر ممل !

والشىء الوحيد الذى يبهجه هو زرقته الغريبة جدا . انها لزرقة عميقة مخملية تتلألأ كالياقوت .

وهذا ما تشير اليه كل كتب الجغرافيا .

عندما أرسل المفوض ماريوتكا والملازم ، كان يعتقد انه يستطيع أن يعتمد على صحو الجو لمدة أسبوع على أقل تقدير . وكان القرغيز يؤكدون الامر نفسه معتمدين على الدلائل القديمة .

وعلى هذا اقلع القارب باتجاه كازالينسك وعلى ظهره ماريوتكا والملازم والرجلان سيمانى وفياخير البحاران العريقان بهذه المهنة .

كانت نسمة تعبث بالموج وتنفخ بمرح فى الشراع المرقع . وكانت دفة القارب تصر فى مفاصلها بنغمة كسلى وزبد كثيف يرغو عند القارب .

فكت ماريوتكا اسيرها – فلا سبيل الى الهرب – وكان غوفوروخا – أوتروك يمسك حبال الشراع ، ويتناوب مع سيميانى وفياخير .

لقد كان يقود نفسه بنفسه الى الاسر .

وعندما جاء الجنود الحمر لأخذ حبال توجيه الشراع هجع تحت غطائه متمددا فى قاع القارب يبتسم لخواطر مبهمة خفية ، خواطر ملازم محجوبة عن الجميع .

وهذا ما كان يقلق ماريوتكا .

«ماذا اصابه حتى صار يضحك طوال الوقت هكذا ؟ لو كان عائدا الى بيته فالحق له فى ذلك . ولكنه قاصد الى القيادة وبعدئذ تنتظره الرصاصة . يا له من رجل طائش !» .

ولكن الملازم كان لا يفتأ يبتسم جاهلا تأملات ماريوتكا .

ما عادت تطيق صبرا فابتدأت بالحديث :

– اين تعلمت ركوب متن الماء ؟

فكر غوفوروخا – أوتروك قليلا ثم اجاب :

– فى بطرسبورغ . . . كان عندى يخت كبير . . . وكنت أبحر فيه . . .

– اى يخت ؟

– مركب شراعى هو . . .

– انظر ! قد أعرف اليخت احسن منك . لقد رايت كثيرا منه فى نادى المثرين فى استراخان وهى بيضاء جميلة جدا . لا أسالك عن هذا . هل ليختك اسم ؟

– «نيللى» .

– وما هذا الاسم ؟

– كان هذا اسم اختى ، فاطلقته على اليخت تكريما لها .

– ليس اسما عاديا هذا .

– هيلين . . . نيللى باللغة الانجليزية .

صمتت ماريوتكا وتاملت الشمس البيضاء التى كانت تسكب أشعتها اللاامة الباردة . كانت تجنح الى مخمل البحر الازرق ! واردفت :

– ما أجمل الماء ! فى بحر قزوين لون الماء أخضر وهنا ما أشد زرقته !

رد الملازم كانما يرد على نفسه :

– فى سلم فوريل يقترب من الدرجة الثالثة .

التفتت ماريوتكا وقالت قلقة :

– ماذا ؟

– اكلم نفسى عن الماء لقد قرات فى كتاب فى علم المـــاء ان زرقة هذا البحر شديدة جدا . وقد وضع العالم فوريل جدولا لدرجات لون ماء البحـار . وان اشـد زرقـــة هى فى المحيط الهادئ . والزرقة التى هنا تقترب من الدرجة الثالثة حسب هذا الجدول .

اغمضت ماريوتكا عينيها نصف اغماضة كانما كانت تود ان تتخيل جدول فوريل ملونا بمختلف الالوان الزرقاء .

– انه لازرق بشكل غريب حتى انه لمن الصعب مقارنته . ما أشبه زرقته بـ . . . – ثم فتحت فجاة عينيها الصفراويـــن كعينى الهرة وحدجت بهما عينى الملازم الزرقاوين . وارتعشت كانما تجلى لها شىء وفتحت فمها مذهولة وتمتمت : – يا امتاه !

ما أشبه عينيك بماء هذا البحر ! وانا كنت أسائل نفسى ماذا أجد فيهما . لك بلوى السمك !

لم ينبس الملازم ببنت شفة .

كان شعاع اصفر دام يصبغ الافق . وعلى بعد كان المـــاء يتلالأ بانعكاسات المداد الازرق القاتم . وكانت نسمة باردة تهب عليلة .

تحرك سيميانى وهو يحاول أن يلتف فى معطفـــه الممزق وقال :

– هذه قادمة من الشرق .

رد فياخير :

– اخشى أن تكون نذير عاصفة !

– ليس ثمة خطر ، بعد ساعتين سوف نصل برسا . فاذا كان الطقس سيئا فسوف نمضى الليل هناك .

وصمتا . واذا بالامواج تصبـــح بلون الرصاص يتراقص القارب عليها .

وارتفعت الى السماء السوداء عصائب ضيقة من الغيوم .

– هذا ما كنت اخشاه ، ها هى ذى العاصفة قد بدات . . .

– ليست برسا بعيدة . انها على يسارنا . انها لمكـــان ملعون . ليس فيها سوى الرمال من كل جانب . ثم الرياح . شد ، يا جيفة ، شد الحبال ! ليست هذه حمالة السروال للجنرال .

ما كان لدى الملازم وقت ليشد الحبال فقد غرف القارب الماء وصفعت موجة من الزبد الوجوه .

– لست أنا الذى أخطا . ماريا فيلاتوفنا هى التى اخطات التوجيه .

– انا اخطات التوجيه ؟ أنت مريض ، لك بلوى السمك ! اننى تمرست فى ادارة الدفة منذ الخامسة من عمرى .

كانت الامواج تطاردهم عالية سوداء شبيهة بظهور التنانين ، وتلطم ، بالفكوك المزبدة ، جوانب قاربهم .

– يا الهى ! لو وصلنا بسرعة ! اعتمت الدنيـــا ولا يرى شىء .

كان فياخير يتفحص الظلمة عن ميسرته فصاح صيحة فرح :

– ها هى ذى ! ها هى ذى السافلة !

كان شريط أبيض يكاد يظهر بصعوبة خلال الرذاذ والضباب . صاح سيميانى :

– اتجه الى الشاطئ ، والله فى عوننا على بلوغه !

لطمت الامواج القارب بشدة ، وصرت اخشاب القارب . وهبطت موجة على القارب فملأته حتى رسغ الرجل . صاحت ماريوتكا :

– افرغ !

– بماذا افرغ ؟ ليس هنا دلو !

– بقبعات !

خلع سيميانى وفياخير قبعتيهما واخذا يغترفان الماء بشدة .

تردد الملازم لحظة ، ثم قفز وهب للمساعدة بقلبقه .

كان الشريط الابيض الواطئ يسرع الى القارب واستحال الى شاطئ مستو مغطى بالثلوج ، وكان الزبد الناصع قد جعله أشد بياضا .

كانت الريح تعصف وتصفر وتزمجر وتزيد فى ارتفاع الامواج المتارجحة .

وهبت الريح بحنق ورعونة على الشراع فنفخته الى أقصى حد .

وتمزق نسيج الشراع مدويا كالمدفع .

هب سيميانى وفياخير الى الصارى . وصاحت ماريوتكا باعلى صوتها وهى تضع ثقل جسمها كله على مقبض الدفة :

– امسك الحبال جيدا !

ومن الوراء اجتاحت موجة عاتية متجمدة القارب وامالته ومرت من فوقه بثقلها الضخم الشفاف .

وعندما عاد القارب واستوى من انقلابه وهو مملوء كله بالماء تقريبا لم يعد سيميانى وفياخير ليظهرا فيه وكانت مزق الشراع المبلل تصطفق فى مهب الريح .

كان الملازم جالسا فى الماء حتى منتصفه وهو يرسم شارات الصليب على صدره بسرعة .

صاحت ماريوتكا :

– الف صاعقة لعينة ! ماذا تنتظر حتى تغترف الماء ؟

وثب مثل كلب منفوش الوبر واخذ يعمل .

كانت ماريوتكا تصيح فى الليل فى مهب الريح الصافرة :

– سيميانى ! فياخير !

كان الزبد يتطاير ويبلغ المسامع صوت بشرى .

– لقد غرقا ! يا الهى !

كانت الريح تحمل القارب نصف الغريق الى الشاطئ . وكان الماء يغلى فيما حوله ، ودفعته موجة فغاص قعره فى الرمال .

كانت ماريوتكا تقفز الى الماء وتصيح :

– اقفز الى الماء ! – فتبعها الملازم بتثاقل .

– جر القارب !

امسكا حبلا ، وقد عشيت عيونهما من الرذاذ وترنحا من الامواج ، واخذا يجران القارب الذى غاص فى الرمال .

– خذ اكياس المؤن !

اطاعها الملازم . وعندما بلغت ماريوتكا مكانا جافا تركت البنادق تهوى الى الارض ووضع الملازم الاكياس .

صاحت ماريوتكا مرة اخرى فى ظلمات الليل :

– سيميانى ! فياخير !

فلم يأتها رجع جواب .

تهاوت على الاكياس وانفجرت تنتحب انتحاب الثكلى . كان الملازم واقفا وراءها تصطك اسنانه من البرد الا انه مع ذلك هز كتفيه وقال للريح :

– كما فى الحكاية ، الى الف شيطان ! روبنسون يصحبه «الجمعة» !

الفصل السادس

الحديث الثانى واكتشاف التاثير الفيزيولوجى الضار لمياه البحر التى حرارتها ٢ حسب ريوميور .

لمس الملازم كتف ماريوتكا .

وقد حاول عدة مرات ان يتكلم الا ان ارتعاش فكيه كان يعوقه عن ذلك .

وضع يده على فكيه وتلفظ :

– لا جدوى من البكاء . هيا بنا . لا نستطيع أن نبقى الى الابد هنا . والا فسوف نموت من البرد .

رفعت ماريوتكا راسها ، وقالت بلهجة يائسة :

– الى اين تريد الذهاب ؟ اننا فى جزيرة والماء حولنا من كل جانب .

– يجب ان نذهب الى ابعد . اعرف انه توجد هنا سقائف .

– من اين تعرف ذلك ؟ هل سبق ان جئت الى هنا ؟

– ابدا ، ولكن عندما كنت فى المدرسة الثانوية قرات فى الكتب ان الصيادين يبنون هنا سقائف للاسماك فيجب ان نبحث عن واحدة .

– واذا عثرنا عليها ، فماذا بعد ذلك ؟

– ان النهار يرشد ، هيا يا «جمعة» !

نظرت ماريوتكا بذعر الى الملازم .

– يا الهى ! . . هل فقد رشده ؟ ماذا سأصنع معك ؟ لسنا فى يوم الجمعة وانما اليوم الاربعاء .

– لا باس ، لا تهتمى لهذا . سنتكلم عن ذلك بعدئذ . هيا قومى !

اطاعت ماريوتكا ونهضت . مال الملازم ليتناول البنادق . ولكن الفتاة امسكت بذراعه .

– بدون تخابث ! لقد وعدتنى بالا تهرب !

جر الملازم ذراعه منها وضحك وهو يقهقه بشدة :

– لست انا الأبله ، وانما انت البلهاء . اتحسبين اننى استطيع التفكير بالهرب فى هذه اللحظة ؟ اذا كنت اريد ان اتناول البنادق فلانها ثقيلة عليك .

هدا روع ماريوتكا ولكنها قالت برصانة عذبة :

– شكرا لك على مساعدتك ولكن لدى امر باقتيادك . . . ولذلك لا املك الحق فى ان اعهد اليك بالبنادق ما دمت مسئولة .

هز الملازم كتفيه وتناول الاكياس وسار .

كان الرمل الممزوج بالثلج يصر تحت الاقدام . وكان الشاطئ المنخفض والمستوى يبدو لا نهاية له .

وظهر عن بعد ركام رمادى تحت طبقة رقيقة من الثلج .

كانت ماريوتكا تترنح تحت عبء ثلاث بنادق .

– تشجعى يا ماريا فيلاتوفنا وابذلى قليلا من الجهد ايضا . لعل هذه سقيفة .

– لو انتهى كل ذلك سريعا ! لقد خارت قواى وتجمدت .

واخيرا تعثرا بكوخ كان مظلما فى داخله ، تفوح منه رطوبة سمك مملح ذى رائحة مقززة .

تحسس الملازم فى الظلمة كومة من السمك .

– يا سلام ! يوجد سمك . على الاقل لن نجوع .

قالت ماريوتكا وهى تئن :

– يلزمنا نور لنرى . لعلنا نجد ركنا لا تنفذ اليه الريح .

– لن تجدى هنا كهرباء .

– ولم لا نحرق السمك ، انه دسم .

انفجر الملازم يضحك ايضا .

– نحرق السمك ؟ حتما انت بلهاء مجنونة !

قالت ماريوتكا منزعجة النفس :

– ولم مجنونة ؟ عندنا على الفولغا كثيرا ما يصنعون هكذا . انه يشتعل افضل من الحطب .

– لم اسمع بهذا قط ! ثم كيف نشعله ؟ عندى زناد ولكن . . .

– يا لك من فارس . . . انك امضيت عمرك فى احضان امك ! خذ ، فك خرطوشة وانا ساجلب خشبا من الجدار .

فك الملازم باصابعه المخدرة ثلاث خرطوشات بصعوبة بالغة . اصطدمت به ماريوتكا فى الظلمة وهى تحمل النشارة .

– صب البارود هنا ! . . وهات الزناد !

اشتعلت نقطة برتقالية على الزناد فدستها ماريوتكا فى البارود فاتقد بلهيب اصفر واشتعل فى النشارة الجافة .

قالت الفتاة فرحة :

– حسنا ! هات سمكة دسمة .

رُميت سمكة فى النشارة الملتهبة فتقلصت واخذت تشتعل بلهيب حار دسم .

– ما عليك الا ان تضيف غيرها الآن . يوجد سمك يكفى لستة أشهر على أقل تقدير !

نظرت ماريوتكا فيما حولها . كان اللهيب يحدث ظلالا متراقصة على أكوام كبيرة من السمك . كانت جدران الخشب مليئة بالثقوب والشقوق .

فتشت ماريوتكا الكوخ وصاحت فجأة :

– يوجد ركن سليم تقريبا . ضع سمكا كيلا تخمد النار وانا سأذهب لأسد الثقوب . سأرتب حجرة حقيقية .

جلس الملازم قرب النار ؛ كان يرتجف وهو يتدفأ . وفى الركن كان السمك الذى تنقله ماريوتكا يحدث ضجة وقرقعة وأخيرا نادته :

– لقد تم ! انقل النار !

امسك الملازم سمكة مشتعلة من ذنبها وذهب الى الركن . كانت ماريوتكا قد صنعت فى الجهات الثلاث جدرانا من السمك ، تاركة فى الداخل فسحة شاغرة مساحتها حوالى مترين .

– ادخل واشعل النار . لقد وضعت سمكا فى الوسط . وانا سأذهب لجلب المؤن .

دس الملازم السمكة الملتهبة تحت كومة السمك فأخذت النار تشتعل فيها ببطء . عادت ماريوتكا ورتبت البنادق والاكياس فى الركن .

– مسكينان ! لهما بلوى السمك ! لقد هلكا دونما طائل .

– يحسن بنا أن نجفف ثيابنا كيلا يلم بنا البرد .

– وما يمنعك من ذلك . هيا . ان السمك يشتعل بحرارة . اخلع ثيابك وجففها .

كان الملازم يتردد .

– جففى ثيابك أولا يا ماريا فيلاتوفنا . انا سأذهب لانتظر هناك وسوف اجفف ثيابى بعدئذ .

– انت بهيمة الى هذا الحد ! يا لك من رجل !ألم تر امرأة عارية قط ؟

– لا ، ليس من اجل هذا . . . ربما اضايقك ؟

– كلام فارغ ! لقد خلقنا كلنا من نفس اللحم . والفرق ليس كبيرا . – وصاحت وهى شبه مغيظة : – اخلع ثيابك يا

أحمق ! ان اسنانك تصطك كمدفع رشاش ! كم تزعجنى !

كانت الثياب المعلقة على البنادق تدخن قرب النار .

كانت ماريوتكا والملازم جالسين قرب النار الواحد أمام الآخر يلتفتان بمتعة أمام حرارة النار .

تأملت الفتاة ظهر الملازم الناحل المبيض الناعم وقالت وهى لا تحيد ببصرها عنه :

– ما أشد بياض جلدك . لك بلوى السمك ! أراهن على انك اغتسلت بالكريم !

تضرج وجه الملازم بحمرة الخجل والتفت . كان يهم أن يقول شيئا ولكنه لمح انعكاسا دائريا اصفر على ثدى ماريوتكا فخفض عينيه الزرقاوين .

كانت الثياب قد جفت فوضعت الفتاة على كتفيها الجاكيت .

– يجب أن ننام قليلا . قد يهدأ هذا غدا . اننا سعيدان لأن القارب لم يغرق . عندما ستهدأ الريح سنذهب الى سيرداريا . وهناك سنجد صيادين . ثم ، سأراقب انا النار وعندما أجد رغبة فى النوم سأوقظك . فسوف نتناوب على هذا النحو .

وضع الملازم ثيابه تحته وتغطى بمعطفه ونام نوما عميقا مليئا بالانين . كانت ماريوتكا جامدة تتأمله .

هزت كتفيها .

«كأننى كنت بحاجة الى هذا الهم ! مسكين ! أخشى أن يبرد ! من المؤكد انه كان يرتدى عند أهله الحرير والمخمل ! يا لها من حياة لئيمة ! لها بلوى السمك !» .

عندما نفذت أضواء الفجر من شقوق السقف ايقظت ماريوتكا الملازم .

– راقب النار . سأقوم بجولة حتى شاطىء البحر لالقى نظرة عليه . لعلى أجد جماعتنا قد نجوا وهم يطوفون هناك .

نهض الملازم متثاقلا . شد على رأسه بيديه ، وقال :

– رأسى يؤلمنى .

– لا قيمة لهذا . . . من الدخان والتعب . سوف يزول . خذ أرغفة من الخبز من الكيس واشو سمكة وكلها .

تناولت بندقية وجففتها بطرف جاكيتها وخرجت .

زحف الملازم على ركبتيه حتى النار واخرج من الكيس رغيفا مبللا . عض وعلك قطعة وترك الرغيف يسقط ثم سقط بنفسه على الارض قرب النار .

كانت ماريوتكا تهز الملازم من كتفه وتصيح يائسة :

– انهض ! . . انهض ! . . لك الويل !

حملق الملازم بعينيه وفغر فاه ؛ وتابعت ماريوتكا :

– انهض ! لقد جرفت الامواج القارب . لقد انقطعنا الآن ! يا لها من كارثة !

كان الملازم ينظر اليها ولا ينبس ببنت شفة .

تاملته ماريوتكا بامعان وتأوهت .

كانت عيناه الزرقاوان عكرتين مسعورتين . وكان خده المستند على يد ماريوتكا بخفة ملتهبا بالحرارة .

– لقد الم بك البرد . ماذا سافعل بك الآن ؟

حرك الملازم شفتيه .

مالت ماريوتكا وسمعت :

– يا ميخائيل ايفانوفيتش . . . لا تضع لى اثنين . . . لم استطع ان اتعلم . . . ساتعلمه غدا . . .

قالت ماريوتكا مرتبكة :

– ماذا تغمغم ؟

صاح الملازم فجاة وقد انتفض :

– تريزور . . . امسك . . . حجلة . . . !

ابتعدت ماريوتكا متقهقرة وخبأت وجهها بيديها .

عاد الملازم وسقط واخذ يحرث الرمل بأصابعه .

كان يتمتم بسرعة كلمات غير مفهومة وكانت الاصوات تبدو كانما تخنقه .

نظرت ماريوتكا فيما حولها وقد اعتراها اليأس .

ثم خلعت جاكيتها والقته على الرمل وجرت اليه بشق النفس جسد الملازم الهامد وغطته بالمعطف .

جثمت كسيرة النفس بجواره وكانت دموع عكرة تسيل ببطء على وجهها الشاحب .

كان الملازم يتقلب وينزاح عنه غطاؤه ، وفى كل مرة كانت ماريوتكا تعود وتغطيه حتى ذقنه .

لاحظت أن راسه منقلب الى الخلف فوضعت تحته اكياسا لتكون له وسادة .

قالت والحزن يعتلج فى صدرها ، ورفعت راسها الى السقف كانما تود أن تتضرع الى السماء :

– اذا مات فماذا ساقول لايفسيوكوف ؟ يا للمصيبة !

مالت على الملازم المحموم ونظرت فى عينيه الزرقاوين الخامدتين .

وخز قلبها الم حاد . فمدت يدها ومسدت بحنان شعره المشعث . ثم اخذت راسه بين يديها وتمتمت بحنان :

– ايها الابله المسكين ! يا عينى الزرقاوين العزيزتين !

الفصل السابع

فى بادئ الامر كان مبهما ثم اتضح

الابواق فضية والاجراس معلقة بها .

الابواق تعزف واجراس ترن رنينا حلوا :

– تيلى . . . دن ، دن – دن ،

– تيلى – تيلى ، دلام – دلام – دلام .

ولكن الابواق انفردت وحدها تعزف :

– تو – تو – تو – تو .

انه لمارش لا ريب فى ذلك . وهو – مؤكدا – مارش يسمعه المرء فى الاستعراضات .

والمكان هو نفسه تغشاه الشمس التى تنسل من خلال الحرائر الخضراء لاشجار القيقب .

رئيس الجوقة يوجه الموسيقيين .

ادار ظهره الى الجوقة وقد خرج من شق معطفه العسكرى ذنب ثعلب كث أشقر وفى نهايته قد اثبتت كرة ذهبية مع آلة للنغم فوقها .

يتحرك ذنب الثعلب فى كل اتجاه فتصدر آلة النغم الصوت وتصدر اشارة الى الأبواق ، واذا كان موسيقى ساهيا تلقى ضربة على جبينه .

ويعزف الموسيقيون جهد طاقتهم . انهم لطريفون .

جنود عاديون ، انهم حراس امبراطوريون من مختلف فرق الحرس . جوقة مختلطة .

ولكن الموسيقيين ليس لهم فم . . . وانما تحت انوفهم مسطح ، والابواق مركزة على المناخير اليسرى .

يستنشقون الهواء من المنخار الايمن وبالمنخار الايسر ينفخون البوق وهذا يعطيها نغما خاصا حادا ومرحا .

– للمارش الاحتفالى استعد !

– الاحتفالى . . . سلاحك تنكب !

– فوج !

– كتيبة !

– سرية !

– اول كتيبة الى الامام . . . سر !

فتعزف الابواق : – تو – تو – تو . وترن الاجراس : دن – دن – دن .

ويقوم النقيب شفيتسوف برقصة صاخبة وهو يلبس جزمة لماعة . واليتاه مكورتان حتى يكاد بنطلونه يتمزق منهما . انهما مثل فخذى الخنزير بارزتان .

– حسنا يا شباب !

– درام – ام ، آف ، هاف ! . .

– الملازم !

– الملازم ! الملازم ، ينبغى ان يتقدم الى الجنرال !

– اى ملازم ؟

– ملازم السرية الثالثة غوفوروخا – اوتروك . الجنرال يطلبه !

الجنرال يمتطى صهوة الجواد وسط الميدان . وجهه أحمر وشارباه أبيضان .

– أيها الملازم ، هذا مشين !

– ها – ها – هي – هي ! . .

– انت مجنون ؟ أتعرف مع من تتكلم ؟

– هو ! هو ! . . انت لست جنرالا ، انت ، يا صاحب السعادة ، هر !

الجنرال على صهوة الجواد . وهو حتى وسطه جنرال كسائر الجنرالات . ولكنه من تحت الوسط له رجلا هر . وليس هرا اصيلا . وانما هو هر عادى اغبر اللون منتوف مخطط ، وبعبارة موجزة هو هر افاق .

كانت اظافره ناشبة فى الركاب .

– ستقدم الى المحكمة الحربية ، أيها الملازم ! هذا غريب ! ضابط الحرس سرته مقلوبة !

ينظر الملازم الى نفسه ويبقى مبهوتا . ان سرته من تحت حزامه تظهر ، مثل مصران دقيق ذى لون اخضر . وتتحرك السرة حركات عجيبة . يمسك الملازم السرة ولكن هذه تقاوم وتعارك ولا تترك نفسها تمسك .

– الى التوقيف ! حنث بالقسم !

ينزع الجنرال رجله من الركاب ويخرج اظافره . كان على رجله مهماز فضى مع عين بدلا من الحلقة .

عين عادية . بؤبؤ مدور اصفر ثاقب يغرز فى اعماق قلب الملازم .

ترف العين رفة ودودة وتقول – ولا يدرى المرء كيف تقول :

– لا تخف ! . . لا تخف ! . . ها انت ذا قد عدت الى صوابك !

رفعت يد راس الملازم ، وعندما فتح عينيه راى وجها نحيلا تحيط به خصلات من الشعر شقراء ونفس العين الصفراء الحنون . . .

– لكم خوفتنى ايها المسكين ! لقد عذبتنى طيلة اسبوع . كنت اظن اننى لن اخلصك منه . نحن وحدنا فى العالم على هذه الجزيرة . لا ادوية ولا كائن حى يساعدنا . ليس لدىّ سوى الماء الساخن لمعالجتك . كنت تتقيأ طيلة الوقت فى بادىء الامر . . . الماء مالح ، سيء ، كانت معدتك ترجعه .

كانت الكلمات الحنون القلقة تصل بصعوبة الى وعى الملازم .

نهض قليلا ونظر فيما حوله نظرة ذاهلة .

كان حوله أكوام من الاسماك ، ونار مشتعلة ، وماء يغلى فى قدر معلق بطرف قضيب البندقية .

– ما هذا ؟ . . واين انا ؟ . .

– أنسيت ؟ الم تعرفنى ؟ انا ماريوتكا .

فرك الملازم جبهته بيده النحيلة الشفافة .

وعادته الذكرى ، فابتسم ابتسامة ضعيفة وتمتم :

– آه ! نعم تذكرت . . . روبنسون و«جمعة» !

– عدت الى سالف عهدك ؟ انت مصر على جمعتك ! لا ادرى فى أى يوم نحن . لقد اضعت الحساب . . .

عاد الملازم وابتسم .

– ليس هذا يوما ! . . وانما هو اسم . . . هذه حكاية رجل وقع فى جزيرة مقفرة بعد غرق سفينته . وكان له صديق اسمه جمعة . الم تقرئى هذه الحكاية ؟ – وتمدد على جاكيته وسعل .

– لا . . . لم اقرأ ، لقد عرفت الكثير من الحكايات ولكن ليست هذه منها . ابق مضطجعا بهدوء ولا تتحرك . والا فسوف تسقط مريضا مرة اخرى . سأطبخ لك سمكة . كل قليلا واستعد قواك . منذ اسبوع على أقل تقدير لم تتناول فيه غير الماء . لقد اصبحت شفافا كالشمعة . ابق هادئا .

اغمض الملازم عينيه بتراخ ، كان فى راسه نوع من الرنين البلورى . وتذكر الابواق والاجراس البلورية وابتسم .

سألته ماريوتكا :

– ما بك ؟

– لا شىء . . . تذكرت حلما غريبا حلمته عندما كنت اهذى .

– لكم صرخت فى حلمك ! وكم امرت ، وكم شتمت ، وكثير من الاشياء الاخرى ! الريح تهب وما من احد حولنا ، وانا وحدى فى هذه الجزيرة ، وانت مريض فضلا عن ذلك . لكم جزعت ! وما كنت ادرى ماذا اصنع ! – وارتجفت .

– كيف تمكنت ان تدبرى الامر ؟

– كما ترى لقد دبرت الامر . ان ما كان يخيفنى على الاخص هو أن تموت جوعا . ليس سوى الماء . والخبز الذى بقى اطعمتك

اياه فى الماء المغلى . والآن لم يبق سوى السمك . والسمك المملح للمريض ليس طعاما حسنا . وعندما وجدتك تتحرك وتفتح عينيك تنفست الصعداء .

مد الملازم يده . ووضع اصابعه الرقيقة الجميلة على رغم الوسخ ، فى فجوة مرفق ماريوتكا . ومرر عليها بلطف قائلا :

– شكرا لك ايها الملاك الرحيم !

فاحمرت الفتاة ، وابعدت يده .

– لا تشكرنى ! . . هذا لا يستحق العناء على ذلك . وهل كنت استطيع ان اتركك تموت ؟ انا وحش أم انسان ؟

– انا – مع ذلك – ضابط ، عدو . فلماذا اربكت نفسك الى هذا الحد ؟

لبثت ماريوتكا لحظة مبهوتة ثم قامت بحركة مرتبكة ، ثم لوحت بيدها وانفجرت ضاحكة .

– عدو انت ؟ هيا اذن ؟ هل تقدر ان ترفع يدك ؟ ثم تكون عدوا . هذا قدرنا . فما دمت لم اصرعك من الرصاصة الأولى فاخطاتك للمرة الأولى فى حياتى ، فلم يبق لدىّ الا ان اهتم بك حتى النهاية . هاك ، كل !

وقدمت للملازم قدرا كان فيها قطعة من السمك الدسم وكان اللحم الشفاف يبعث رائحة شهية .

كان الملازم يتناول من القدر القطع ويأكل بشهية .

– ولكنها مالحة جدا ، تحرق الحلق .

– لا سبيل الى غير هذا . لو كان هناك ماء عذب لكان فى الوسع نقعه . ان السمك مالح والماء كذلك . ونحن فى مازق حرج ، لها بلوى السمك !

دفع الملازم القدر جانبا .

– الا تريد ان تاكل اكثر ؟

– لا ، لست جائعا . كلى انت ايضا .

– لا ، شكرا . هذا يثير الغثيان لدىّ . اكلت منه طوال اسبوع وما عاد فى مقدورى ان ابتلع لقمة واحدة منه !

كان الملازم مضطجعا متكئا على مرفقه . فقال بنبرة حزينة :

– ليتنى استطيع ان ادخن سيجارة !

– ترغب أن تدخن ؟ كان يجب أن تقول على الفور ! كان مع

سيميانى تبغ غير مفروم فى كيسه . كان مبللا قليلا ولكنـــى جففته . كنت أعرف انك ستشتهى ان تدخن . ان المدخن تتملكه هذه الرغبة عندما يشفى من مرضه . خذ !

تناول الملازم كيس التبغ . كانت اصابعه ترتعش .

– انك رائعة حقا يا ماشا ! احسن من مربية !

اجابت بجفاف وقد احمرت :

– اظنـك لا تستطيـع ان تعيش بدون مربيـــة ، اليس صحيحا ؟

– ولكن لا يوجد ورق . ان صاحبـك الارجوانى قد انتزع منى كل شىء حتى اصغر قطعة ورق ، وقد فقدت غليونى كـــى تكتمل الكارثة .

قالت ماريوتكا ساهمة :

– ورق . . .

وبحركة حازمة ابعدت طرف الجاكيت الذى كان يغطى الملازم وفتشت فى جيبه واخرجت منه لفيفة .

حلت الخيط وقدمت للملازم بضع اوراق .

– خذ ، لف سيجارات !

تناول الملازم الاوراق وتأملها بانتباه ورفع صوب ماريوتكا عينيه اللتين يتقد فيهما بريق ازرق عجيب .

– ولكن هذه اشعارك ! مجنونة انت ! لا اريد !

صاحت ماريوتكا :

– خذها يا ابليس ! لا تعذب قلبى ! لك بلوى السمك !

نظر اليها الملازم .

– شكرا ، لن انساه مدى الحياة !

انتزع قطعة ولف سيجارة واشعلها . كان ينظر بعيدا خلال دوامة الدخان الازرق .

كانت ماريوتكا تتامله ثم سألته فجأة :

– انظر اليك واسائـــل نفسى . من اين لك العينـــان الزرقاوان الى هذا الحد ؟ لم ارَ فى حياتى مثيلا لهما . انهما زرقاوان حتى ان المرء ليغرق فيهما .

اجاب الملازم :

– لا أدرى . لقد ولدت بهما . وكثيرون قالوا ان لونهمـــا غير عادى .

– هذا صحيح ! . . حينما اسرناك قلت لنفسى : ما اغرب هاتين العينين ! انهما خطيرتان !

– على من ؟

– على الفتيات . انهما تنفذان الى الروح وتأسرانها !

– وانت هل اسرتاك ؟

تضرجت ماريوتكا بحمرة الخجل .

– لا تطرح أسئلة كهذه ! ابق مضطجعا . سأجلب ماء .

نهضت وتناولت القدر ساهمة الا انها قبل ان تخرج التفتت بمرح وقالت كالمرة الآنفة :

– أيها الابله ، يا عينى الزرقاوين العزيزتين !

الفصل الثامن

لا حاجة الى شرح

شمس آذار تجعل المرء يتحسس الربيع .

شمس آذار على بحر آرال ، على المخمل اللازوردى تربـــت وتخز بأسنانها المحرقة وتحرك دم البشر .

ها قد مضى ثلاثة أيام على خروج الملازم .

جلس أمام الكوخ يتدفأ فى الشمس ويلقى نظرات مرحـــة من عينيه المنتعشتين . وفى هذه الاثناء طافت ماريوتكا فـــى الجزيرة من أولها الى آخرها تتفحصها .

فى آخر اليوم عادت مع غروب الشمس فرحة كل الفرح .

– اسمع ! غدا ننتقل !

– الى أين ؟

– ابعد قليلا ، الى ثمانية فرسخات من هنا .

– ما هذا ؟

– لقد عثرت على كوخ للصيادين . انه لقصر حقيقى ! جاف ومتين حتى زجاجه غير مكسر . وفيه موقد وبقايا صحون واشياء

يمكن استعمالها . والشيء الاجمل انه يوجد مكان ينام فيه المرء . كفى افتراش الارض ! وكان يجب ان نذهب اليه منذ البدء .

– ومن كان يعرفه ؟

– تماما . وفضلا عن ذلك لقد عثرت على لقية ، لقية جميلة .

– وما هى ؟

– يوجد مكان صغير وراء الموقد لحفظ المؤن ، وقد بقى منه قليل . رز وحوالى ثمانية كيلوغرامات من الطحين . قد تعفن قليلا ، ولكن يمكن اكله مع ذلك . لعلهم فى الخريف عندما هبت العاصفة استعجلوا بالرحيل كثيرا حتى انهم قد نسوا هذا ، والآن قد فزنا نحن به .

وفى صباح اليوم التالى انتقلا الى المأوى الجديد .

كانت ماريوتكا تمشى فى المقدمة محملة كالجمل : كانت تحمل كل شيء ولا تريد ان تترك شيئا للملازم .

– هيا ! هذا اهون من سقوطك مريضا مرة اخرى . اننى ابدو ضعيفة ولكنى قوية مع ذلك .

وصلا الى الكوخ حوالى الظهر ، كنسا الثلج وربطا بقطعة من الحبل الباب الذى خرج من مفاصله والتهبا السمك فى الفرن وتدفئا قرب اللهيب وهما يبتسمان بدعة وارتياح .

– نحن نعيش حياة مترفة !

– انت فتاة طيبة يا ماشا . اننى مدين لك بالشكر مدى الحياة . . . لولاك لما كنت على قيد الحياة .

– ما من شيء عجيب فى الامر ، ولا سيما بالنسبة الى كسول مثلك .

وسكتت لحظة وهى تفرك يديها امام النار .

– البيت دافئ ، هذا صحيح . . . وبعدئذ ماذا سنعمل ؟

– وبعدئذ ؟ لا شيء ، سننتظر !

– ماذا ننتظر ؟

– الربيع ، فلن يتاخر . نحن الآن فى منتصف آذار . فبعد اسبوع او اسبوعين سياتى الصيادون لاخذ سمكهم ، ولسوف ينقذوننا من هذه الورطة .

– سيكون ذلك جيدا جدا ، والا فلن نستطيع ان نبقى طويلا . لا شيء ناكله سوى السمك وقليل من الطحين العفن .

يمكن ان نصمد أسبوعين وبعدئذ سينفد كل شيء ، لنا بلوى السمك .

– ما هذه «بلوى السمك» ، من اين جاءت ؟

– ان الصيادين عندنا فى استراخان يقولون هذه العبارة ليتجنبوا التلفظ بالكلمات البذيئة . وانا لا احب الكلمات البذيئة . والمرء قد يتملكه الغضب فيضطر الى قول شيء ليهدئ من ثائرة نفسه قليلا .

وحركت السمكة فى الموقد بقضيب البندقية وارردفت :

– لقد حدثتنى عن حكاية الجزيرة المقفرة . . . مع جمعة . . . احكِ لى اذ لا شيء لدينا نعمله . اننى لأحب الحكايات حبا اشبه بالجنون . كانت لى عمة . كان النسوة يجتمعن دائما عندها ويجلبن العجوز غوغنيخا . كان عمرها مئة عام وربما اكثر وهى ما زالت تتذكر نابليون . وعندما كانت تقص الحكايات كنت أتوقع فى ركنى ، واخاف أن ادع أدنى كلمة تفوتنى .

– أتريدين ان احكى لك حكاية روبنسون ؟ لقد نسيت نصفها ، فقد مضى على قراءتى لها وقت طويل .

– حاول ان تتذكرها واحكِ لى ما تتذكره .

– طيب ! سأحاول .

واعتصر الملازم ذكرياته وهو مغمض العينين نصف اغماضة . وفرشت ماريوتكا جاكيت الجلد على السرير الخشبى وجثمت فى الركن قرب الموقد .

– تعال الى هنا ، فهنا أدفأ .

صعد الملازم ، وكان الموقد تستعر ناره .

– اذن ! هيا ، ماذا تنتظر ، فلم أعد اطيق صبرا .

اتكأ الملازم وابتدأ :

– كان يوجد رجل ثرى يعيش فى مدينة «ليفربول» ، يدعى روبنسون كروزيه . . .

– واين تقع هذه المدينة ؟

– فى انجلترا . . . كان يوجد اذن رجل ثرى يدعى روبنسون كروزيه . . .

– اسمع ! تقول : رجل ثرى . لماذا لا يدور الحديث وفى

كل الحكايات الا عن الاثرياء والملوك ؟ اما الفقراء فلا تجرى حكايات عنهم .

أجاب الملازم مرتبكا :

– لا ادرى . ما فكرت بهذا قط .

– ان الاثرياء هم الذين يصنعون هذه الحكايات . انهم مثلى تماما . أود ان انظم شعرا الا اننى تنقصنى الثقافة والتعليم . ومع ذلك سوف اكتب بشكل مدهش عن الناس الفقراء . لا ضير فى هذا . سوف ادرس قليلا ثم سأكتب .

– نعم . . . ان روبنسون كروزيه أراد ذات مرة أن يسافر ويطوف العالم ليرى كيف يعيش الناس . وغادر مدينته على ظهر سفينة شراعية كبيرة . . .

كانت النار فى الموقد تستعر وصوت الملازم ينسال انسيالا منتظما .

كان يتذكر شيئا فشيئا ويبذل جهده كيلا يغفل حادثة .

كانت ماريوتكا تصيخ السمع اليه بشغف وتطلق صيحات التعجب عند المقاطع المثيرة .

وعندما وصف الملازم غرق سفينة روبنسون هزت ماريوتكا كتفيها بازدراء وسألت :

– اذن الجميع ما عداه قد لاقوا حتفهم ؟

– نعم ، الجميع ما عداه .

– لا بد أنهم كان لهم قبطان احمق او انه كان سكران كالخنزير . أنا لا اعتقد أبدا ان قبطانا بارعا يدع جميع البحارة يهلكون . ما اكثر ما جرت حوادث غرق فى بحر قزوين ولكن ما اقل ما يهلك اثنان او ثلاثة فى كل مرة والباقون ينجون دائما .

– لماذا هذا ؟ انظرى . ولكن سيميانى وفياخير قد غرقا . فاما انك انت كنت قبطانة غير بارعة او كنت سكرى قبل الغرق ؟

ارتبكت ماريوتكا .

– هذا ما لديك عنى ، ليس لدىّ ما اقوله ، لك بلوى السمك ! حسنا ! أكمل .

وعندما ظهر جمعة قاطعته ماريوتكا مرة أخرى :

– آه ! لهذا لقبتنى جمعة ! اذن فأنت روبنسون ؟ وجمعة كان أسود ؟ لقد رأيت زنجيا فى سيرك استرخان .

وعندما حكى عن اعتداء القراصنة صاحت ماريوتكا وعيناها تتقدان :

– عشرة على واحد ؟ يا لهم من انذال ؟ لهم بلوى السمك !

أتى الملازم على حكايته .

كانت ماريوتكا ساهمة متقلصة على نفسها مستندة الى كتفه . كانت تدمدم وهى فى شبه غيبوبة :

– آه ، ما أجمل هذا . اذن انت تعرف كثيرا من هذه الحكايات ؟ ينبغى لك أن تحكى لى واحدة كل يوم .

– أعجبتك ؟

– كثيرا جدا ! انها تحدث قشعريرة ورعدة فى الجسم . على الاقل ان الليالى لا تكون طويلة معها .

تثاءب الملازم .

– نعست ؟

– لا ، ولكن المرض قد هدنى وجعلنى خائر القوى .

– ايها الخوار الصغير المسكين ، يا عزيزى !

ورفعت ماريوتكا يدها مرة اخرى ومررتها بحنان على شعر الملازم . اعترته الدهشة فرفع عينيه الزرقاوين اليها . كان ينبعث منهما حنان ينفذ الى قلب ماريوتكا . مالت بحرارة على خده الغائر ووضعت شفتيها الخشنتين الجافتين على لحيته المشعثة .

الفصل التاسع

يثبت فيه ان القلب ليس له قانون ، ومع ذلك فالوعى يحدده الوجود

كان ينبغى لملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك أن يكون الصريع الواحد والاربعين برصاص ماريوتكا .

ولكنه صار الاول فى لائحة أحبائها .

اجتاح قلبها عطفها على الملازم : على يديه الناحلتين وصوته العذب ولا سيما على عينيه الزرقاوين الغريبتين جدا .

هذه الزرقة كانت تضىء لها الحياة .

كانت تنسى بها بحر آرال الحزين ، وطعم السمك المالح المقزز ، والطحين العفن والحنين الغامض الى الحياة التى تجرى صاخبة وراء آفاق البحر المظلمة . كانت فى النهار تقوم بعملها العادى ، فتخبز الخبز وتغلى السمك الكريه الذى بدأ يستثير الجراح الصغيرة للثة . ومن حين الى آخر كانت تذهب الى الشاطئ كى ترى الشراع المأمول اذا كان قد لاح فى الافق .

وفى المساء عندما كانت الشمس النهمة تنحدر من السماء الوادعة ، كانت ماريوتكا تقبع فى ركنها مستندة الى كتف الملازم وهى تصغى اليه .

كان الملازم يحكى حكايات كثيرة . وكان يجيد فى الحكاية .

كانت الايام تجرى على رسلها هادئة رخية .

وفى ذات يوم بينما كان يستريح عند الباب فى اشعة الشمس وهو يتابع بنظره اصابع ماريوتكا التى كانت تقشر سمكة كبيرة ببراعة ، قال الملازم وهو يهز كتفيه :

– ما اسخف هذه !

– عم تتحدث يا عزيزى ؟

– انها سخيفة ، اقول . . . الحياة سخيفة بشكل مطلق . ان المعارف الاولية والافكار المنقوشة فى خاطرى كلها سخافات . انها لمصطلحات مثل مصطلحات على خارطة جغرافية . ملازم الحرس ؟ . . الى الف جهنم ملازم الحرس . ان ما اريده هو أن اعيش . لقد عشت سبعة وعشرين عاما وارى اننى فى الواقع لم اعش ابدا . لقد انفقت اموالا طائلة وطفت فى الدنيا سعيا وراء مثل اعلى لا ادرى ما كنهه ، ولكن قلبى ينهشه قلق مميت بسبب هذا الفراغ وخيبة الامل هذه . واعتقد انه لو قال لى أحد ان افضل ايام حياتى امتلاء ساقضيها هنا على هذا الرمل الاخرق وسط بحر احمق لما ملكت أن أصدقه ابدا .

– اى ايام تقول ؟

– افضل ايام حياتى امتلاء . لم تفهمى ؟ كيف اقول كى

تفهمينى جيدا ؟ الايام التى لا اشعر فيها اننى عدو للجنس البشرى ، فرد يناضل نضالا فرديا ، ولكننى انحل انحلالا كاملا فيها – وقام بحركة واسعة من ذراعه – فى هذه الكتلة الارضية . اننى اشعر فى هذه اللحظة اننى اختلط فيها حتى نهايتها . ان تنفسها تنفسى . أتسمعين تدافع الامواج الذى يتنفس . أوف . . . اوف . . . ليس هو الذى يتنفس وانما انا ، روحى ولحمى . . .

وضعت ماريوتكا سكينها .

– انت تقول كلمات علمية لا افهمها كلها ، وانما ساقول لك ببساطة : اننى سعيدة الآن .

– الكلمات مختلفة ولكنها تعبر عن الشىء نفسه . يخيل الىّ الآن ان افضل شىء الا اغادر هذا الرمل المحرق الاخرق ، واظل هنا الى الابد ، اتمرغ فى أشعة الشمس واعيش حياة حيوان فرح .

كانت ماريوتكا تحدج الرمال كانما كانت تحاول أن تتذكر شيئا هاما . وضحكت بهيئة حنونة واثيمة على حد سواء .

– آه ! . . لا ! . . لن ابقى انا هنا . انه لكسل وسينتهى بنا الامر الى التعفن . ولا يوجد أحد تريه سعادتك . لا شىء سوى سمك ميت حولنا . اود ان يعود الصيادون بأسرع وقت . وعما قريب سينتهى آذار . لشد ما ارغب أن ارى اناسا احياء .

– ونحن السنا حيين ؟

– بلى ! ولكن بقى طحين يكفى اسبوعا واحدا ، وكله متعفن ثم داء الحفر الذى سيلتهمنا ، لسوف نكون جميلين ! ثم يا عزيزى ليس الآن وقت أن نظل نسترخى كسلا . ان جماعتنا هناك يقاتلون ويريقون دماءهم . انهم بحاجة الى كل يد . ولذا لا استطيع ان ابقى هادئة ويقر لى قرار . وانا لم أؤد القسم العسكرى من أجل هذا .

ارتفعت عينا الملازم وقد ملأتهما الدهشة .

– تريدين ان تعودى الى الجندية ؟

– مؤكدا !

أخذ الملازم يعبث صامتا بقطعة خشب منتزعة من العتبة . واخذ يسترسل فى كلام رخى كشريط من الماء .

– أنت فتاة غريبة ! هذا ما أود ان اقوله لك يا ماشا ! هذه السخافات غمرتنى الى ما فوق راسى . وضيعت سنوات كثيرة مليئة بالدم . لم أكن مع ذلك جنديا فى المهد ، لقد كانت لى – فى وقت من الاوقات – حياة طيبة ، حياة انسانية . كنت قبل الحرب طالبا ادرس الآداب واللغات وما كنت احب شيئا بقدر كتبى الوفية . كان لدىّ الكثير منها : ثلاثة جدران مفروشة حتى السقف بالكتب . وفى بعض الاحيان فى المساء ، عندما كان الضباب فى بطرسبورغ يخنق المارة تحت كلكل رطوبته ، كانت النار تشتعل فى المدفأة فى غرفتى والمصباح يضىء تحت عاكس النور الازرق ، وانا فى اريكتى مع كتاب ، وكنت ارخى العنان لنفسى اعيش مثل اليوم بلا هم ، وتتفتح روحى حتى لاسمع حفيف الزهر ، مثل شجرات اللوز فى الربيع . اتفهمين ؟

قالت ماريوتكا متوجسة :

– هم . . .

– وذات يوم ذهب كل هذا ومضى الى قرارة الجحيم . . . واذكر كانما هذا حدث اليوم . كنت فى بيتى الريفى واذكر اننى كنت اقرا كتابا كذلك . كان غروب الشمس قانيا يصبغ كل شىء ببريق ارجوانى دام . وصل والدى من المحطة وكانت بيده جريدة وهو منفعل جدا . لم يقل سوى كلمة واحدة ولكنها ثقيلة ذات وقع رهيب : . . . الحرب . . . كلمة رهيبة ، دامية كغروب الشمس . واردف والدى : «يا فاديم ان سلالة اجدادك وابيك كانوا يلبون اول نداء للوطن . وآمل أن تصنع انت كذلك . . .» كان له الحق فى أن يامل ذلك . تركت كتبى وكنت ذا ايمان طيب وانا اذهب . . .

صاحت ماريوتكا وهى تهز كتفيها :

– هذا مضحك ! مثلا اذا سكر والدى وحطم يافوخه على الجدار ، فهل هذا يعنى انه ينبغى لى ان اصنع مثله ؟

تنهد الملازم قائلا :

– نعم ، هذه اشياء لا تستطيعين ان تفهميها . ان هذا العبء لم يقع على كاهلك ابدا ، هذا العبء الذى هو الاسم ، العائلة وشرفها . الواجب . . . كنا نعتز بكل هذا .

– وبعد ؟ . . انا كنت احب ابى المتوفى ايضا . الا اننى

ما كنت مرغمة على أن احتذى حذوه لانه كان سكيرا . كان يحسن بك ان ترسل جدك الى قرارة الجحيم !

تبسم الملازم بسخرية لاذعة .

– لم أصنع ذلك . فالحرب قد قضت علىّ . لقد اغرقت قلبى بيدى فى هذه اللجة العفنة ، هذه القاذورات البغيضة . وجاءت الثورة . كنت أثق بها كما يثق المرء بخطيبته . . . ولكنها . . . طيلة الوقت الذى كنت فيه ضابطا لم أمس جنديا باذى . بيد اننى فى محطة غومل امسك بى الهاربون وانتزعوا كتيفتى وبصقوا فى وجهى ولطخونى بالغائط . جزاء اى جريمة ؟ هربت الى أورال ، وكنت ما ازال اؤمن بوطنى . وكنت أود ان اقاتل فى سبيله ، فى سبيل الوطن الذى لوث شرفه والكتيفتين المهانتين . لقد قاتلت ولكننى وجدت ان الوطن غير موجود وان كلمة الوطن فارغة مثل الثورة . كلاهما متعطشان للدم وان الكتيفتين لا تستحقان هذا العناء . وحينذاك تذكرت الوطن الانسانى الحقيقى الوحيد – وهو الفكر . تذكرت الكتب ووددت لو أعود وانكب عليها واغوص فى لجتها واطلب الصفح منها واعيش معها . اما الانسانية فاود ان ابصق فى وجهها لقاء وطنها وثورتها ولجتها العفنة الشنعاء .

– آه طيب ! . . اذن تنفصم الارض قسمين ويغرق الناس فى الدماء فى طلب العدالة وانت تلتذ بقراءة الاقاصيص ؟

صاح الملازم وهو يقفز :

– لا أعرف . . . لا اريد أن اعرف . كل ما أعرفه هو اننا نعيش ساعات الدنيا الاخيرة . لقد احسنت انت القول : «تنفصم الارض قسمين» . اجل ، تنفصم العجوز الشمطاء ! لقد فرغت وتمزقت وفسد حالها . ان هذا الفراغ هو الذى يقتلها . كانت قبلئذ فتية خصبة بكرا ، وكانت تفتن بأصقاعها الجديدة وثرواتها الوفيرة . وانتهت . ولم يعد يكتشف شىء . ولا تتجه جميع حيل الانسان الا للاحتفاظ بخيراته ولتوفير العصور ، والسنين ، والدقائق . والتكنيك . والارقام الميتة . والفكر الذى اعقمته الارقام يقتل نفسه فى اختراع وسائل الابادة . ابادة اكثر ما يمكن من الحيوات كى تستطيع الحيوات الباقية ان تنبشم وان تملأ جيوبها لأطول فترة ممكنة . دعينى ! . . ما عدت انشد اية

حقيقة سوى حقيقتى . هل اكتشف بلاشفتك الحقيقة ؟ انهم يريدون تبديل الروح الحية ببطاقة ووجبة ! كفى ! ما عدت ألعب وما عدت أريد ان ألوث نفسى .

– يا لك من رجل ! تريد ان تحتفظ بجسمك ويديك نظيفة ! وينبغى لغيرك ان يحفر القاذورات بدلا منك ؟

– نعم ! أود ان يذهب هذا الى قرارة الجحيم . قد يروق هذا غيرى . اسمعى يا ماشا . حينما سننجو من هنا سنذهب الى القفقاس . أملك هناك فيلا صغيرة فى ناحية سوخومى . سوف انزوى مع كتبى وحسبى هذا ، حياة هادئة وامن وطمأنينة ! ما عدت اريد حقيقة ، اريد أمنا وطمأنينة . وانت سوف تدرسين لانك تريدين ان تدرسى ، أليس كذلك ؟ لقد قلت لى ذلك بنفسك وهو انك لم تتعلمى شيئا . اذن سوف تدرسين . وانا سأفعل كل شىء فى سبيلك . لقد انقذت حياتى ولن أنسى ذلك ابد الدهر .

نهضت ماريوتكا بحركة عنيفة . وقذفت كلمات حادة :

– لعلى فهمتك جيدا . تود ان نلتحف أنا وانت دثارا دافئا بينما يقاتل الآخرون فى سبيل الحقيقة ، ونأكل نحن السكاكر حتى ولو كانت كل سكرة مبللة بالدم ؟ أليس هذا ؟

سأل الملازم منهار النفس :

– لماذا هذه الفظاظة ؟

– فظاظة ؟ تريد ان يكون كل شىء لطيفا مع مرقة حلوة ؟ انتظر ، انتظر ! انك قد أوسعت حقيقة البلاشفة قدحا وذما . وانك تقول : لا أريد أن أعرف شيئا عنها . ولكنك هل عرفت شيئا عن هذه الحقيقة فى وقت ما ؟ مم تتألف على الاقل ؟ هل تعرف انها معجونة بالعرق وبالدموع ؟

أجاب الملازم بتراخ :

– لا اعرف . ولكن الذى يدهشنى ان فتاة تصبح فظة جافية فترغب ان تخرب وتقتل مع شراذم من السكارى العرابيد المقملين .

صاحت ماريوتكا ويداها عند خصرتها :

– قد تكون ابدانهم قد نهشها القمل ولكن روحك أنت كلها مقملة ! انه ليشيننى ان اتحدث مع شخص مثلك . أيها الدودة

هيا اذهب ! آه ، تعالى يا عزيزتى ماشا الى سرير وثير – قلدته – والآخرون سيموتون فى سبيل حراثة الارض للحياة الجديدة وانت ! أبن الكلب !

تضرج وجه الملازم بالحمرة وزم شفتيه الناعمتين بغيظ :

– امنعك من اهانتى ! . . . كونى مهذبة . . . يا داعرة !

تقدمت ماريوتكا خطوة الى الامام ولطمت وجه الملازم على خده الغائر المشعث بالشعر .

ترنح الملازم وأخذ يضطرب ويداه مشدودتان . وابتدأ ينفث كلمات متقطعة بصوت مبحوح :

– من حسن حظك انك امرأة ! أكرهك ! . . يا وغدة !

وتوارى فى الكوخ .

نظرت ماريوتكا بارتباك الى راحة يدها التى كانت تحرقها وقامت بحركة استخفاف وقالت دون أن تعرف – لمن :

– ان السيد دمه حار ! له بلوى السمك !

الفصل العاشر

ملازم الحرس غوفوروخا – اوتروك يسمع ضوضاء فناء كوكبنا الارضى بينما الكاتب ينزع عن كاهله كل مسئولية لحل عقدة القصة

ظل الملازم وماريوتكا لا يكلمان بعضهما بعضا ثلاثة أيام بعد الشجار . الا انهما ما كان يسعهما ان يتنكرا لبعضهما طويلا فى جزيرة . وجاء الربيع فأصلح بينهما . كان الربيع يحل بفورة قوية شديدة .

ذابت قشرة الثلج من زمان تحت أشعة الشمس الذهبية واصبحت الجزيرة رخية صفراء كصفرة كنارى على صفحة الماء الكثيف .

كان الرمل يحرق الايدى عند الظهر ولا يمكن لمسه .

وكانت الشمس التى غسلتها الرياح الرطبة تدير قرصها الذهبى فى زرقة كثيفة .

كانت الشمس والريح وداء الحفر قد انهكت الناجيين من الغرق . وما كان هذا وقت الشجار والخصام .

كانا يمضيان نهارات كاملة متمرغين على الرمال دون أن يحيدا ببصرهما عن الافق الشفاف يبحثان بأعينهما الملتهبة عن شراع قادم .

قالت ماريوتكا وهى تئن بيأس وتتفحص الافق اللازوردى البعيد :

– ما عدت أطيق صبرا ! اذا لم يصل الصيادون فى بحر ثلاثة أيام ، وايم الحق ، لأرمين نفسى برصاصة !

قال الملازم وهو يطلق صفيرا خفيفا :

– اراك قد تخاذلت وكنت تنعتيننى بالتنبل والكسول الحقير ! صبرا ايتها الجندية ، ستصبحين رئيسة ! لديك كل ما لرئيس قطاع الطرق .

– ما زال قلبك موغرا بالحقد علىّ ؟ عفا اللّه عما سلف . ولقد اهنتك لأنك تستحق ذلك . انه ليحز فى نفسى أن أراك لست سوى شخص مائع أخرق . شىء مزعج هذا . لقد تعلقت بى كالنشابة وزعزعت كيانى كله ومزقته . لعنك اللّه ولعن عينيك الزرقاوين !

تهاوى الملازم الى الوراء على الرمال الحارة واخذ يحرك رجليه ضاحكا .

سألته ماريوتكا قلقة :

– ماذا انتابك ؟ انت مجنون أم ماذا ؟

كان ما يزال يضحك بملء شدقيه .

– انه مجنون ! وربى ، تكلم اذن يا أبله !

ولكن الملازم لم يهدأ من ضحكه الا عندما ضربته ماريوتكا بيدها على جنبه .

نهض يكفكف دموعه من فرط ما ضحك .

– ماذا انتابك حتى تصنع هكذا ؟

– انت فتاة طيبة يا ماريا فيلاتوفنا . انك لتدخلين السرور على قلب اى شخص كان حتى قلوب الثكالى .

– حسب رأيك يحسن المرء أن يدع نفسه تتأرجح مثل قطعة خشب على صفحة الماء ضائعة ؟ كى يجعل نفسه أضحوكة الناس ؟

وعاد الملازم يضحك وربت على كتف ماريوتكا .

– شكرا يا ملكة الامازونيات ! يا جمعة اللطيفة ! لقد اسرتنى وسكبت فى نفسى اكسير الحياة . ما عدت اريد أن أتارجح مثل قطعة خشب على صفحة الماء حسب تعبيرك البديع . وارى ان الوقت ما يزال مبكرا جدا حتى أعود الى الكتب . لا ، حتما ، لا بد من العيش قليلا وصر الاسنان والعض كالذئاب كى ارى انيابى للآخرين .

– أليس ممكنا ؟ أصحيح انك بدأت تفهم ؟

– أجل ، يا عزيزتى ، أجل ! شكرا لك على تلقينك لى درسا هاما ! لو اننا انكببنا على الكتب وتركنا لكم الارض ملكا حلالا لجعلتم منها مسرحا للفوضى حتى ان خمسة اجيال بعدكم لن يفتأوا يعولون ويذرفون الدموع الدامية ! لا ، يا حمقائى العزيزة ! ما دامت حضارتان تصطرعان فليكن الامر حتى نهايته ، ما دمت . . .

وقطع كلامه اذ انتابه شرق .

واتقدت عيناه الزرقاوان اللتان كانتا تحدجان الافق ، ببريق الفرح والبهجة .

مد يده وقال بصوت مضطرب :

– شراع .

وثبت ماريوتكا كأنما دفعها نابض داخلى ورات على خط الافق بعيدا شرارة بيضاء ، انه شراع تحركه الرياح فيترنح ويهتز .

ضمت ماريوتكا يديها الى صدرها كأنما لا تصدق عينيها .

كان الملازم الى جانبها ، انتزع يديها من على صدرها واخذ يرقص جاعلا ماريوتكا تدور حوله .

كان يرقص بفرح زائد قاذفا ساقيه النحيلتين عاليا ومغنيا بصوت حاد :

شراع ابيض فى الافق
فى ضباب البحر الازرق . . .

تر – لا – لا – لا . . .
البحر الازرق . . .

تخلصت ماريوتكا منه لاهثة مسرورة النفس وقالت :

– دعنى يا بهيمة !

– يا ماشـــا ! يا حبيبتـى الصغيرة الحمقاء ، يا ملكـــة الامازونيات . لقد نجونا – أتفهمين – لقد نجونا !

– يا ابليس اللعيـن ! انت أيضـــا الآن تريد ان تغادر الجزيرة لتذهب لتعيش الحياة الصحيحة ؟

– مؤكدا وقد قلت لك ذلك !

– انتظر ! . . يجب ان نعمل لهم اشارة وناديهم !

– سيأتون من تلقاء ذاتهم .

– واذا ذهبوا الى جزيرة اخرى ؟ يوجد هنا كثير من الجزر . ربما مروا ولم يتوقفوا . هات بندقية من الكوخ .

ذهب الملازم راكضا وعاد مسرعا يرفع البندقية عاليا .

صاحت ماريوتكا :

– لا تكن أحمق ! اطلق ثلاث طلقات .

تنكب الملازم البندقية وشقـــت الرصاصات عنان السماء . كانت كل طلقة يترنح منها الملازم . لقد ادرك الآن الى اى حـد ضعف .

أخذ الشراع يزداد وضوحا . كان كبيـرا ورديـا يميل الى الصفرة يطير على صفحة الماء كجناح طائر فرح .

كانت ماريوتكا تدمدم :

– أسائل نفسى : ما هذا المركب ؟ انه كبير جدا وليس مركب صيادين .

وسمعت من على ظهر المركب طلقات نارية ، وها هـــو ذا قد انحرف وطار متجها الى الشاطئ .

ظهر تحت الشراع أخيرا هيكل القارب الاسود . وأردفـــت ماريوتكا بصوت خافت :

– لعل هذا قارب مفتش الصيادين . ولكننى اتساءل مـــا عساه يصنع فى هذا الفصل ؟

وعلى بعد مئة متر اتجه المركب الى الشاطئ . نهض أحدهم وصاح ويداه على فمه كالبوق .

ارتعش الملازم ومال الى الامام وألقى البندقية على الرمـــل وبقفزتين أصبح قرب الماء . مد ذراعيه وهو يصيح بجنون :

– يا فرحتا ! يا فرحتا ! جماعتنا ! اسرعوا ! أسرعـــوا ، ايها السادة !

نظرت ماريوتكا الى المركب فرات على كتفى الرجـــل الذى يجلس عند الدفة شريطين ذهبيين يلمعان .

فهز كيانها قلق رهيب .

وعادتها ذكرى غشت بصرها : الجليد . . . الماء الازرق . . . وجه ايفسيوكوف ، كلماته «اذا فاجاك البيض فلا تتركيه حيا» .

كادت صيحة منها تفلت فزمت شفتيهـــا وتناولت البندقية . صاحت بأعلى صوتها :

– أيها الضابط القذر ! الى الوراء ! . . الى الوراء ، أقول لك !

كان الملازم يلوح بذراعيه وقد غاصت قدماه فى الماء .

وفجأة سمع وراءه ضجة داوية مهيبة من الارض الفانية فـى النار والعاصفة ، فقفز ليتجنب الكارثة – دون ان يفهم – وكانت هذه الضوضاء آخر ضجة ارضية يسمعها .

نظرت ماريوتكا الى الرجل الصريع فى الماء وهـى تضرب الارض برجلها اليسرى على غير وعى منها .

كان الملازم قد سقط ورأسه فى الماء والدم يسيل منـــه وينحل فى الماء .

تقدمت ماريوتكا وانحنت ثم اطلقت صيحة رهيبة وامسكـت سترتها على صدرها وشدتها بعنف . وتركت البندقية تهوى .

كانت عين خارجة من محجرها تتأرجح فى الماء يمسكها خط وردى من الاعصاب . كان البؤبؤ الصغير أزرق كالبحر يحدجهـا بنظرة مبهوتة تستثير كوامن النفس .

جثت على ركبتيها فى الماء وحاولت ان ترفع الرأس الصريع المحطم ، وهوت فجأة على الجثة تلطم نفسها وتمرغ وجهها بالدماء ، ثم طفقت تصيح صياحا مسعورا :

– يا حبيبى ! ماذا صنعت بك ؟ عد ، عد الى رشدك يا حبيبى المسكين ، يا عينى الزرقاوين !

ومن المركب الذى تغرز فـى الرمـــل كان الرِّجال ينظرون مبهوتين .

قصة شىء بسيط



سينما

شارع . . . بزوغ الفجر . . .
هناك منشور معلق على جدار بصورة مائلة ، وعلى عجل . . .

نبأ مستعجل

الحمر يخلون المدينة . .
دخلت وحدات جيش المتطوعين الضاحية .
يطلب من الاهالى التزام الهدوء .
يمر بالمنشور مقاتل فى الجيش الاحمر معفر بالتراب .
يسحب بندقيته متثاقلا .
يرى المنشور . . . فيمزقه بحنق وغضب مفاجئ .
شفتاه تتحركان . . . من الواضح انه يلعن ويردد شتائم طويلة .

مرآة داخل اطار تساقط طلاؤه ، وتعفنت من جانبها الخلفى بشكل بقع خضراء . وكانت قد تحطمت الى نصفين فى وقت من الاوقات ، وقامت بلصقها يدان غير ماهرتين ، فتلاقى النصفان بشكل أعوج ومائل .

وبنتيجة ذلك صار وجه الناظر فيها ينقسم عند الشق الى قسمين ، ويتكسر بصورة خرقاء ، ويتمطط الفم بتكشيرة بلهاء تميل نحو الاذن اليسرى .

بدت هناك جاكتة معلقة على ظهر المقعد ، وكان قبالة المرآة رجل يحلق ذقنه . كان يرتدى سروالا انيقا رمادى اللون وحذائين أمريكيين لونهما بنى ، افطسين .

كانت حانة الحلاقة تقع فى ضاحية المدينة ، وسط خرائب مخازن البارود . وبدت غاية فى القذارة ، يعيث فيها الذباب ، وتفوح منها روائح الكحول الرخيص ، وبياضات الفراش الوسخة والبطاطا العفنة . كما بدا قذرا واشعث أيضا صاحبها ، شبه المخمور ، الذى لا يعرف سبب افتتاحه لها فى مثل هذا المكان ، الذى لا تؤمه حتى الكلاب الا لقضاء حاجتها . جلس عند النافذة بكآبة ، وهو يتطلع بطرف ناظريه الى الزائر الغريب ، الذى قدم فى وقت مبكر جدا ، وكاد أن يكسر الباب ، ورفض خدماته ، وطلب بلغة روسية ركيكة ماء ساخنا وموسى حلاقة .

كان زجاج النافذة الصغيرة الذى علاه الغبار يهتز مطلقا رنينا يشبه الانين ، بسبب هدير المدفعية الذى يقترب . وكان الرجل الذى يحلق ذقنه يتطلع لدى كل اطلاقة شديدة وعنيفة باتجاه النافذة بعينيه الرماديتين الهادئتين واليقظتين .

وكانت تتلألأ فى القدح الالمنيومى ، بألوان برتقالية ذهبية وسط الكتل الثلجية لرغوة الصابون ، بقايا شعر اللحية والشاربين المتجعد ، بعد أن أتم حلاقتهما .

وضع الرجل موسى الحلاقة جانبا ، بل منديلا رقيقا بالماء الحار . ومسح وجهه ووضع عليه البودرة ، بعد أن اخرج من جيب سرواله علبة بودرة فضية صغيرة .

مرر أصبعه على الخدين الاملسين ، والغمازة المدورة على

ذقنه ، وارتسمت على فمه ، المضغوط بحزم والحاد القسمات ، فجاة ابتسامة لطيفة وادعة .

لكن انينا صدر مرة ثانية من النافذة لدى هدير المدافع .

امتز كيان صاحب الحانة ، وقال كما لو كان قد ثاب الى رشده ، بصوت متحشرج :

– لقد اشتد القصف ! . . انه قريب جدا .

– Comment ؟ ! . . ماذا انت يقول ؟

التفت الاجنبى بسرعة نحو صاحب الحانة ، وسمع دمدمة ساخطة :

– ماذا اقول ؟ . . هاك ! . . قلت ذلك خمسين مرة ، ففهمنى الناس ، اما الآن فالأمر غير مفهوم ! . . المؤمنون يفهمون ، بينما لا تجد للكافر كلمة يفهمها !

قال الاجنبى بلهجة ممطوطة :

– آها ! . .

ودهش صاحب الحانة عندما اخرج هذا من جيبه قارورة دواء صغيرة بنية اللون . وفتح بظفره غطاءها الذى انغرز فى فتحة العنق ، وسكب منها على صحن صغير سائلا نفاذ الرائحة . وبلل به فرشاة الشعر ، وصار يمررها بحركات دورانية على شعره ابتداء من الجبين الى القفا .

كان صاحب الحانة يقف فاغر الفم متطلعا الى الشعر الذهبى المبلل وقد اخذ لونه يعتم ويتحول الى اسود تدريجيا .

قام الاجنبى ومسح راسه بمنديل ، وصفف شعره بعناية . وزرر ياقته ، وشد ربطة العنق ، وعندما ارتدى الجاكتة ، سمع صوت صاحب الحانة الرتيب يقول :

– يا للعجب ! . . ماذا فعلت بشعرك ؟ ربما انت مهرج او ممثل كوميدى ! . .

فارتسمت على سحنة الاجنبى ابتسامة خفيفة وقال :

– كلا . . كلا ! انا لست مهرجا ، انا تاجر . اسمى ليون ! . . ليون كوتيوريه ! . .

– هذا واضح . . . لست مؤمنا ! وحتى اسمك ليس باسم بشر ، بل تسمية لكلب . كوت . . كوت . . ما اكثر القذارات فى هذه الدنيا . .

وبصق صاحب الحانة على الارض باحتقار .

نزع ليون كوتيوريه معطفا خفيفا من على المشجب ، ووضع على راسه قبعة عالية ، ودس بيد صاحب الحانة ورقة نقدية كبيرة .

فاستولى العجب على هذا ، وقبل ان يثوب الى رشده كان الاجنبى قد خرج الى الشارع وخطا بمحاذاة أسيجة الحدائق متجها نحو المدينة ، التى بانت من وراء مداخنها البعيدة الشمس الساطعة الدافئة .

أما صاحب الحانة فقد طوى الورقة النقدية وغمره شعور من عدم الفهم ، وبدت التجاعيد الخفيفة على وجهه متقاطعة مكونة شبكة مضحكة ، وتطلع من النافذة بخبث ، ثم هز راسه الاشعث وردد بصوت واضح النبرة وبوثوق :

– لا بد انه مجنون .

• «AU REVOIR, JEUNE HOMME» الشجاع

كان يوما خريفيا صاحيا ودافئا .

وسار ليون كوتيوريه الهوينا على رصيف الشارع فى نفس الاتجاه الذى كان يسير فيه جمع غفير من الناس كالنمل .

بدا وراء منعطف الشارع ، الذى خلا من المارة بشكل يثير الريبة ، المنتزه القديم القائم فوق رابية شديدة الانحدار ، بينما كانت مياه النهر الضحل الاخضر تلحس الرمال والطين الملون بلون الصدأ .

كان يمتد فى أعلى المنحدر ممشى أبيض فاقع اللون ، يحده سياج مصنوع من الحديد المشبك ذى الزخارف ، وتقوم على جانبيه أشجار زيزفون يناهز عمرها مائة عام .

وكانت شبكة السياج حبلى بثقل الاجساد البشرية التى ضغطت عليها وتعلقت بها .

أما فى الجانب الآخر من النهر ، المغطى بنبات القصب المصفر الذى ترى بينه اشرطة زرقاء ملتوية من الماء ، فكانت كثرة من الخنافس الحمراء الصغيرة تسير فى درب ضيق من الاخشاب ، وتومض فوقه بين حين وآخر شرارات بريق معدنى .

عندما حشر ليون كوتيوريه نفسه قرب الشبكة ، وهو يقدم

* الى اللقاء ايها الفتى الشجاع (بالفرنسية) .

الاعتذارات بلا كلل رافعا قبعته السوداء ، انطلقت أربع قذائف من بعيد ، آتية من جهة اليسار ، من المكان الذى تقوم فيه محطة القطار . وقد صحبها هدير ثقيل وطويل ، وتردد فى الجو صوت رنين وعويل يشق عنان السماء ، ثم ظهرت أربع سحب منتفخة بيضاء فوق الدرب الخشبى البعيد ، وسط أشجار الصنوبر الزرقاء الكثيفة .

وانطلقت من الشبكة الحبلى بالناس آهة صادرة من صدر واحد :

– آ . . آه ! . .

وقال صوت جهورى واثق :

– انها طلقات طويلة .

لكنه ما كاد ينهى عبارته حتى ساد الهواء العويل مجددا ، وانتشرت السحب البيضاء فوق نفس الدرب الخشبى ، ولفته بغبار كثيف .

– اصابة مباشرة هذه المرة ! . . لقد اصابوا الهدف !

ومسح شفتيه بطرف لسانه بشبق رجل بدين ، احمر الشعر ، يضع نظارات «بنسنيه» ذهبية على ارنبة انفه ، كان يقف الى جانب ليون كوتيوريه .

بدا واضحا كيف اخذت النملات الحمراء تتململ فى حركتها على الدرب الخشبى .

– آها . . ، جاءت الضربات على غير ما يشتهون ! لينل الاوغاد ما يستحقون !

– للأسف ، انهم يهربون مع ذلك !

– ليسوا جميعا ! . . فكثير منهم يلقون حتفهم !

– مرحى لرجال كورنيلوف ! . .

– لكم اتمنى لو يقتلون جميعا ! . . انهم غلاظ اجلاف ، وقطاع طرق عليهم اللعنة !

ازداد انفجار قذائف «شرابنل» ، وصارت توجه بصورة أشد كثافة وتصيب اهدافها بدقة أكبر . والتفت كهل يرتدى معطفا واسعا ، ويقف مع شقراء جميلة ، الى ليون كوتيوريه ، وقال :

– ماذا تسمى . . . هذه القذائف ؟

– شرابنل ، يا مسيو ! . . انه ماسورة فيه كثير من

رصاص صغير . انه مزعج جدا Très désagréable .

وتطلع الشيخ الى الافق مجددا . اما الشقراء فقد لمحت بهز رموشها الطويلة مشجعة ، وابتسمت لليون كوتيوريه .

فسألته فائلة : – هل هى القنابل ذات الشظايا ؟

ويبدو انها كانت مسرورة مغتبطة وفخورة لمعرفتها المصطلح العسكرى .

– Oui, madame! انه الشظايا ! . .

ثم مس ليون كوتيوريه طرف قبعته السوداء وسار مبتعدا عن الشبكة . ورأى نظرة تنم عن خيبة الامل فى عينيها ، فأطلق قبلة فى الهواء وسار فى الممشى ضاربا الحصى الصغيرة بعصاه .

انحدر على الرمال باتجاه البوابة التى كان يومض فوقها بلون ذهبى باهت نسر امبراطورى مبسوط الجناحين ، كان الصبيان قد حطموا رأسيه بالحجارة .

وبعد ان وصل الى الشارع توجه الى الميناء ولكنه سمع خلفه صرخات تردد : «انظروا ! . . انهم قادمون ! . .» . وتبع ذلك وقع حوافر الجياد المنطلقة بسرعة .

وقف ليون كوتيوريه على حافة الرصيف وتطلع بامتداد الشارع .

كان ينطلق فى طليعة فصيلة الفرسان ، المؤلفة من ثلاثين حصانا ، جواد سباق انجليزى لونه ذهبى احمر ، برتقالى تقريبا . كان يحمل فارسه بخفة ورشاقة ، ويرفس بقوائمه منتصبا عاليا ، بينما كان الزبد يتطاير من فمه من تحت اللجام المزموم .

كان يجلس على ظهر الجواد ضابط شاب نحيف القوام ، غشى وجهه الاحمرار من الجرى والحماس ونشوة النجاح ، وتدلى فى يده سيف مسلول ، بينما كانت اطراف قبعته القوزاقية الطويلة ترفرف وراء ظهره .

أوقف جواده على قائمتيه الخلفيتين عند عمود النور ، الذى كان يستند اليه ليون كوتيوريه ، وتطلع كما لو كان يبحث عن الوجه المناسب على رصيف الشارع .

يبدو ان وقفة الاجنبى الهادئة وبدلته الانيقة قد تركت فيه الانطباع المطلوب . فانحنى من على سرج جواده ، وسأل قائلا :

– أيها السيد الفاضل ! ما هو أقصر طريق الى أرصفة الميناء !

– O, mon lieutenant! انت ترين هذا الشارع ؟ سيرى حتى المنعطف الاولى نحو à droite * وهنا ستكون منحدر شديد الى أسفل ، وستجدون الرصيف !

فحيّاه الضابط بحركة من سيفه واستفسر منه مرة أخرى :

– هل انت اجنبى ؟

– Oui, monsieur! انا فرنسى !

– ها . . حليف ! . . لتحيا فرنسا ! اكتب الى باريس ، يا مسيو ، اننا حطمنا شذر مذر الوغد الاحمر . وسناخذ موسكو عما قريب !

ضم ليون كوتيوريه يده الى صدره باعجاب وقال :

– O, mon lieutenant! روسو اوفيسيه هو . . هو le plus brave ** وقال المارشال فوش : الجيش الروسية يمكن بقبضة يدها المجردة أن تحطم المدفع الالمانى .

وبذلك انهى عبارته المجازية .

ضحك الضابط الشاب وقال :

– Merci, Monsieur!

والتفت الى الفصيل آمرا :

– اتبعونى ! . . خببا . . . الى الامام سر !

وتردد وقع حوافر الجياد المنطلقة فوق جرانيت الطريق باتجاه المنحدر .

لوح ليون كوتيوريه محييا بعصاه فى أعقابهم ، ثم واصل سيره . وتوقف فى الزاوية عند واجهة محطمة لمحل تجارى مقفل ، واتكأ على المسند الصدئ وصار يتطلع باهتمام الى بقايا السلع المبعثرة على الرفوف المتربة .

وعندما رفع يده لاحظ بانزعاج ان طرف كم قميصه قد تلوث بلون الصدأ الاحمر .

قال الفرنسى حانقا :

---

* الى اليمين (بالفرنسية) .

** الاشجع (بالفرنسية) .

– Sacre bleu ! *

واخرج من جيبه منديلا وبدأ يزيل الصدأ بعناية .

تجول فى الشوارع حتى حلول المساء بكسل وبلا هدف ولقى فى طريقه وحدات الفرسان والمشاة المتطوعين التى دخلت المدينة . وكان يليح لأفرادها بقبعته وعصاه ، ويبتسم لهم بلطف ، ويسير فى صفوف المشاة ، ويتحدث مع الجنود والضباط مهنئا اياهم بالنصر ، منحنيا ومحييا .

وكان وجهه ينم عن الرقة وشىء من البلاهة والفرح اللذين يميزان سحنات المتنزهين فى شوارع باريس : وكان الضباط والجنود ينفجرون بالضحك لدى سماعهم تلفظه الاعوج ، لكن الفرنسى ما كان يتضايق البتة ، بل كان نفسه يضحك ويتململ . وبدا أن كل ما كان يقلقه بين حين وآخر هو وجود بقعة على قميصه ، لذلك كان يخرج باستمرار منديله من جيبه ويأخذ بازالة البقعة المنحوسة مطلقا الشتائم الفرنسية غاضبا .

مضى النهار خلف الغابات الكائنة وراء النهر . والتجأ الاهالى كعادتهم الى بيوتهم بحلول البرودة الرطبة ، خوفا من أن تصيبهم رصاصة طائشة من حارس عصبى المزاج أو طعنة سكين من قاطع طريق .

كان كعبا حذاء ليون كوتيوريه يدقان أرضية الزقاق الخالى من المارة .

وشاهد الفرنسى من بعيد نوافذ بيت كان يعود لملاك غنى هاوى الجياد ، كانت تشغله لجنة المنطقة للحزب أيام سيطرة الحمر . كان النور يغمر النوافذ ، فبدت وكأنها خلايا النحل .

وربضت عند مدخل البيت سيارة من طراز «بنز» ضخمة ، بينما استلقى نائما فوق مقعدها سائقها المرهق تعبا .

وانتصب فوق سلالم المدخل الامامى حارس من اليونكر (طالب فى كلية عسكرية) ، جامدا فى مكانه مجسدا الواجب القائم على الطاعة والذى ليس له حدود . . . وبان على كم معطفه شريط أحمر وأسود ، ثبت على شكل زاوية ، وبالكاد يرى فى عتمة الظلام .

---

* بحق الشيطان (بالفرنسية) .

لما وصل ليون كوتيوريه النوافذ ، راى ضابطين يمران عبر الغرفة ، وهما يتحادثان ويحركان ايديهما بحيوية .

وتوقف لكى يمعن النظر بشكل أفضل ، لكنه سمع صوت طقطقة البندقية بيد حاملها ، وتردد صراخ حاد :

– ممنوع ! . . امضِ من هنا ! . .

– حسن . . . أيتها السيد الجندى ! . . انا مواطن مسالمة ، أجنبية ، اذا سمحت . . . ليون كوتيوريه ! يسرنى ان أتقدم بالتهانى لجيش المؤمنين بالنصرات .

كان صوت الفرنسى ينم عن بساطة وبلاهة ورقة آسرة بحيث ان الحارس انزل بندقيته الموجهة نحو الفرنسى .

اما هذا فوقف فى شريط من الضوء الصادر ببياض حليبى من النافذة ، بينما انحدرت قبعته على قذاله ، وقف منفرج الساقين ، وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة ، وبدا للحارس وكانه أحد الابطال المرحين فى أفلام ماكس ليندر ، التى كان يضحك من أعماقه لدى مشاهدتها ، فى الايام الغابرة عندما كانت يده تفضل ان لا تمسك مقبض البندقية الثقيل ، بل يد فتاته الرقيقة الحانية فى عتمة صالة السينما الهادئة .

لكنه قال مع هذا بلهجة صارمة :

– حسنا ، يا مسيو ! امض لشانك ! لا تجوز محادثة الحارس !

– Mille pardons! * لم اكن عارفة ! اننى ليس عسكر ! . . وانت لا بد وان يحرس مدفع كبير ؟

فقهقه الحارس وقال :

– كلا ! . . هنا مقر اركان القائد ! . . ولكن اذهب لشانك يا مسيو !

ابتعد ليون كوتيوريه . وبعد ان اصبح على مسافة من البيت التفت الى الخلف . كان هيكل الحارس الجامد الحركة ينتصب على السلالم مثل تمثال برونزى . وتراقص بريق فضى على طرف حربته المدبب الحاد .

فنزع الفرنسى قبعته وصاح :

---

* الف معذرة (بالفرنسية) .

– و Au revoir أيها السيد الجندى ! . . انا تحب كثير jeune homme الروسية الشجاع !

الكم

بدا شارع فاسيليفسكايا هادئا وناعسا ، غارقا وسط الحدائق القديمة ، التى بانت خلالها البيوت المنخفضة .

وقبل اسبوعين من مجىء البيض بعثت دائرة الاسكان الممثلة مرجريتا – آنا كوتيوريه لكى تشغل غرفتين فى شقة الدكتور سوكوفنين .

وتضايقت زوجة الدكتور فى البداية قائلة بانفعال شديد :

– يسكنون عندنا مثل هذه الحقيرة ، وتقوم بعدها بسرقة جميع الحاجيات ثم تختفى . وليس هناك من نشكو اليه .

ولشدة غضبها من الساكنة الجديدة عمدت الى التهرب من ملاقاتها وتحيتها .

لكن الممثلة لم تكتف بعدم استلاب شىء من البيت ، بل وحملت اليه آلة بيانو وعدة حقائب جلدية ، مليئة بالفساتين والملابس الداخلية والنوتات الموسيقية .

وقد ظهر انها وهبت صوت «سوبرانو» دراميا عذبا ، ووجها ملائكيا ، ويدين رقيقتين ، كما انها تجيد الحديث بالفرنسية .

وحدث فى احدى الامسيات ان انشدت عدة مقاطع منفردة من الاوبرات . وقد انشدتها وهى تطلق الالحان بقوة وطلاقة وجودة فى الاداء ، وعند ذاك تحطم حاجز العداء البشرى .

فدخلت زوجة الدكتور غرفة الممثلة واطرت صوتها ، واسهبت فى الحديث معها ، وعرضت عليها ان تتناول الطعام على مائدتهم ولا تفسد صحتها فى المطاعم الشعبية السوفييتية ، واصبحت مرجريتا كوتيوريه احد افراد اسرة سوكوفنين .

وقد أسرت مدام مارجو اصحاب البيت بلباقتها ، وادبها الجم ، وحبها البهيج والرمانتيكى والرقيق لزوجها ، الذى انحبس فى اوديسا منذ الربيع ، وهى تنتظر مجيئه مع البيض .

فى ذلك اليوم المضطرب عادت مدام مارجو لتتناول الشاى

منفعلة وفرحة بعد انتهاء القصف ، ووقع حوافر الجياد ، وأحاديث الناس فى الشوارع القلقة ، وقالت :

– أوه ، آنا اندرييفنا ! لقد التقيت فى الشارع بضابط من معارفى ! . . وقال . . . ان ليون فى قطار القائد ، وسيصل فى الساعة الثامنة من مساء اليوم ، حالما يتم اصلاح السكة المحطمة وراء الضاحية .

فاجابتها زوجة الدكتور قائلة :

– اهنئك يا عزيزتى !

لذلك ، حين اجتمع على مائدة العشاء الجميع : الدكتور وآنا اندرييفنا ومارجو والابنة ليليا . . . ورنّ جرس الباب الامامى بشدة ، هرع الجميع وراء مرجريتا التى هتفت وهى تجرى :

• «Ah, c'est mon mari!»

وقف ليون كوتيوريه عند الباب . طبعت زوجته قبلة على خده وهى تضحك مبتهجة ، بينما ربت هو على كتفها وابتسم لأصحاب البيت مرتبكا ، ثم قالت :

– •• «O, mon Léon! O, mon petit, je vous attendais depuis longtemps».

وقال الفرنسى شيئا ما لزوجته بصوت خافت .

– اوه ، يا لسعادتى ، حتى اننى نسيت . . . اسمحوا بأن اقدم لكم زوجى !

انحنى ليون كوتيوريه انحناءة شديدة وقبل يد صاحبة البيت ، وشد بقوة على يد الدكتور .

– لماذا نقف عند المدخل ؟ أرجو التفضل الى غرفة الطعام ! بالمناسبة ، ربما تود الاغتسال بعد السفر ؟

انحنى الفرنسى وقال :

– اشكركم . . ? Parlez-vous français, madame ••• .

أجابت السيدة سوكوفنينا بارتباك قائلة :

• انه زوجى (بالفرنسية) .

•• آه يا عزيزى ليون ! يا صغيرى ، انا انتظرك من مدة طويلة (بالفرنسية) .

••• هل تتكلمين بالفرنسية ، يا مدام ؟ (بالفرنسية) .

– Un peu . . . trop peu ! •

– مع الاسف ! . . انا يتكلم الروسى سيىء جدا . لا أريد الدش ! عندى عادة الاغتسال بعد الطريق فى الحمام . وفى المحطة اخذت نفسى الى حمام le bain وخافت صاحب الحمام وقالت : «اى حمام . . . هناك يضربون الرصاص» . لكن اعطيت لها مائتى روبل . فتحممت . . اما فى الشارع فهناك . . بم بم !

كان يروى قصته مع الحمام بكل ابتهاج ومرح مما جعل الكل يضحكون – افراد اسرة سوكوفنين ومرجريتا التى كانت تطالع زوجها بنظرات حذرة خاطفة .

تناول الضيف طعامه بشهية أثناء تقديم الشاى ، وتحدث بلغة روسية ركيكة ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ، والتمعت أسنانه ببريق ، عن الاحداث فى اوديسا ، وعن انزال الفيلق الملون وهروب البلاشفة . . .

– سيعود النزام تماما . . وساعود الى le commerce ومصنع التعليب . . وستغنى مرجريت فى الاوبرا .

ابتسم ونظر الى زوجته متسائلا . وفهمت ذلك .

– •• Tu es fatigué, Léon! N'est-ce pas?

– ••• Oui, ma petite! Je veux dormir!

– نعم . . نعم ! طبعا ، يجب ان تستريح بعد هذه الرحلة . أين متاعك ، يا ليون فرانتسيفيتش ؟

– انه كيس واحدة صغير ، تركته عند صاحب الحمام حتى غد !

– اذن خذ الآن ملابس بيوتر نيكولايفيتش .

فقالت الفرنسية وقد احمر وجهها برقة وحنان :

– لا تقلقى يا آنا اندرييفنا ! ان ملابس ليون موجودة عندى .

– Merci, madame!

قبل ليون كوتيوريه يد صاحبة البيت مرة اخرى ، وخرج فى اعقاب زوجته .

• قليلا . . . قليلا جدا ! (بالفرنسية) .

•• انت تعبان يا ليون ؟ أليس كذلك ؟ (بالفرنسية) .

••• نعم ، يا صغيرتى ! أريد النوم (بالفرنسية) .

عندما دخل الفرنسى الغرفة ، التى ملأ البيانو نصفها ، اقترب من النافذة بسرعة وتطلع الى الاسفل حيث غطت العتمة حجارة ارض الفناء .

التفت التفاتة حادة ، وسأل بهمس :

– أيتها الرفيقة بيلا ! . . أتعرفين الشقة جيدا ؟ الى أين يؤدى المخرج الخلفى ؟

– الى الفناء عند عنبر خشب التدفئة . والى اليسار تقوم البوابة . تكون مغلقة فى الليل ، اما ارتفاع جدار الفناء المجاور فهو متران ونصف ، لكن يوجد سلم خفيف عند العنبر

– انت شاطرة يا بيلا !

فضحكت بهدوء وبصوت ناعم .

– أتعرف . . . انه لأمر عجيب ! فلو لم أعرف انك ستأتى فى الساعة الثانية والنصف ، لما تعرفت عليك . هذا ضرب من الخيال !

– هس ! اخفتى صوتك ! والحيطان لها آذان ! سوف لا تتحادث بالروسية . ان مثل هذا الحديث بين زوجين فرنسيين قد يبدو غريبا .

فتحت بيلا غطاء البيانو وعزفت لحنا رنانا . وسألته بالفرنسية :

– من أين لك أيها الرفيق اورلوف مثل هذه الموهبة فى التمثيل ؟ . . ما كنت لأصدق ذلك أبدا ! . .

– لم يكن عبثا ان قضيت ستة أعوام فى باريس فى المهجر . . .

– اننى لا أقصد اللغة ! . . بل مثل هذه المحاكاة فى اللكنة . انه لشىء صعب جدا !

– شىء بسيط ، يا بيلا ! . . وكل ما يتطلب هو قليل من قوة الارادة ، ورباطة الجأش ، والمقدرة على ضبط النفس .

وجلس على المائدة وفتح كم قميصه .

– هل يمكنك اعطائى ورقة وقلما ؟

أخذ الورقة ، وفرد الكم ، وبسطه أمامه وصار يمعن النظر فى ملاحظات كتبت بالقلم الرصاص لا تكاد تلحظ ، وكتب بالقلم ، وبان السطر الاول واضحا دقيقا :

«فيلق ماى – مايفسكى – كتيبة الاسكندر للفرسان . حوالى ٦٠٠ مقاتل» .

بعد ان انهى الكتابة مسح الكم بعناية بواسطة ممسحة وقدم الورقة للمرأة .

– بيلا ! احملى هذه غدا الى سيمينوخين . وسيتولى نقلها الى القسم العسكرى . حسنا ، فى هذا الكفاية ! أين سأنام ؟

أشارت بيلا الى باب غرفة النوم التى فتحت بابها . وبان خلاله سرير قديم الطراز يتسع لشخصين صنع من خشب شجرة بتولا كاريليا ، ويغطيه فراش نظيف ناصع البياض .

– سرير جيد ! . . والغرفة كذلك . . . واين تنامين انت ؟

– فى نفس المكان !

قطب اورلوف حاجبيه .

– ما هذا الهراء ؟ . . ألم تقدرى على التفكير فى ذلك مسبقا ؟ اطلبى من أصحاب البيت كنبة من أجلى .

فاحمر وجه بيلا احمرارا شديدا ، واخذت تتطلع فى عينيه .

– اورلوف ! اننى لم أكن اعتبرك قادرا على امتلاك افكار البرجوازية الصغيرة . واذا ما كنت تعتبر ان من الخطر الحديث بالروسية ، فليس من الروح الفرنسية بشىء أن يطلب الزوج القادم بعد طول فراق سريرا منفردا . انه امر سخيف يبعث على الشك ! لدينا غطاءان ، وسيكون ذلك مريحا جدا . آمل ان تكون ماسكا زمام نفسك كليا ؟

فهز يده بحدة وقال :

– ليس ذلك هو السبب ! . . لكننى اخاف فقط مضايقتك ! اننى قلق فى نومى !

– هراء ! . . اخرج لكى ارقد !

عندما خرج أورلوف صار يتطلع بحنق الى الصور فى ألبوم الاسرة . كانت مسحة الرعونة والغباء قد فارقت وجهه المتوتر وبانت على زاويتى فمه طيات تنم عن القسوة والشيخوخة .

سمع من حجرة النوم صوت انغلاق زر النور ، وساد الظلام الحجرة ، وسمع صوت بيلا الناعم يقول :

– Léon! Je vous attends! Venez dormir! *

دخل اورلوف حجرة النوم المظلمة ، وتحسس طرف السرير الذى سينام عليه ، وجلس ونزع ملابسه بسرعة .

اندس تحت اللحاف الحريرى وتمدد بتلذذ وابتسم .

– يا لها من قصة طريفة ! . . ليلة سعيدة يا مارجو !

– ليلة سعيدة ، يا ليون !

انقلب اورلوف باتجاه الحائط ، وتراءت امام ناظريه ، كشأنه دوما فى حالة شبه الاغفاء ، لوالب حمراء وخضراء وبنفسجية ساطعة ، ثم تنفس عميقا عدة مرات واستسلم للنوم .

حدث تافه

عاش الزوجان كوتيوريه بسلام وسعادة . وفى صباح اليوم الثالث بعد قدوم الزوج ، فى يوم الاحد ، جلست بيلا على طرف السرير مرتدية روب الصباح ، وكانت تشرب قهوة الشعير من قدح كبير ، وتقضم الكعك الاصفر المكتنز على طريقة الاطفال ، بشفتيها واسنانها .

– صباح الخير ، يا ليون . كيف نمت ؟

فاجابها اورلوف وهو يتكئ على وسادته :

– اوه ، رائع !

وضعت بيلا القدح على منضدة التواليت والتفتت اليه . وأصابت عينيها عتمة وتطاير منها شرر غاضب .

– اما أنا فلم أنم هذه الليلة . . . وقد وجدت ان كل هذا شىء أخرق جدا ، وبدون حساب ، وشىء فظيع !

– ما الامر ؟

– كل هذه الحكاية ! لا يجوز ابقاء الافراد لممارسة العمل السر فى مكان عملهم العلنى . فلسنا نمتلك وفرة من الكوادر الحزبية الكبيرة لكى نفقدها كما نفقد ازرار سروال . واعتقد أن

* ليون ! انا فى انتظارك ! تعال ستنام ! (بالفرنسية) .

اللجنة الثورية قد تصرفت حيالك بحماقة بليدة . . .

– بيلا ! أرجو منك ان تجدى تعابير اكثر ملاءمة لتقييم أعمال اللجنة الثورية .

– اننى لم اعتد المجاملات الدبلوماسية !

– اعتادى عليها ! ان اللجنة الثورية ليست اكثر حماقة منك !

– شكرا !

– لا شكر على الواجب . . . وماذا تفهمين فى العمل الحزبى ؟

– قال اورلوف ذلك متضايقا فجأة . – ان الفتاة الصغيرة التى هربت من عائلة برجوازية عريقة وانتقلت الى التيار الرومانتيكى ! ان ما جذبك هو الرومانتيكية بالذات . . . والمغامرات . حسنا جدا انك تعملين بنكران ذات ، ولكن الوقت ما زال مبكرا لاعطاء حكم بنفسك .

– لكل شخص الحق فى اعطاء الاحكام !

– لا أجادل فى ذلك . . . احكمى بهدوء . أتودين معرفة سبب ابقائهم اياى دون غيرى ؟ لأننى أعرف كل حجر هنا وفى الضواحى لمسافة خمسين فرستا ، واعرف من يجب ان اراقب وكيف ، عندما تتأجج حماسة البيض . وعندما يعود مقاتلونا ، ستكون المدينة كلها فى أيدينا خلال دقيقة ، هكذا !

وفرد يده ثم قبضها بقوة :

– سيجهز كل شىء خلال دقيقة ! ولن تكون هناك اية مؤامرات وتجسس وثورة مضادة !

– واذا ما كشف امرك ؟

– مجازفة ! . . هذه هى الحرب ! . . اضافة الى ذلك ، اذا لم يتسن لك معرفتى ، فهذه ضمانة كافية لكى لا يعرفنى اى شخص آخر . انا «الجلاد ذو اللحية الحمراء» و«نيرون» و«المعذب» . . رجل اللجنة الاستثنائية * اورلوف او ليون كوتيوريه .

– ومع هذا ! . .

* اللجنة الاستثنائية – هيئة انيطت بها مهام مكافحة اعداء الثورة فى الفترة الاولى من قيام السلطة السوفييتية (المترجم) .

– كفى يا بيلا ! . . اذهبى ، اود ارتداء ملابسى !

. . . . . .

اضحك ليون كوتيوريه اصحاب البيت على مائدة الافطار برواية النوادر الفرنسية . وجلب سرورا كبيرا حتى الى ليلى ابنة فى الثالثة عشرة من العمر ، بأن اراها كيف يبتلع السحرة السكاكين فى الأسواق العامة .

وقال اورلوف مخاطبا بيلا فى غرفته بعد ان تناول القبعة ، وبلهجة جافة آمرة :

– بيلا ! انا ذاهب . سأعود فى السادسة . أما أنت فاذهبى الى سيمينوخين وسلميه الورقة .

اجتاحت المدينة عاصفة رعدية قصيرة خلال الليل ، فبدت المبانى والاشجار مغسولة وطرية ، ولمعت القطرات التى لم تجف بعد فى الهواء الشفاف .

وامتلأت الشوارع بالاهالى ، والاعلام المثلثة الالوان ، والشرائط ، وباقات الورود ، والقبعات من آخر زى ، وباللون القرمزى الدافئ الذى طليت به الشفاه .

كان الجميع يسرعون الى ميدان الكاتدرائية لمشاهدة الاستعراض ولحضور الصلاة التى ستقام بمناسبة خلاص المدينة من البلاشفة .

وشق ليون كوتيوريه طريقه الى الصفوف الامامية ، ونزع قبعته باحترام ، وانصت بخشوع الى الصلوات والخطاب الموجز التوعدى الذى ألقاه جنرال طويل الساقين ، يشبه بقامته أسفينا دق الى أسفل .

كان الجنرال يعمد فى مواضع الخطاب القوية الى القفز ، وظهر بدنه النحيف كما لو انه يريد القفز من بزته العسكرية الشبيهة بالكيس ، وكأنه لعبة متحركة صنعت من الكرتون .

وصدحت الابواق الفضية ، مطلقة عويلا حماسيا ، ومنشدة المارسيليز . فعدل الفرنسى ليون كوتيوريه وضع صدره ببطولة ، بينما مرت امامه القوات فى مسيرة استعراضية وسط لمعان وبريق الحراب والازرار والشارات والميداليات .

واندفع الجمهور وراء القوات .

اعتمر ليون كوتيوريه قبعته ، وسار ببطء فى الاتجاه

المعاكس ، نحو الشارع الرئيسى . وشق طريقه بصعوبة فى الرصيف المزدحم ، فرأى صبيا يبيع الصحف ، حافى القدمين ، يجرى سابقا الريح .

كان الصبى يتدافع مع جميع المارة ، وهو يقفز ويصرخ بصوت يصم الآذان .

– النشرة النهارية لجريدة «وطننا» ! القبض على زعيم البلاشفة ! . . مهم للغاية ! . .

اوقف ليون كوتيوريه بائع الصحف . فدس هذا فى يديه بسرعة البرق نسخة مطوية من الصحيفة ، بينما دس النقود فى جيبه ، وانطلق مواصلا طريقه .

وفتح ليون كوتيوريه الجريدة بيدين تكادان ترتعشان ، وجرت عيناه على السطور غير المنتظمة التى تنبعث منها رائحة الكيروسين ، وبحلقتا ، وتوقفتا ، وجمدتا على عنوان منشور مطبوع بأحرف سوداء كبيرة :

«القبض على الجلاد اورلوف»

قبضت دورية الضباط ليلة الامس فى خطوط محطة سكة الحديد على انسان مجهول حاول ركوب عربة فى قطار شحن غادر المحطة . واثبت الحاضرون فى المحطة ان الرجل المقبوض عليه هو رئيس اللجنة الاستثنائية فى المقاطعة المجرم والمعذب المعروف الجلاد اورلوف . ورغم اثبات شخصيته يجحد اورلوف هذا زاعما انه فلاح جاء من يوزوفكا وينوى ان يعود الى بيته . ولم يعثروا على اية وثائق عنده ، ولكن مبلغا كبيرا من النقود كان مخفيا فى معطفه . يزعم اورلوف انه قد حصل على هذه النقود من تعاونية يوزوفكا . ان الكذب الوقح من جانب هذا الجلاد الجبان قد استثار غضب الجمهور الى حد انهم أرادوا تمزيقه على الفور . وبصعوبة تمكنت الدورية ايصال اورلوف الى مصلحة مكافحة الجواسيس حيث ينتظره عقاب استحقه» .

. . . . . .

قبض يديه . . . وكمش الصحيفة . . . وتسمرت قدماه على الرصيف .

سالته امرأة مرت بجانبه :

– ماذا بك ؟ . . هل انت مريض ؟

ثانية واحدة . . .

رفع ليون كوتيوريه قبعته واجاب :

– شكرا ! . . . كلا ! . . لا بأس ! . . يوجعنى قلبى . . . نوبة صغيرة . . . ليس مهم . شكرا . . . يا حوذى ! الى شارع نيقولايفسكايا !

وركب العربة بسرعة ودس الصحيفة المكموشة الى الجيب .

حوار

– اورلوف ؟ . . انت بنفسك ؟ لق . . . دكا . . . ز . . . ت للتو . . ولكن ما . . . ماذا بك ؟ ان وجهك رهيب !

اخرج اورلوف الصحيفة من جيبه وقال :

– اقرأ !

نظر سيمينوخين الى الصفحة واسترخى رأسه القصير الشعر ، ذى الاذنين الحمراوين ، بسرعة ، فغدا يشبه كلب صيد يمسك ارنبا فى قفزة اخيرة .

طارت نظراته متنقلة على السطور . ثم رفع رأسه ، وانطلقت من فمه الغليظ الشفتين ضحكة ارتياح ، واضاف يقول بتأتأة :

– هد . . هـد . . هذا ب . . بد . . يع ! . . ه . . هذا را . . رائع !

سأله اورولوف وقد قطب حاجبيه ، وهو جالس على حافة المنضدة :

– ما هى الروعة التى تجدها فى ذلك ؟

– ز . . نعم ، فهذا حدث غير اعتيادى . ف . . ف . . الآن يمكنك ان تطمئن تماما . وعندما سيقضون على هذا الكولاكى تكون قد انتقلت الى العالم الآخر . ولن يخطر ببال أحد ان يبحث عنك . لذا ف . . فانها مفاجأة غير متوقعة ، وسعيدة ج . . جدا .

أسند اورلوف ذقنه على راحة يده واحدق النظر بامعان فى سيمينوخين ، وقال :

– الم تخامرك اية شكوك ، قط ، يا سيمينوخين ؟ هل كنت دوما تنجز عملك دونما تفكير وتأمل ؟

– ول . . ا . . لماذا تسأل ؟

– ماذا ستقول لو ابلغتك باننى سأذهب الآن ، بعد قراءة هذا الخبر لكى أسلم نفسى الى مخابرات * البيض .

اغلق سيمينوخين بسرعة فمه الذى رانت عليه ابتسامة ، واستلقى على ظهر الكرسى الذى تصدع من ضغط الجسم الثقيل عليه . . . واستغرق فى الضحك .

– عليك . . الد . . العنة ! كدت . . ! . . آخذ ذلك عـلى محمل الجد ! اسـ . . . سمع يجب ابـلاغ الجميـع بهذا فورا . . . ولتثار ضجة فى مناطق المدينة وابداء الاسف عـلى على الر . . فيق ، اورلوف . سـ . . . سيكون هذا را . . را . . رائعا !

انحنى اورلوف باتجاهه عبر المائدة .

– انت احمق ! اننى اتحدث معك بكل جد . ماذا تقول لو ذهبت وسلمت نفسى ؟

كان صوت اورلوف ينم عن لهجة صارمة ، وغابت الابتسامة عن وجه سيمينوخين ، واحدق النظر بامعان فى خـد اورلوف الايسر ، الذى كانت تهتز فيه بعصبية عضلة مثلثة تحت العين .

– ما . . ماذا ك . . كنت ستقول ؟ . .

قال ذلك ببطء ، ثم لزم الصمت التام ، ونحى الكرسى ، ونهض بطول قامته ، واخرج مسدسا من جيبـه الجانبى دون عجلة ، وبهدوء .

– لك . كنت ق . . قد . . قلت واحدة من اثنتين . اما انك ق . . قد جن . . ننت ، واما انك ز . . نذل وخ . . خائن ! وفى كلتا الحا . . الحالتين اذ . . نى ملزم بعدم ايصال الامر الى هذه الن . . النتيجة .

– اخف لعبتك . فلن ترهبنى بمسدس .

– اننى لا اريد . . ار . . ارهابك . لكننى ساقتلك !

– اسمع ، يا سيمينوخين ! دع جميع الظروف الطارئـة

---

* المقصود بذلك قسم مكافحة الجواسيس (المترجم) .

جانبا . فالمسألة بالنسبة لى جدية للغاية . اذ القى على كاهلى تنفيذ عمل شاق يتطلب موازنة تامة لجميع القوى . اما عملك فبسيط ! انتم تجلسون فى بيوتكم مثل القندس ، ولا تغادرونها الا ليلا لممارسة اعمال الدعاية . بينما انا ارقص طيلة اليوم على حد الموسى . ان أى خطأ تافه . . معناه نهايتى !

– حسـ . . سنا . . ـم . . ـم . . ماذا تـ . . تحتاج ؟

– صبرا ! . . لقد حدث شىء فظيع ! اذ يقاد الى الموت انسان آخر بدلا منى ، وذلك لخطأ تافه ، سببه التشابه القاتل بيننا . انه ليس عدوا . ليس ضابطاً أو صاحب مصنع او ملاكا عقاريا ، بل هو فلاح ، «موجيك» . هو احد الذين اعمل من اجلهم . فهل يستطيع الحزب ان يسمح بأن يكون موته هو الثمن لانقاذى من الخطر ؟ وهل استطيع ان ارجح كفة الميزان لصالحى بهدوء !

لوى سيمينوخين فاهه بسخرية .

– هذا هـ . . هوط . . طرح المثـ . . الـه . . المثقفيـن للمسألة ؟ الحق الاخلاقى وحكـ . . كم المبادىء الاخلاقية ؟ فلسفة دـ . . دـ . . دوستويفسكى ! بـ . . بالنسبة لـ . . لك لا تو . . توجد سوى قضية الحزب ، ولي . . ليس لك الـ . . حق بافشالها !

اجتاحت وجه اورلوف موجة حمراء كثيفة ، من الجبين الى الذقن . فقفز من كرسيه .

– لماذا تتحدث عن قضية الحزب ؟ اننى لا اعمل على افساد هذه القضية ، ولا ازمع ذلك . وحتى اذا سلمت نفسى . فلن يستطيع اى تعذيب على ارغامى على الكلام .

وهز سيمينوخين كتفيه متضايقا .

– اذن لأى غـ . . غرض تـ . . تريد أن تضـ . . ضع الحبل . . . حول عنقك ؟ انت تقول انه اعتقل فلاح . هـ . . هو أحد ممن نـ . . نعمل من اجلهم ؟ . . لا أدرى . . هناك فرق بيـن فلاح وآخر . لقد وجد معه مبلغ كبير من النقود . . . ـم . . . من اين له . . . ذ . . . ذ . . . ذلـك ؟ أهى نـ . . . نقـود تـ . . . تعاونية ؟ ر . . . ربما . . . واغلـ . . . غلب الظن انه تـ . . . تاجر بـ . . . بـ . . بالطحين . . وشحم الخـ . . خنزير . . انـه كولاكى فهو ان لـ . . . لم يكـ . . . كن عدوا مكـ . . . كشوفا ،

لكنه عدو خـ . . . خفى . ولا داعى لذ . . . ذرف الدموع عليه ! فيهلك انسان برىء !

– لكنهم سيذيقونه صنوف العذاب ظنا منهم انه انـا .

قال سيمينوخين :

– اسمع ! اذهب الى البيت ، واشرب قـ . . قدحا مـن الساـ . . ـم . . موغون * ، ونل قسطا من النوم ! يا لك مـن فيـ . . فيلسوف !

فثارت حفيظة اورلوف غضبا :

– اذهب الى الشيطان ! ابق نصائحك لنفسك . اننى لست بحاجة اليها !

هز سيمينوخين رأسه الكبير متأملا .

– انت كثير النرفزة والتهيـج ! هذا شىء سـ . . سيىء ! لـ . . . لـ . . . لهذا فقط صرت تـ . . . تقول مثل هذه الحد . . . الحماقات التى تـ . . . تكفى وحـ . . . وحدها الفصـ . . . صـل اى رفيق من الحزب . ان العمـل الذى ارد . . . دت القيـ . . . قيام به هو خـ . . . خيانة . أقول هذا باسم اللجنـة الثورية ! عد الى صـ . . . صوابك !

شحب وجه اورلوف ، وتقلص وجهـه بعصبية . واطرق عينيه ، وقال بصوت مختنق ومتشنج .

– نعم ، اننى عصبى المزاج . اننى لست آلة فى نهايـة الامر ، وليأخذنى الشيطان ! اننى ارجو بحكم الظروف التى تعلمها ان تعفينى اللجنة الثورية من العمل ، وتبعثنى وراء الجبهة . وقد لا اتحمل التوتر الدائم ، وأفقد زمام السيطرة على نفسى ، وأجلب الى القضية ابلغ اساءة . خذ كل ذلك بنظر الاعتبار . فالحجر يمكن ان يتهشم ايضا .

– هراء ! اذهب الى البيت ، وخذ قسطا من الراحة .

وغدا صوت سيمينوخين رقيقا حنونا . وبدا وكأنـه اب يتحدث مع ابنه الصغير المحبوب .

– دميترى اننى اء . . . علم ما تـ . . . تلاقيه مـ . . . من

---

* الساموغون – نوع من الكحول المستحضر فى البيت ، ويكـون عادة عالى التركيز (**المترجم**) .

مشه . . . شقة ، وانفجارك شيء مبرر تماما . انك مـــن خيرة العاملين لدينا . خذ راحة لمدة يومين . وبعد ذلك ستضحـك انت نفسك ! . . . ت . . . ت . . . تفهم اية مصه . . . صادفـة عجيبة ! لقد مات اورلوف ، واخ . . . خلد البيض الى الهدوء ، بينما اورلوف هنا ، قريبا منكم ، يا ايها الاعزاء !

– حسنا ! الى اللقاء ! ان راسي يدور فعلا !

– اف . . . فهم ذلك ! وهكذا ف . . . فلن ت . . . ترتكب الحم . . . ماقات ؟

– كلا !

– ك . . . كلمة شه . . . شرف ؟

– نعم !

– الى الد . . . اللقاء ! اية حم . . . ماقـــة ! لقد ج . . . جمعت خ . . . خ . . . خلال ثلاثة ايام معلومات ق . . . قيمـــة جدا ، وفجأة صرت . . .

وشد على يد اورلوف بيديه الاثنتين بقوة ، قائلا :

– خ . . . خذ قسطا من الراحة ح . . . حتما !

واضاف في الختام بحنان :

– انك شه . . . شاب را . . . رائع !

وجبة «ايس كريم»

رمى ليون كوتيوريه قطعة النقود الى البائعة وثبت زهرتي الآستر في عروتـــه ، ولاعـب عصاه ، ثـم انحدر فـي شارع نيقولايفسكايا ، وهو يبتسم كالهر الى عيون النساء التي جعلها هواء الخريف فاترة مسترخية .

كان الجو قائظا ، فاراد تناول شيء بارد ومنعش .

فدفع الباب الزجاجي لمحل بيع الحلويات ، ووضع قبعتـــه على المائدة ، وسكب الماء من دورق زجاجي وطلب الايس كريم من النادلة .

أجال بصره . كان ضابطان يشربان شراب الجرينادين وراء مائدة مجاورة . كانت يد احدهما معلقة بعصابة سوداء وبانت عبر الضمادات بقعة دم صغيرة .

قدمت النادلة الايس كريم ، وصار ليون كوتيوريه يبتلـــع القطع الباردة المشوبة بمذاق التوت البرى باستمتاع .

– نعم . . . عن اورلوف اتحدث .

وضعت أصابع ليون كوتيوريه المعلقة على المائدة ببطء ، واتجـــه بكـــل جسمـــه نحـــو الصوت بشكـــل لا يلفت النظر .

– . . . لقد جرى ذلك بصورة رائعة ! كنا نسير ، نتفقد طرق سكك الحديد . كانت تقف هناك قطارات وعربات مختلفة . فقد كانت مهيأة لنقل المشاة الى الشمال . وبينما كنا نتفقد المكان شاهدنا شبحا يبرز من تحت العجلات . وفي لحظة خاطفة اندس في احدى العربات . «قف !» فتوقف . اقتربنا منه . كان رجلا ضخم الجثة مرتديا معطفا قصيرا ، وله لحية حمراء . اما عينـاه فسوداوان مثل الفحم . «من انت ؟» .

– «يا صاحب السعادة ، استمعوا لى * . انا من يوزوفكا . علىّ ان اعود الى البيت ، بينما كانت القطارات واقفة هنا طيلة الاسبوع . دعونى اذهب» .

«تريد ان تذهب الى يوزوفكا ؟ اذن لم صعدت هذا القطار الذاهب الى كروتى ؟» .

«من أين لى ان اعرف . اذا ما جن جنون كافة القطارات . . . والفوضى ضاربة اطنابها» .

«جن جنونها . هات بطاقتك الشخصية !» .

«لا توجد يا صاحب السعادة ، لقد سرقت» . فقال شيجلوف «خذوه !» ، فأخذ الرجل يصرخ : «لماذا ؟ ماذا فعلت ؟» وقدناه الى المحطة . ومـا ان أدخلناه حتـى صرخ أحدهـم قائـــلا : «اورلوف !» – «اى اورلوف ؟» «رئيس اللجنة الاستثنائية فـى المحافظة !» . ففغرنا أفواهنا من الدهشة والعجب . اذن . . . وقع بأيدينا صيد ثمين . وهرع الينا ثلاثة اشخاص آخريـــن وعرفوه . وكان احدهم معتقلا فى احد سجون اللجنة الاستثنائية ، فعاجله هذا بلكمة على وجهه . وقد سال الدم طبعا على لحيته . لكنه اصر على ترديد اقواله . وقال : «اننى يميلتشوك ، فلاح

* كان الرجل يتحدث باللغة الاوكرانية (المترجم) .

تعاونى» .واردنا قتله فى المحطة لكن القومندان امر بنقله الى قسم المخابرات .

– لماذا ؟

– كيف لماذا ؟ من الواضح انه بقى لممارسة العمل السرى ، ويمسك بيده شبكة التنظيم كاملة .

– مثل هذا الشخص لن يقول اى شىء . لقد انتزعنا من احد رجال اللجنة الاستثنائية الاحشاء من بطنه ، لكن ابن الكلبة التزم الصمت .

– سيتحدث ! . . قد يلزم الصمت ثلاثة ايام ، وبعدها سيقول كل شىء ، وبعدها نرسله الى رحمة ربه ! !انت ذاهب الى تانيا ام لا ؟

– وماذا ؟

– لقد وعدت ان تاخذنا اليوم الى احد الاماكن . المقامرة ! هناك انواع من الناس . ويمكن ان نلعب الورق .

فاجاب الضابط الآخر ، ذو اليد المربوطة الى عنقه ، بتكاسل : – حسنا !

واراد القيام .

نهض ليون كوتيوريه من خلف مائدته ، واقترب من الضابطين ، واحنى راسه بأدب جم .

– ارجو المعذرة . ليس لى شرف l'honneur المعرفة . انا تاجر ليون كوتيوريه . لقد سمعت انت قابض على رجل مخابرات اورلوف .

فابتسم الضابط بارتياح .

– ارغب ان اعرف . . . سمعت كثيرا على اورلوف . . لقد جئت من اوديسا وعرفت ان امى العجوز ma pauvre mère قد اعدمتها المخابرات . انا يكره المخابرات ويريد يشرب نخب la santé جراة الملازم الروسى . حدثينى كيف هو اورلوف . وانا نفسى ساقوم l'assassinez ، كيف يقال بالروسى اقتله .

ولمع فى عينى ليون كوتيوريه بريق الحقد . واثار اهتمام الضابط هذا الاجنبى الظريف . فانحنى لرفيقه وقال :

– ميشكا . . . يمكن الافادة من نقود هذا الابله الفرنسى ،

بأن ندعوه بكل بساطة للشرب . وسأتولى اعداده لذلك .

التفت الى ليون وخاطبه قائلا :

– مسيو ! . . نحن سعداء جدا ، يا ابن فرنسا الجميلة ! اننا نريق دمنا من أجل قضية واحدة . ويسرنا بكل ارتياح ان نرد بشرب نخب صحتك ! . . اقدم لك الملازم اول الكونت شوفالوف ! . . الملازم ثان صاحب السمو الامير فورونتسوف !

ولكز الضابط الثانى رفيقه من الخلف بحذر . فهمس هذا له قائلا :

– صه ، يا مغفل ! ان الجميع فى روسيا بالنسبة لهذا الفرنسى هم من الكونتات !

صافح ليون كوتيوريه يدى الضابطين .

– انا سعيد جدا ! Je suis enchanté مسرور ، للتعارف مع اسرة روسى عظيمة .

– اتعرف يا مسيو ! ينبغى علينا ان ننتقل الى مكان آخر ، على اعادة ابناء نيجنى نوفجورود . فلا يوجد فى هذا المقهى الحقير اى شىء سوى شراب الجرينادين . وجرت العادة فى روسيا ان لا يشرب نخب صحة الاصدقاء ماء الفواكه .

– Mais oui! انا تعرف العادات الروسى . سنشرب فودكا .

– اوه ، هذا عظيم ، روح روسية حقة !

وربت «صاحب السمو الامير فورونتسوف» على كتف الفرنسى برقة .

– سنشرب الفودكا . وبعدها تحدثنى عن اورلوف . اريد يعرف اين وضع فى السجن ؟ انا يذهب الى القائد العام ، ويطلب ان اقتل اورلوف بيدى ، انتقم منه ! La vengeance

فقال «صاحب السمو الامير» بلا حذر :

– القضية يا مسيو هى اننى للأسف لا استطيع اخبارك بمكان اعتقال هذا الشخص . انها مسالة تافهة بالنسبة لى كارستقراطى روسى . لكن لحسن الحظ ارى عند الباب الرجل الذى تساعدك . اسمح لى بأن اتركك للحظة .

دق بمهمازتيه برشاقة واتجه نحو الباب حيث كان يقف عنده

ضابط طويل القامة نحيف الخصر يتطلع الى داخل المقهى .

– اسمع يا سوبوليفسكى ، كن صديقا حقا ! لقد اصطدنا انا وميشا هنا ابله فرنسيا . وهو تاجر مضاربة من اوديسا جاء يبحث عن امه ، التى قضت نحبها فى اللجنة الاستثنائية . وسمع صدفة كيف ألقيت القبض على اورلوف امس ، فأخذ يبدى عواطفه الرقيقة نحوى ، وبذلك ضمنا حفلة شرب جيدة . هيا معنا ! ويمكنك ان تبادله العواطف ، ولن يغادرنا الا وقد خلا جيبه . لكن تذكر اننى الامير فورونتسوف وميشكا الكونت شوفالوف !

فقطب الضابط حاجبيه :

– ليس لكما سوى تضييع الوقت بالحماقات . لدىّ اعمال كثيرة .

– سوبوليفسكى ! عزيزى ! لا تتركنا وقت الشدة . لا تكن خنزيراً ! فلديك آخر الانباء من «مؤسستكم» . وهذا الفرنسى يبدى اهتماما كبيرا باورلوف . وحتى طلب ان يقتله بنفسه انتقاما لـ pauvre mère !

ادار سوبوليفسكى خيط الحمائل فى بزته وبدا على وجهه الملل .

– ماذا تقول ؟

– حسنا ، ليأخذكما الشيطان ! موافق !

– كنت اعرف انك صديق حقيقى . هيا بنا !

قدم سوبوليفسكى الى ليون كوتيوريه .

– الى اين ؟

– الى «الاوليمب» ، فهو المكان الوحيد المفتوح الآن ! واوقفوا العربات وركبوها .

صديقى

كان الجو معتما فى الحجرة الباردة ، بسبب الستائر المخملية المكرمشة ، التى يعلوها الغبار ، المعلقة على النوافذ .

وانعكست ببرود انوار المغيب التى كانت تخترق سحب دخان

السجاير على «بطارية» من القناني الفارغة المنتصبة على طرف المائدة .

كان «الكونت شوفالوف» و«الامير فورونتسوف» قد غلبهما السكر ، وانشغلا بملاعبة ومهامسة الفتيات من جوقة الغناء .

وغرقت هؤلاء الفتيات فى الصاصاة بصوت عال ، وفى اطلاق القهقهات وترديد بذاءات الجنود .

وكان الثوب الحريرى لأحداهن قد تمزق ، فانسدل عن كتفها ، وبان من الشق نهد مدبب ذو حلمة صلبة .

بينما اخذ «الكونت شوفالوف» يصرخ محاكيا طفلا رضيعا :

– وا ، وا ، وا !

وصار يحرك ساقيه وانحنى يريد مص الثدى . اما الفتاة فكانت تصده عنه وتلطمه على شفتيه بدلال .

لم يبق وراء المائدة سوى سوبوليفسكى وليون كوتيوريه . استلقى الفرنسى على ظهر كرسى مطوقا بذراعه خصر امرأة هادئة استقرت فى احضانه ، مثل قطة بيضاء ناعمة .

كانت تتطلع الى النافذة حالمة .

اما الملازم اول سوبوليفسكى فكان يجلس باستقامة تامة على الكرسى ، كما كان يمتطى صهوة جواد فى مسيرة استعراضية ، ويدخن .

لم يكن وجهه ليرى فى الضوء الساقط من خلفه ، ولم تشاهد سوى عيناه تومضان بين حين وآخر .

كانت عينا الملازم غريبتين . عينان كبيرتان ، غائرتان ، وحالمتان وفى الوقت نفسه تنمان عن روح وحشية . هكذا تلمع عينا الذئب ببريق اخضر ليلا فى البرارى ، عبر العواصف الثلجية الباردة .

وهكذا كانت عينا سوبوليفسكى تلمعان بنور اخضر بين حين وآخر .

كانا يتكلمان بالفرنسية طول الوقت .

فى بداية الغداء كان كوتيوريه يخاطب الملازم أول بلغته الروسية الركيكة ، التى كانت تثير ابتهاج الضابطين الآخرين ، الى ان قال سوبوليفسكى عابسا :

* Monsieur, laissez votre espéranto! Je parle français tout couramment!

ففرح الفرنسى . وتبين ان الملازم سوبوليفسكى قد عاش ودرس فى باريس فى جامعة السوربون .

جلس قبالة ليون ، باستقامة ، بعينيه اللامعتين ، وكان يتحدث بصوت خافت عن باريس ، واستعاد ذكريات حدائق بوجيفال التى يغمرها الضباب حيث مات تورجينيف ، والاروقة الصاخبة لكلية الآداب التى امضى فيها ثلاثة أعوام رائعة .

وهز ليون كوتيوريه راسه ، وتذكر بدوره احياء باريس المرحة وواصل بعناد سكب النبيذ للملازم . لكن هذا كان يثمل ببطء . واصبحت جلسته اكثر استقامة بعد كل كاس ، واصابه شحوب فقط . وقال ليون متنهدا :

– نعم كان ذلك زمنا رائعا لفرنسانا . . . اما الآن فقد خمدت شعلة باريس . اذ قتل رجال «البوش» ** عددا كبيرا من رجال باريس ، وغدت باريس الآن مدينة النساء الكئيبات .

فساله الملازم أول :

– هل تركت باريس منذ زمن طويل ؟

– ليس كثيرا ! فى العام الماضى ايام ثورة «البوش» . لقد حزنت كثيرا . فان مرح باريس تحول الى حزن ، وارتدى قلب فرنسا ثياب الحداد .

– نعم ، شىء محزن .

تفوه الملازم أول بهذه الكلمات بلهجة ممطوطة ، وفجأة سأل محدثه :

– لقد اخبرنى صاحباى الفاسدان انك جئت الى هنا من أجل امك .

أطلق ليون كوتيوريه تنهدة .

– اوه ، نعم ! شىء فظيع ، ايها السيد الملازم ، اننى حتى لا اعرف اين قبرها ! يا لهم من وحوش ! ماذا يريد هؤلاء الناس ؟

---

* اترك لغتك الاسبرانتو ، يا مسيو ! انا اتكلم بالفرنسية بطلاقة (بالفرنسية) .

** البوش – الألمان (المترجم) .

بناء الاشتراكية فى بلاد آسيوية بربرية ؟ جنون ، جنون ! لدينا مثال ثورتنا العظمى . لقد قامت بها اكبر العقول فى البلاد ، التى كانت دوما منارا هاديا للبشرية . فماذا حصل ؟ لقد عدلوا عن الاشتراكية باعتبارها طوباوية لا معنى لها . وكيف الحال عندكم ؟ اوه ، يا الهى ، الاشتراكية عند عشائر طورانية ! وهؤلاء الوحوش ليس لهم رحمة للنساء ! اوه يا ماما ! اننى اسمعها تدعونى للانتقام !

– نعم ، نعم . هل أعدموها فى اللجنة الاستثنائية ؟

هز كوتيوريه راسه .

– انك تدرك الآن مبلغ ما اصابنى من فرح لاعتقال هذا الفاجر !

– هات سيجارة يا فرنسى .

«ماما» بهذه الكلمات فجأة القطة ، التى كانت فى احضان ليون . كان قد ألم بها الضجر لسماع كلمات لا تفقه معناها .

وقال سوبوليفسكى مركزا الكلمات :

– اننى اتذكر باريس بحنان كبير . لقد كان ذلك خير اوقاتى . الشباب والحماس والصفاء ! كنت احب الأدب ، وتلك النقاشات المجنونة فى الحانات ، حيث كانت تقرر مصائر العالم ، والاحاديث وسط دخان السجاير ، وضباب شراب الابسنت ، وعويل آلات الكمان وتلك الاشعار التى كان يتلوها فتيان غير مشهورين . ثم صارت اسماؤهم فيما بعد تهدر فى العالم اجمع . . .

واغمض الملازم اول عينيه .

– هل تتذكر هذا :

Hier encore l'assaut des titans
Ruait les colonnes guerrières
Dont les larges flancs palpitants
Craquaient sous l'essieux des tonnerres*

---

* فى يوم الامس كانت طوابير عسكرية تنهار تحت ضغط الجبابرة وتتحطم اجنحتها العريضة مهتزة تحت ضربات الرعود (بالفرنسية) .

– اوه ، اننى لا افهم ذلك . . . انا ضعيـــف فى الادب . فمجالى هو التجارة !

خيم الظلام على المكان تماما . وسمعت من جهة الديوان ، من العتمة ، قبلات وصرخات مكتومة . واتم الملازم أول شرب النبيذ وعلاه شحوب اكثر .

– لقد حان الحين للذهاب . العمل كثير .

– انت ، حقا ، متعب جدا ! . . وكل جيشكم . لكنها نهاية تعب الابطال . ان العالم المتمدن كله يتابع اعمالكم المجيدة . والآن النصر مضمون لكم !

اتكا الملازم اول على المائدة ، واخذ يتطلع الى محدثـــه بنظرات ثملة ومخيفة .

– نعم ، سننهى ذلك عما قريب ! لقد ضجرنا من المشاغل التافهة وبعد النصر سنقوم باعادة بناء روسيا على نطاق واسع !

– وكيف تتصور دولتكم فى المستقبل ؟

– كيف ؟ . .

استند الملازم اول الى المائدة بصلابة اكثر . ورأى ليـون كوتيوريه كيف اتسعت عينا سوبوليفسكى الغريبتان معبرة عـن الحنق والغيظ ، واشتعلتا ، وبرق فيهما وميض عيون الذئاب .

– اوه ، يا مسيو ! لدىّ نظريتى الخاصة . القضاء على كل شىء تماما ! أتفهمنى ! وان تحول هذه البلاد الملعونـــة الى صحراء . لدينا مائة واربعون مليون نسمة . بينما لا يتمتع بحق الحياة سوى مليونين او ثلاثة ! خيرة العرق : النخبة من اهـــل الادب والفن والعلم ! أنا مادى النزعة ! اما المائة وسبعـــة وثلاثون مليونا فيستخدمون كسماد ! أتفهم ! ولا حاجة لأيـــة سوبرفوسفات وأملاح نتروجينية ونترات البوتاسيوم ! وسيجرى تسميد الحقول بهذه الملايين ! الفلاحون ، الغلاظ ، الاوغـــاد المتمردون . كلهم يوجهون الى ماكينة ! الى مطحنة كبيرة للبن . فيتحولون الى عصيدة ! عصيدة تجمع وتكبس وتجفف ثم ترسل الى الحقول ! الى كل مكان حيث الاراضى رديئة ! وتبنى عـــلى هذه السبخة حضارة جديدة للنخبة .

– لكن . . . من سيعمل من أجل هؤلاء النخبة ؟

– هراء ! الماكينات ! الماكينات ! ازدهار عارم لصناعـــة

الماكينات . الماكينة تقوم بكل شىء . قد تقول ان الماكينـــة بحاجة الى خدمة ! وهنا ستساعدوننا انتم . فقد حصلتم بعـــد الحرب على أراض شاسعة فى افريقيا واوستراليا . ورغم كـــل شىء لا تستطيعون اطعام جميع المتوحشين هناك ، كما لا يمكنكم توفير العمل لهم جميعا . فنشتريهم منكم . ونكون منهم كوادر لمراقبة عمل الماكينات . ولا نحتاج الى عدد كبير منهم ! ثلثمائة الف ! يكفى ! وسنوفر لهم حياة رغيدة ، ونبيذا وبيوت متعة فيها جميع صنوف الفسق . وسيسبحون فى الذهب ولن يودوا التمرد أبدا . اضافـة الى علم الطـب ! والنجاحات الباهرة لعلـــم الفسيولوجيا ! وسيكتشف العلماء ذلك الموقع من المـــخ الذى تعشعش فيه روح الاحتجاج . فينتزع ذلك المكان بعمليـــة جراحية ، مثلما ينتزع مخيخ الارنب . وبعدها لن تكون هناك اية ثورات ! كفى ! والى الشيطان ! ما رايك بذلك ؟

أجاب ليون كوتيوريه على عجل :

– هذا تطرف أيها السيد الملازم ! وافراط فى القسوة ! ان العالم واوربا الغربية لن تغفرا لكم اهلاك هذا العدد من الناس .

ومال الملازم اول بجسده باتجاه الفرنسى . وبدا واضحـــا فى عينيه آنذاك الجنون الصريح . وغدا صوته حادا وملموســـا وكأنه مسمار يدق .

– لقد جبنت ؟ يا خائر العزيمة ، وصاحب سيقان القش ! انكم جميعا اغرار ! أمة حمقاء ، وفراخ مهبلة . يجب شنقكم على أعمدة المصابيح ، عليكم اللعنة ! . . . – ومسح بيده الزبـــد عن شفتيه – لياخذك الشيطان ! سأذهب ! يجب علىّ ان أنـــام جيدا ! فيجب علىّ غدا اخذ عدد آخر من «الرفاق» الى العمل ! . .

فسأله كوتيوريه :

– أية رفاق ؟

– الاجلاف الحمر ! حديث مقتضب خفيف . . . وابر تحت الاظفار ، وصب القصدير فى المناخير . . . أنا قومندان قســـم المخابرات . أتفهم ذلك ، أيتها القملة الفرنسية !

كانت انفاس الملازم اول تنطلق ساخنة وتحسس ليـــون كوتيوريه الحرارة فى وجهه . تململت المرأة الجالسة فى احضان الفرنسى .

– لماذا تهز ساقك هكذا يا حبيبى ! . . هل تحس بالبرد ؟ !

فأجاب الفرنسى غاضبا :

– كلا ! . . انتى وطأتى ساقى . . . قومى ارجوك !

تطلع سوبوليفسكى الى المرأة ، واهتز بكل كيانه ، ثم اطاح بحركة من يديه القنانى من على المائدة . ورنت الشظايا على الارض .

قالت المرأة :

– لقد سكر ابن الكلب ! . .

نظر الملازم اول الى الشظايا مدركا ما فعل . ومال باتجاه الفرنسى مرة اخرى .

– اعذرنى يا «ليونتشيك» . . «ليوشكا» ! أنت رجل طيب ، اما أنا فوغد وجلاد ! هيا يا اخى لنذهب الى مكان عملى لمدة نصف ساعة . وسأريك آخر انهيار الحضيض . . . هل تعرف دوستويفسكى ؟ . . لا ! حسنا ، لا ضرورة لذلك ! . . فسترى وتروى فى فرنسا . . . ارو لهم ، لأولاد الكلاب ، ما يعانيه الضباط الروس المخلصون لواجب الشرف والتحالف الاخوى .

– حسنا . . ايها السيد الملازم ! لكن اهدأ ! . . ان اعصابك ليست على ما يرام . . . سأروى كل شىء . . . وعندنا فى فرنسا يقدرون بطولتكم سامى التقدير .

– نعم . . . يقدرون ؟ . . . فيبعثون الشوكولاته العفنة والبزات القديمة المنتزعة من الاموات ؟ انهم انذال جميعا ! وانت وحدك شاب طيب يا «ليوشا» ! لنذهب !

– ربما لا يستحق الامر ذلك ايها السيد الملازم ! انت تعب ، ومنهك . انك بحاجة الى راحة حقا .

– هكذا اذن ، جبنت مرة أخرى ؟ . . لا تخف ! فلن اعذب آحد ! لقد كنت أمزح . لنذهب ، يا «ليونتشيك» ! . . ان حالتى صعبة ! . . ضابط روسى كان ينظم الشعر فاصبح جلادا الآن . وسأقدم لك شرابا . انها الخمرة البينيديكتية الفاخرة !

– حسنا ! . . لكن يجب دفع الحساب .

– لا تقلق !

ودق سوبوليفسكى الجرس

– ابعثوا الحساب الى قسم المخابرات غدا . شارع سكوبليفسكايا ، ١٧ . اذهب ، ولا ترنى وجهك !

اقترب سوبوليفسكى من الكنبة ، وقال :

– وانتم . . . يا اهل الكيف ! كفاكم فسقا هنا . هيا !

– انت اذهب ، اما نحن فسنبقى .

– ومن سيدفع ؟

– لدينا نقود !

ودع ليون كوتيوريه الضابطين . وتوجه سوبوليفسكى الى التليفون فى الردهة .

– ابعثوا سيارة حالا ! . . الى «الاوليمب» ! . . اننى فى الانتظار !

وخرجا الى المدخل . وجلس الملازم أول على السلم ، بينما اتكأ ليون كوتيوريه على الحاجز .

تطلع سوبوليفسكى فترة طويلة الى انوار الشارع ، ثم التفت وقال بصوت مخنوق :

– ليون ! كنت فى زمن ما صبيا صغيرا وكنت اذهب الى الكنيسة مع أمى . . .

لم يجب ليون كوتيوريه . برزت من وراء الناصية سيارة طويلة ذات لون اسود رهيب ، وانطلقت نحو المدخل . فقام الملازم واجلس الفرنسى فيها .

عوت السيارة ثم انسابت بهدوء فى الشوارع الخالية . وتوقفت فجأة بشكل حاد عند بيت مؤلف من طابقين ، يقوم فى زقاق . وصاح حارس من الشرفة . فصرخ به سوبوليفسكى قائلا :

– قف ! . . هل أصابك العمى ، يا شيطان ! – ثم دعا ليون بايماءة منه . سارا الى المدخل ، وصعدا الى الطابق الثانى . وطرق سوبوليفسكى بابا فى ممر الى اليسار . وفتح الباب . ونهض من وراء منضدة تقوم فى نهاية الغرفة الضعيفة النور رجل ، ربعة عريض الكتفين ، على بزته شارات عقيد .

– سوبوليفسكى . . . هذا انت ؟ ما هذا الهراء ؟

وتوقف عن الكلام عندما شاهد رجلا غريبا معه .

خطا سوبوليفسكى خطوة الى الوراء وقال :

– أيها السيد العقيد ! اسمحوا لى أن اقدم لكم صديقى . . . الرفيق اورلوف .

«آسف ، آسف جدا»

– انت دائما بأساليبك الخرقاء . . . يابانى آخر ظهر الى الوجود . . . جيوجيتسو ! لقد قتلته .

– هل كنت اعتقد انه سيقفز كالكنمر ؟ هو نفسه قفز الى قبضتى . يا لها من ضربة فظيعة تحت اسفل البطن !

– اسكب عليه الماء ! اعتقد انه بدرت منه حركة .

فتح اورلوف عينيه ببطء وبصعوبة . وشعر بالم ، يحرقه ، ويخزه مثل اسياخ الحياكة فى اسفل البطن ، عند كل زفير . وأخذ يئن .

– ثاب الى رشده ! لا بأس ، سيعود الى صوابه !

– لنرقده على الكنبة ! أما أنت فابعث الى هنا مفرزة حراسة معززة .

وحملا اورلوف . وفقد وعيه مجددا بسبب الالم ، ولم يعد الى رشده الا عندما وضعاه على الكنبة . وكان هناك مصباح ينير فوق رأسه ، فى دورق من الزجاج ، ويعشى نوره البصر .

انقلب على جنبه ، فراى غرفة ، وطاولة . انه حاول تذكر ما جرى له .

وفتح الباب . ودخل سوبوليفسكى مرحا .

– أيها السيد العقيد ! اسمحوا لى بأن اتقاضى منك عشرة آلاف . فقد خسرت الرهان . اذ أمسكت انا أول طريدة كبيرة .

– اذهب الى الشيطان !

– وافقنى انك خسرت .

– حسنا خسرت ! فالحمقى سعداء الحظ .

– هذا مثل بال ، قد عفا عليه الدهر ، يا سيدى العقيد ! وبشكل عام انت لا تنفع لأعمال المخابرات . ولو كان الامر بيدى لما ابقيتك فى منصبك . ان اساليبك بالية ! كلاسيكية زائفة ! انت لا تعرف علم النفس البتة !

– كفى !

– كلا ، المعذرة ! انه شىء يبعث على الألم . فأنا الرجل الموهوب أشغل منصبا لا قيمة له ، بينما أنت – العديم الموهبة اصبحت رئيسا .

– أيها الملازم اول !

– اعرف اننى ملازم ولست نقيبا ! أما أنت فمن الافضل لو جعلوا رتبتك مثل ملازم ثان . وقد تباهيت . اذ قبضت على متشرد لا قيمة له واخذت تردد . . . «القيت القبض على اورلوف» . يا لك من غراب اعمى .

– لقد جننت . . . انت نفسك ابتهجت لذلك . . .

– ابتهجت بحماقتك . . . اذ صرت أفكر انه حان الاوان لتنحية روزنباخ العجوز ، والحصول على ترقية لنفسى .

كان صوت سوبوليفسكى ينم عن وقاحة . بينما لزم العقيد الصمت .

وقال ملاطفا :

– لكن دعنا لا نتشاجر . حدثنى بشكل واضح ، كيف تسنى لك ذلك . . .

– كيف قبضت عليه ؟ . . أتريد أن تتعلم ؟ . . الحق ان ذلك جرى صدفة . فى البداية لم تكن هناك اية شكوك . . . فرنسى كغيره من الفرنسيين . وكان يمثل دوره باتقان ! وصرت اتحدث معه بصورة ودية ، وحتى ثرثرت معه حول نظريتى عن الزنوج ! ثم جاءت بعد ذلك لحظة خدمتنى ! اذ كشفته امرأة ، عندما عجز عن الامساك بزمام نفسه لمدة ثانية من الزمن . وجاءت بخاطرى فكرة ، ماذا لو ؟ . . اننا أخطأنا ولم نمسك بالشخص المطلوب حقا ؟ وانفعلت للغاية لدرجة اننى اضطررت لتحطيم القنانى ، بهدف تضليله وصرف انتباهه ، رغم أننى لم اكن متأكدا ، وقررت أن أستدرجه الى مقرنا بصورة ودية ، ولاجراء الاستجواب هنا . . . ولم يصمد أمام الاختبار مرة أخرى . فلو لم يفكر فى الهرب ، لأنهى الامر بنكتة !

صك اورلوف على أسنانه وقال :

– نذل !

– آه يا مسيو ليون ! لقد استيقظت ؟ كيف نمت ؟

لم يجب اورلوف .

– مفهوم ! فانك تتعامل بالفرنسية اكثر . باريسى اصيل ؟ وامك أيضا فرنسية ؟ او تذكر الشاعر فيرلين ؟ انه شاعر مجيد ؟ كنت اقلده عندما بدات بنظم الشعر . وساقرأ لك اشعارى حتما . . . انك تقدرها حق قدرها . . . يا ابن الكلب !

اغلق اورلوف عينيه . ومر براسه بسرعة مذهلة شريط ما برتغالى اللون ، ومبقع بالاخضر ، وكان يتحرك باصرار ملتفا من بكرة الى أخرى . واهتز جسده ، ثم انتفض على الكنبة .

صرخ العقيد رافعا غدارته :

– ارجو الجلوس بهدوء ، يا مسيو اورلوف . والا فسنضطر لتقييد حريتك فى الحركة .

لم يسمع اورلوف ذلك الكلام . كان يتطلع امامه ببلادة ودون تفكير . وتذكر سيمينوخين ! . . والحديث بينهما «لقد اعطيته كلمة شرف ! وقد يظن اننى ! . .» . ضغط على صدغيه باصابعه ، وهز راسه .

– ماذا ، يا سيد اورلوف ؟ هل حقا لا يعجبك البقاء عندنا ؟ لا افهم ! دف، ونظافة واناقة ومعاملة شبه طيبة ، رغم اننى يجب ان اعتذر اليك عن عدم لباقة الملازم اول ، لكنك ابديت مقدرة فائقة فى أداء حركات «البيرويت» * ، مما وجب ايقافك بأية وسيلة خطرت براسه .

ابعد اورلوف يديه من راسه . وصرخ بوجه العقيد :

– انت مخلوق دنيء ! . . ولا اعتزم الحديث معك .

هز العقيد كتفيه .

– شكرا على هذا المديح ! لكنك تكون مضطرا مع هذا للحديث معى . حتى خلافا لرغبتك . فان «ديرنا» عاداته !

– هل ستغرز الابر تحت الاظافر يا نذل ؟

– لست انا ، لست انا ! اننى لا اجيد ذلك البتة . ويداى ترتجفان . لكن الملازم اول حاذق فى هذه العملية . يغرز الابرة كلها مرة واحدة ، حتى انها لا تنكسر . والرفاق انفسهم معجبون بذلك ! وانت ماذا تفضل يا سيد اورلوف ؟ الابرة الباردة ام المحماة ؟ الكثيرون يحبون المحماة . يقولون انها تؤلم فى

---

* حركة فى رقص الباليه (المترجم) .

البداية ، لكن لا تشعر بالألم بعد ذلك بصورة أسرع .

صمت اورلوف . وكان الملازم اول سوبوليفسكى يذرع الغرفة جيئة وذهابا .

– اذن يا مسيو ليون ؟ الى الماكينة ؟ نعم ، الى الماكينة !

واقترب من اورلوف بسرعة ، ووجه الى ناظريه عينين ملتهبتين كعينى الذئب وقال :

– نفرمك كالعصيدة ، ونكبسك ثم نرسلك للاستعمال كسماد ! ولن يقول الغرب المتمدن شيئا . وتنمو السنابل ، وتقدم لى على مائدة الطعام ككعكة . كعكة طازجة ، دافئة ، ممتلئة ، لذيذة ! لماذا؟ لانها لا تنمو بفعل سوبرفوسفات المانية ما ، بل بفعل الدم الحى !

ولوى الملازم اول جسده ، وصدر عنه فحيح كفحيح الافاعى ، وشديد يصم الآذان .

استقام اورلوف فى جلسته ، وبصق عليه بحنق .

فابتعد سوبوليفسكى بقفزة ، وصدرت عنه شتائم ، ورفع يده ، لكن العقيد منعه من توجيه الضربة .

– كفاك ! اترك ذلك ! ان لديك أيها الملازم اول قبضة قوية كفيلة بقتل السيد اورلوف . وهذا ليس فى صالحنا البتة . ان اكثر الامور طرافة تنتظرنا فى المستقبل .

قال الملازم اول وهو ينتزع نفسه من بين يدى العقيد :

– أيها الكلب ! سأذهب لاغتسل .

– آه ، نعم ! أمر باطلاق سراح ذلك الابله يميلتشوك ، من التعاونية ، عبثا ضربناه .

قال اورلوف :

– اوه ، عندكم حتى يتم اطلاق سراح الافراد ؟ يا له من تقدم !

– ارجو ان لا تقلق نفسك . فنحن لن نطلق سراحك .

بحث اورلوف فى جيوبه ، فلم يعثر على سجاير .

– اعطنى سيجارة !

– تفضل ، أرجوك !

وقدم له العقيد علبة السجاير . فاخذها اورلوف وافرغ منها جميع ما فيها من سجاير براحة يده .

– آه ، يا لك من شاب غير طيب ! فلم تترك لى شيئا ؟
– ستسرق غيرها . بينما يجب أن أدخن !
– انك تعجبنى للغاية ! اننى احب الرجال رابطى الجاش !
– صه ، كفى ثرثرة !
– آه ، يا لها من عبارة غير باريسية ! انك تحط من قدر نفسك ! عليك أن تعترف بأننى نظمت مخابراتى بصورة جيدة . وهى ليست اسوأ من اللجنة الاستثنائية عندكم .

نظر اورلوف الى عينى العقيد المقطبتين بلطف . واتكأ على ظهر الكنبة وقال ماطا الكلمات ما بين اسنانه :

– يؤسفنى ان أجد نفسى مضطرا لموافقة الملازم أول سوبوليفسكى من انك ابله عجوز ، قد ابقى فى الخدمة شفقة عليه .

احمر وجه العقيد حتى ارنبة الانف بلون عصير ثمار التوت البرى .

– هكذا ! . . اراك تغلظ فى القول ، يا دنىء ! كفى ! سأريك ! سأبلغ القائد بالامر ، وبعدها سيبدأ العمل معك .

تناول سماعة التليفون . وعاد سوبوليفسكى الى الغرفة .

– هالو ! مقر القائد ! هنا قائد قسم المخابرات ! حسنا !

وقال مخاطبا سوبوليفسكى ، بينما كان ينتظر الجواب من مقر القائد :

– الحرس حاضر ؟
– حاضر ، يا سيدى العقيد !
– نعم . صاحب السعادة ؟ ابلغكم بالقاء القبض على اورلوف . نعم . اليوم . كلا . . . كان ذلك خطأ فعلا . . . تشابه عجيب . . . بالضبط . قبض عليه الملازم أول سوبوليفسكى . . . حسنا . . . نعم . . . نعم . لماذا يا صاحب السعادة . . . اننا نحن ؟ . . سمعا وطاعة ! سينفذ الأمر يا صاحب السعادة ! مع السلامة يا صاحب السعادة !

والقى السماعة حانقا .

– يا للشيطان !

فساله سوبوليفسكى : – ما الامر ؟

– سيأخذونه منا .

– الى اين ؟
– الى النقيب تومانوفيتش ، فى اللجنة الخاصة .
– لماذا ؟ هذا دناءة !
– شىء معروف ! ان تومانوفيتش يريد ان يصبح من العظماء الكبار . يا للانذال . . .

وصار العقيد ينظف منخاريه لمدة طويلة وبصوت عال .

– يا للاسف ، يا للاسف ، يا سيد اورلوف ! انك سعيد الحظ . سنضطر لارسالك الى النقيب تومانوفيتش . يا للاسف الشديد ! ان النقيب اوروبى الطراز جدا ، ويلتزم كثيرا بالاصول القانونية . ولن يفعل لك شيئا سوى ارسالك الى الاعدام دون أن يحصل منك على كلمة واحدة . اما نحن فكنا سننتزع منك كل شىء . . . بهدوء وبساطة وود . ولكننا امتصصنا كل شىء . . . قطرة قطرة . لكن ما الحيلة . علينا ان ننفذ ما تؤمن به . وستبقى فى ضيافتنا حتى الصباح ، لان نقلك ليلا امر محفوف بالخطر . انت رجل جرىء للغاية ، ولا يحز فى نفسى سوى اننى لن احاسبك على الابله العجوز . . . ايها الملازم اول خذ السيد اورلوف .

انشودة ليزا

جاءت مدام مارجو الى الغداء منفعلة بعض الشىء .

– آنا اندرييفنا ، أتدرين ، اننى لا افهم لم لا يرجع ليون حتى الآن ؟

– لا بأس ، يا مارجو ! لا تقلقى ! ربما اعاقته بعض الاعمال او عرج على بعض معارفه .

– لا اظن ذلك . ثم انه يعلمنى مسبقا دائما ، اذا ما اعتقد انه سيتأخر .

ومسد الدكتور سوكوفنين لحيته فوق طبق الحساء ، وقال :

– اوه ، يا صغيرتى ! انت تعملين ضجة من أجل مسألة تافهة ! كلام فارغ ! اعصاب ! ان زوجك ليون زوج مثالى للغاية ، وقد أحاطك بالدلال . يجب ان يعطى الرجل بعض الحرية احيانا . فانا مثلا عندما تزوجت آنا ، لم تكن تتركنى اخطو خطوة

بدونها . ويكفى ان اتاخر لمدة نصف ساعة حتى تعم البيت الدموع والمصيبة . ومهنة الطب تتطلب التزام الدقة فى المواعيد . وقررت مرة ان اداعبها بنكتة .

فخرجت من البيت صباحا، وقلت «سأذهب لشراء جريدة» . خرجت واختفيت . ولم ارجع الا بعد ثلاثة أيام . فوجدت فيه المصيبة قائمة ، وساد البيت هرج ومرج ، وقامت الشرطة كلها بحثا عنى ، ومشط قاع النهر كله ، وجرى البحث عنى فى كل قسم من اقسام التشريح . بينما كنت اصطاد السمك عند صديقى وهو صاحب عزبة يقيم فى مكان يبعد خمسة عشر فرسخا عن المدينة . ومنذ ذلك الحين انتهى كل ذلك . وصار من الممكن ان اغيب اكثر من يوم دون اثارة القلق . وهذا ما تحتاجين اليه .

وضحكت آنا اندرييفنا ، وقالت :

– كنت جميل المنظر عندما رجعت . بأنف احمر ، وكانت تفوح منك رائحة الفودكا . عندها تطلعت اليك وقلت لنفسى : «امن اجل هذا الكنز سوف افسد صحتى ؟ دعه يضيع تماما فلن احرك ساكنة» .

لكن جهود اصحاب البيت فى ادخال السرور الى قلب مارجو قد باءت بالفشل . وظلت الممثلة قلقة وكئيبة .

– اذا كنت يا صغيرتى قلقة لهذا الحد فسأذهب الى الشرطة . عندى صديق قديم هناك . وهو يحصل منى على الكحول فى كافة العهود مقابل بعض الخدمات البسيطة .

فارتعشت مارجو لسماع ذلك ، وعادت الى نفسها .

– آه ، كلا ، يا دكتور . كل شىء ولا الشرطة . اننى أكره الشرطة الروسية . انهم مبتزون . ويزيدون الامر تعقيدا ! لا ضرورة لذلك ! واذا لم يعد فى الصباح فسنتخذ الاجراءات اللازمة . والآن يجب ان نمرح . اتريدون ان اغنى لكم ؟

– ادخلى البهجة الى نفوسنا ، يا حبيبة ! اننى أحب كثيرا عندما يغرد صوتك العذب .

جلست مرجريتا الى آلة البيانو .

– ماذا أغنى ؟ مر يا دكتور !

– حسنا ، ما دمت طيبة هكذا اليوم ، فغنى المقطع الذى

تنشده ليزا عند قناة كانافكا . اننى مغرم به . وكنت منذ ايام حياتى كطالب اصفق بحماسة لهذا اللحن .

وفتحت مارجو النوتات . وانسابت الالحان كامواج من البلور من آلة البيانو .

غاص الدكتور فى كرسيه . أما آنا اندرييفنا فصارت تغسل الاقداح بهدوء .

فى اناء الليل والنهار
اعذب نفسى
بالتفكير فيه وحده . . .

واضطرب الصوت الرقراق ، وارتعش :

جاءت سحابة ،
حاملة الرعد ،
فحطمت السعادة ، والآمال . . .

وفجأة توقفت الامواج المنسابة عن الاسترسال . واغلقت مارجو غطاء آلة البيانو ، وطقطقت باصابعها .

فقفز الدكتور من مقعده وقال :

– عزيزتى مارجو ! . . ماذا جرى لك ؟ هدئى من روعك . آنا ، هاتى قطرات الفاليريانا * .

لكن مارجو عادت الى نفسها .

ونهضت شاحبة الوجه ، وقد زمت شفتيها .

– كلا ! كلا ! لا حاجة لشىء ، شكرا ! اشعر بثقل شديد . يا له من زمان فظيع . لقد اخذت اتصور انواع المصائب . المعذرة ، سأذهب لارقد .

وصاحبها الدكتور الى غرفتها . ثم عاد الى غرفة الطعام .

قال وهو يجيب على نظرة متسائلة من زوجته :

– شباب تنقصه التجربة . شىء مؤثر ان يرى الانسان مثل هذا الحب ! ايه . . . ايه . . . ايه !

تناول الجريدة ، وفتح صفحته المحبوبة – الاخبار والحوادث المحلية . ضيق عينيه .

---

* عقار مهدئ يستحضر من حشيش الهر (المترجم) .

– اتعرفين ، لقد القى القبض على اورلوف يا آنا .
– اى اورلوف ؟
– رجل اللجنة الاستثنائية العتيد !
– ماذا تقول ؟
– تصورى ! لقد القوا القبض عليه امس فى المحطة – لاحمل الجريدة الى مارجو . ولتتسلى قليلا .
سار الدكتور برفق منتعلا خفيه الوبرين ، واقترب من الباب ثم دقه .
– خذى ، يا صغيرتى ، الجريدة . تسلى بها قليلا بأخبار الحوادث اليومية .
تلقفت الجريدة يد الممثلة الممدودة من وراء الباب .
وانصرف الدكتور لحاله . واقتربت بيلا من الطاولة ، ورمت الجريدة باهمال . فانقلبت الصفحة المتسخة وبرز عنوان وسط السطور :

«القاء القبض على اورلوف»

لم تنم عن بيلا اية حركة . غير ان يديها تمسكتا بالطاولة . وزحفت الحروف امام ناظريها كالديدان . ثم جلست مغلقة العينين .
وفجاة هبت من مكانها ، وامسكت الجريدة . «كيف امس ؟ امس . الرابع عشر من الشهر . . . امس ؟ لكن اورلوف كان فى البيت يوم امس وهذا الصباح كان فى البيت أيضا . . . ما هذا الهراء ! . . لكنه اختفى ! يجب عدم الابطاء . يجب الذهاب الى سيمينوخين حالا» .
شدت اصابعها ازرار المعطف الكث الفرو . وصعب عليها ارتداء القبعة العريضة الحديثة الزى : فقد كانت تتدلى جانبا طيلة الوقت .
وجرت بيلا نحو مدخل البيت ، فالتقت بالدكتور . وقال هذا :
– الى اين يا مارجو ؟
– آه ، لا استطيع الجلوس فى البيت – قالت ذلك بصوت

يشبه الانين تقريبا – انا واثقة من ان ليون موجود عند احد المعارف . سأذهب الى هناك ! وحتى اذا لم اجده ، فان حالتى ستكون أفضل بالاختلاط مع الناس .
– حسنا ، حسنا ! هذا ما نتمناه ! لكن لا تضطربى هكذا ، لن يحدث له شىء . ولن يقتلوه او يعتقلوه ، مثل اورلوف .
ووجدت بيلا القوة لكى تجيبه ضاحكة :
– يا الهى ، اية مقارنة ! ان ليون ليس بلشفيا .
وفى الشارع ركبت عربة اجرة . وكان سائق العربة يسير ببطء لا يحتمل . وحاول طيلة الوقت مبادلتها اطراف الحديث . قال :
– هذا ما اراه ، يا سيدتى ، بشأن انظمة السلطة . ان كل سلطة هى لؤم خالص ، بالتاكيد . لانه ، مثلا يستحيل تنصيب جميع الناس كوزراء . لهذا السبب فسيكون هناك دوما عدم الرضى ، وبالتالى سيحارب اى نظام . . .
فصرخت به بيلا :
– لتمضِ بدون احاديث !

النقيب تومانوفيتش

كان الناس يتطلعون فى ذلك الصباح بعجب الى عشرة جنود شاهرى السلاح ، وهم يسوقون امامهم على رصيف الشارع رجلا حسن الملبس ، يسير بهدوء وباعتزاز . وكانوا يطردون المارة الذين يقابلونهم بفظاظة .
وكان الرجل المعتقل غير عادى بالنسبة للبيض . اذ اعتاد الناس بثبات على أن يقود البلاشفة الى اللجنة الاستثنائية الرجال المحترمين ، بينما يقود جنود جيش المتطوعين العمال الملوثين والمعفرين بالسخام او الفتيان المجعدى الشعر او الفتيات المقصوصات الشعر .
لذلك حاول الكسالى العاطلون ان يسألوا الجنود عن هذا المجرم الغامض . لكن الجنود كانوا يهزون الحراب صامتين او يطلقون الشتائم البذيئة بفظاظة .
دخل الموكب الى زقاق . وتطلع اورلوف ، بعد ان نام جيدا

وعاد الى رشده ، الى البيت بنظرة ثاقبة . واقتيد الى المدخل واجبر على صعود السلالم وجرى تسليمه فى غرفة صغيرة ، انتزع ورق جدرانها ، الى ملازم حسن المظهر اسود العينين . بعد أن أعطاهم ورقة تسليم .

اجلس اورلوف على دكة ، ووقف الى جانبه حارسان . يبدو ان الملازم كان حديث العهد بالخدمة ، اذ نظر اليه بانفعال واسف .

وقال بلهجة حزينة تقريبا :

– كيف امكنك ان تقع فى الفخ هكذا ؟

نظر اورلوف اليه ، وأثر فيه هذا التعاطف الصبيانى .

– لا بأس ! قد يحدث ذلك ! لكننى لن ابقى هنا وقتا طويلا !

وعجب الملازم لهذا القول . وقال بنفس لهجة التفاخر الصبيانى :

– ماذا ، أتريد الهرب ؟ كلا ، عندنا يصعب الهرب . فالأمور هنا محكمة التدبير ! ما كان لك أن تعرض نفسك للاعتقال ! سأبلغ النقيب تومانوفيتش بشأنك !

تطلع اورلوف حواليه . كان هناك فى الغرفة منضدة للكتابة ودولابان محطمان وعدة كراسى والدكة التى يجلس عليها . وكانت النافذة تطل على جدار حجرى ضخم وأراد النهوض والنظر الى هناك ، لكن الحارس لكزه فى كتفه ، وقال :

– هس ! اجلس بهدوء يا وغد !

عض اورلوف شفته ، وجلس . بعد بضع دقائق عاد الملازم .

– خذوه الى مكتب النقيب تومانوفيتش !

قاده الجنديان فى رواق طويل يغطيه التراب . وصار اورلوف يعد باهتمام عدد الابواب والمنعطفات . وأخيرا فتح الحارس أمامه بابا علقت عليه لوحة كتبت عليها بحبر أحمر حروف معوجة خطت على عجل :

«النقيب تومانوفيتش
محقق فى القضايا الهامة جدا»

كان النقيب تومانوفيتش يذرع الغرفة فى خطوات وئيدة موزونة من زاوية لاخرى ، وتوقف فى منتصف الطريق عندما رأى القادمين .

اقترب من المنضدة ، وجلس واضعا امامه ورقة ، وعندئذ قال للحارسين :

– اخرجا ، وقفا وراء الباب .

ثم خاطب اورلوف قائلا :

– هل انت اورلوف الرئيس السابق للجنة الاستثنائية فى المحافظة ؟

قرب اورلوف الكرسى بصمت ، وجلس . فارتعش حاجب النقيب .

– اعتقد اننى لم اطلب منك الجلوس .

فقال اورلوف بصوت حاد :

– اننى أبصق على طلبك ! انا تعبان .

ووضع مرفقيه على المنضدة ، وصار يتطلع الى النقيب وجها لوجه .

كان وجه تومانوفيتش طويلا ونحيفا ، وجبهته عالية صفراء شفافة وعيناه زرقاوان باردتان وثاقبتان النظرة . وغالبا ما كان حاجبه الايسر يرتعش بحركة عصبية وكريهة .

قال ببرود :

– كنت أستطيع ارغامك على احترام طلباتى : على كل حال لا قيمة لذلك . ارجوك ان تجيبنى : هل انت اورلوف ؟

– حرصا على تجنب الكلام الزائد ارى من الضرورى اعلامك باننى لن أجيب على أى من أسئلتك ! وعبثا تجهد نفسك !

كتب تومانوفيتش بضعة سطور بسرعة فى محضر الاستجواب ، ووجه بلا مبالاة عينيه الزرقاوين الجليديتين الى اورلوف .

– لقد توقعت ذلك ! على أى حال اننى لا آمل فى استجوابك بالمفهوم الشائع للاستجواب . ولكان من الحمق توقع الكلام منك . لكن هذه الشكليات الضرورية . فنحن نعمل وفق القواعد الاصولية بدقة .

ولزم الصمت كما لو كان يتوقع بادرة اعتراض . وتذكر

اورلوف كلمات العقيد ، وابتسم بشكل ما يكاد يلحظ . واحمر وجه النقيب قليلا .

– ان الشيء الوحيد الذى تأمل فيه السلطة القضائية ، التى امثلها فى هذا الحال ، هو تقديم بعض المساعدة .

فقد اعتقلنا ، فيما عداك بضعة أفراد ممن كانوا يعملون فى اللجنة الاستثنائية بالمحافظة . وقد اعتقل بعضهم فى قطار كان يغادر المدينة فى صباح يوم الاستيلاء عليها وسيمثلون جميعا امام المحكمة . ولغرض تقصى مواد الاتهام نجد من المفيد أن تطلع عليها ، وآمل ان لا ترفض اعلامنا ما هو حقيقة فيها وما هو اختلاق .

– لا تقلق نفسك ايها النقيب . . . ليس لدى اية رغبة فى الاطلاع على هذه المواد .

– فكر فى الامر يا سيد اورلوف ! ربما تكون هناك اخطاء ، وربما تكون هناك اتهامات صادرة من اعتبارات شخصية . فالوقت تسوده البلبلة . وفى الحقيقة لا تتوفر الامكانية للتاكيد من الصحة . وبالادلاء اين تكمن الحقيقة والباطل ، يمكنك أن تخفف من مصير رجالك الذين تتهددهم اتهامات ملفقة .

فهز اورلوف كتفيه .

– يؤسفنى ايها النقيب ، ان اخيب آمالك بهذا الشكل . لكن هل تعتقد انك ستصطادنى بهذه الحيلة ؟ وأن جميع الاتهامات التى سأنفيها ستعتبر واقعة طبعا . . . كنت اظن انك تفكر بشكل منطقى أكثر !

احمر وجه النقيب مرة اخرى وصار يقلب القلم بأصابعه النحيلة .

– انك لا تريد أن تفهمنى يا سيد اورلوف ! انك لا تزال تعتقد أنك تحت سطوة المخابرات . لكنك لست على حق ! وكان بمستطاعنا اجبارك على الكلام . وتتوفر لهذا الغرض وسائل هى بالطبع خارجة عن اطار القانون ، لكن عصرنا كله يخرج الى حد ما عن نطاق القانون . ولكننى بصفتى حقوقيا ، أفكر بأسلوب حقوقى ، وانا مرتبط بالمفاهيم المتعلقة باخلاقيات الحقوق وادين بشكل قاطع أساليب العقيد روزنباخ .

– بالاخص بعد ان سلمنى العقيد روزنباخ الى يديك ؟ بأية

سفالة يجب أن يتصف المرء لكى يقول مثل هذه العبارة بهدوء !

ضغط تومانوفيتش على القلم بأصابعه بحيث انه أخذ يطقطق .

– حسنا ! معنى ذلك انك لن تقول شيئا ! اذن سانتقل الى سؤال يهمنى شخصيا . حتى الآن تسنى لى التعامل مع صنفين من الناس الذين يحملون نفس افكارك : الاول – هو من العناصر المجرمة الصغيرة الشأن التى ترى مساندة نظامكم أسهل سبيل للاثراء بسهولة ، والثانى – من الذين مارسوا سابقا العمل الجسمانى ، وهم فى غالب الاحيان بسطاء طيبون ، لكن أسكرتهم الى حد فقدان المقدرة على التفكير نشوة الايمان بوعودكم ، فهم مضللون . وكلاهما لا يبعثان على الاهتمام كثيرا . وانت اول نظرى ومنفذ كبير الشأن يمثل نظامكم اتيحت لى فرصة اللقاء به ، ويصعب علىّ أن اتبين ما هو الصنف الذى تنتمون اليه انتم القادة والزعماء ؟

فسأله أورلوف بخشونة وحقد :

– وانا ايضا أود أن أعرف الى اى صنف من نظام حكمكم تنتمى انت يا نقيب : الى كبار المجرمين أم المضللين ؟

– لماذا تحاول ، يا سيد اورلوف ، اهانتى ؟ اذ انك ترى بوضوح ، كما آمل ، الفرق بين معاملتك فى المخابرات وهنا . اننى لن أواصل استجوابك كمحقق . اننى اهتم بك كظاهرة قاعدتها النفسية غامضة بالنسبة لى . فهل لا يمكن ان نتحدث عن ذلك بهدوء لتبيان المسألة ؟

– كنت أظنك أكثر ذكاء ، يا نقيب ! اننى لست لعبة بالنسبة لك ، كما اننى انفع بدرجة اقل كمفسر لحيرتك ، بالاخص فى وضعى هذا . وانت تذهب من هنا الى البيت لتناول الغذاء ، بينما تبعث بى الى الموت امتنانا لمحاضرتى ! ليس لنا ما نتحدث عنه ! ارجو أن تنهى الاستجواب .

قال تومانوفيتش :

– لحظة واحدة . أود أن أعرف – وصدقنى ان ذلك امر هام للغاية – هل تؤمن فعلا بامكانية تحقيق الشعارات التى طرحتموها أو . . . انها مغامرة طائشة ؟

– ستعرف ذلك عاجلا ، ايها السيد النقيب ، بتجربتك

الخاصة . فى نفس هذه المدينة ، بعد مضى شهرين او ثلاثة ، عندما ستطلق النيران عليكم من خلف كل حجر فى الشارع .

وسال النقيب مقطبا حاجبيه :

– معنى ذلك أن منظمتكم هنا تواصل عملها ؟

وضحك اورلوف .

– اتريد أن تأخذنى من الكلمات ؟ نعم ، ايها النقيب ، انها تعمل وستعمل . أتريد أن تعرف مكانها ؟ فى كل مكان ! فى البيوت ، وفى الشوارع ، وفى الهواء ، وفى هذه الجدران ، وفى قماش الجوخ على طاولتك . لا تتطلع اليه برعب ! ان التنظيم خفى لا يرى ! وهذه الاحجار ، والجبر ، وقماش الجوخ . . . مشربة بعرق ودماء من صنعها ، وهى تحقد حقدا مميتا ، نعم ان هذه الاشياء الميتة تكره بصورة حية ومميتة أولئك الذين تخدمهم . وستحطمكم ، وستعود الى أصحابها الحقيقيين ، الى صانعيها ! وسيكون ذلك آخر يوم لكم .

تطلع تومانوفيتش الى اورلوف باهتمام وقال :

– انك تتحدث جيدا ، يا سيد اورلوف ! يبدو انك تجيد تهييج الجماهير . ان كلمتك بليغة وجميلة . كلا . . . كلا ، اننى لا أضحك ! انك انسان شديد الايمان بأفكاره . اننى احس بوجود نار حقة وقوة روحية هائلة فيك . ومن وجهة نظر معتقداتى فانك تستحق الاعدام . واظن انك كنت ستقول نفس الشىء لى لو وقعت بين يديك . العين بالعين والسن بالسن ! وسأبذل جهدى ، احتراما لمكانتك الشخصية ، لكى يكون موتك سهلا ولن تصاحبه تلك الآلام التى يضطر لمعاناتها عندنا ، للاسف ، اولئك الاشخاص الذين يرفضون الادلاء بافاداتهم . وكنت استطيع ان ابعث بك فورا ، بعد ما قلته من كلام ، الى «حديقة التعذيب» لدى العقيد روزنباخ . لكنك اورلوف ، وها هو امامى مقطع من بلاغات عملائنا : «اورلوف دميترى . عضو الحزب منذ عام ١٩٠٦ . متعصب ، يتصف بجلد كبير ، وجرىء الى حد الجسارة . داعية خطير للغاية . نزيه الى اقصى حد» . أرايت مدى كمالها ؟

ودعا النقيب الحارسين .

– الى اللقاء ، يا سيد اورلوف !

– الى اللقاء يا نقيب ! آمل ان لا نلتقى فترة طويلة .

صفحتان

كتبت بالقلم الرصاص على ورق مفكرة ذى مربعات :

«ما اكثر الجرذان هنا ! . . بذيول عارية ، منسلة الشعر ، تبدو عظيمة الشأن ومتكبرة للغاية .

«واحيانا تجتمع فى حلقات ، مؤلفة من عشرة جرذان ، وتقف على أرجلها الخلفية بكبرياء وتأخذ فى الصاصاة . . .

«عند ذاك . . . (بضع كلمات غير واضحة) يبدو الامر وكأنه اجتماع هام لكبار الموظفين ، لهيئة مجلس الدولة للجرذان .

«اكتب على ضوء عيدان الكبريت . . . فليس هناك اى نور . . .

«. . . اغلب الظن ان هذه الوريقات ستستعمل فى التواليت ولن تخرج من السجن . . . على اى حال . . .

«كونستنتين . . . أتذكر حديث اليوم . . . (غير واضح) .

«. . . لقد اقتنعت بأن للقوة ، حتى قوتى ، حدودا ما . . . ما نفع الاعصاب ؟ . . ان الملازم اول سوبوليفسكى الذى القى القبض علىّ يقول : «ان الاطباء سيستأصلون ذلك الجزء من المخ الذى تكمن فيه روح الاحتجاج والثورة» .

«يجب استئصال الاعصاب التى . . . (غير واضح) تعب وضعف الارادة . كنت أقول انه بعد الهزة الخارجية التى احدثها اعتقال شخص خطأ ، فقدت التحكم بارادتى .

«يمكن السيطرة دوما على سحنة الوجه ، لكن يمكن ان يخون الجسد . . .

«أعرف ما تفكر فيه . . . لم التزم بالكلمة ، لم أف بالوعد ، وسلمت نفسى طواعية . . .

«هراء . . كلا وكلا . لقد نسيت على الفور الهيجان الاحمق . وقبض علىّ صدفة . . . بشكل سخيف . . .

«. . . (غير واضح) الايس كريم ، فسمعت احد الضباط يتحدث عن كيفية اعتقال شبيهى . . . ووجب ان اعرف حتى النهاية . . . وامكانية تدبير أمر هروبه . أردت ان أعرف مكان اعتقال هذا الابله . . .

«. . . (غير واضح) لم يعرفا . «وهو سيساعدك . . .» .

«أتدرى ماذا عرفت ؟ . . هل تذكر سيفاستوبول ، والانسحاب . . . هل تذكر الضابط الذى قتل اوليج امام ناظرينا فى الشارع ؟ . . نعم . . . كان يدعى كورنيف آنذاك . . . لديهم فى المخابرات اسماء مستعارة ايضا .

«. . . لم أتمالك اعصابى . . . كنت اجلس قبالته وافكر : «لقد وجدته ولن أتركه يفلت منى «. . . انجذبت مثل البعوضة نحو النار . كنت أستطيع الافلات لو كانت الحالة عادية . . . اما هنا فلم استطع . . . ربما تسممت بفكرة انه بين يدى . وعندما دعانى ، وهو ثمل ، للذهاب معه الى قسم المخابرات . . . فذهبت . . . الآن أتذكر : لقد لاحظ انفعالى ، فأسقط القنانى من على المائدة . فى ذلك الوقت لم الحظ الامر . . . فقد ضعف ادراكى وارادتى . . .

«. . . وفكرت ما دام ثملا حقا ، فلانتزع منه كل شىء . . . وحتى فكرت فى لحظته الاخيرة .

«. . . (غير واضح) ان الحياة الجرباء لرجل مخابرات حقير لا قيمة لها ، ولن تغير شيئا . . . وهذا كله نتيجة الاعصاب . . . لقد قبضوا علىّ كالفرخ الصغير .

«. . . لن أستسلم لقاء ثمن بخس . . . ولم اخسر كل شىء بعد . وهرب الآخرون من أوضاع أسوأ من هذه . اننى شبه واثق من اننا سنلتقى قريبا واكتب هذه السطور . . . تحسبا للطوارئ .

«مع هذا تذكر اسم سوبوليفسكى . . . اعمل فى اللحظات الاخيرة على أن لا يفلت . . . أتذكر راس اوليج على ناصية الشارع ، والدم ، والرشاش المتطاير ذى اللون الرمادى والوردى ؟ . . هكذا !

«ممثل رائع . . . خدعنى . . . حقا كانت اعصابى ، لكن هذا ليس بمبرر .

«. . . . (غير واضح) «ب» . . . انها فتاة طيبة ، لكنها ذات عواطف فوارة ، ولن تصبح حزبية حقيقية . . . اذا ما ألقى القبض عليها فأبذل كل جهدك . . . (غير واضح) للمساعدة . . .

«. . . (غير واضح) غدا . . (غير واضح) . . . للعمل من

أجل تنظيف السجن . . . فهنا القذارة الفظيعة (قرئت بصعوبة) .

«انتهت عيدان الكبريت . . . ظلام دامس ، ولا أرى شيئا . . .» .

التخلى

غادرت بيلا العربة عند زاوية الشارع . ومشت بخطوات سريعة فى الشارع الجانبى المقفر .

وقد كانت الرياح تحاول ان تخطف قبعتها ، وتسللت الى ما تحت معطفها مثل تيارات ماء شديد البرودة .

وانحنى أحد المارة ليتطلع الى الوجه الذى تغطيه القبعة . وقال بصوت عال :

— فرخة جميلة ! — وسار فى أعقابها .

توقفت بيلا . واقترب الرجل الذى يلاحقها ، ورأى عينيها المفعمتين كآبة واحتقارا .

— اطالبك بأن تتركنى وشأنى ! . .

فارتبك الرجل .

— عفوا يا سيدتى ! لم أكن أعرف ! . .

ورفع قبعته ثم ابتعد . واندفعت بيلا مرتعشة نحو باب السور وجرت عبر الحديقة .

فتح سيمنوخين الباب اذ سمع الدقات المتفق عليها . وبيده شمعة . وباليد الأخرى كان يحمل مسدسا وراء ظهره (وكان ذلك واضحا) . واتسعت حدقتا عينيه لمرآها ، وومض فيهما لهيب الشمعة المرتجف .

— بيلا ؟ . . . ما . . . مالك . . . قضية ؟ . . . هـ . . . هـ . . . ل حدث شىء هـ . . . ما ؟

— اورلوف ! . .

. . . . سـ . . . س ! اذهبى الى الغ . . . غرفة بسرعة ! . . . حسنا ، هـ . . . ما القضية ؟

وقبض سيمينوخين على يديها . فصاحت بيلا .

— أوى ! . . لقد آلمتنى !

وثاب الى رشده ، وأطلق يديها .

فسأل بصوت مخنوق وعنيف :

– اين وم . . متى ؟

– لا اعرف شيئا . . . هناك أمر غير مفهـــوم . . . هاك الجريدة . كتب فيها إنه اعتقل امس ، بينما كان صباح اليوم فى البيت . . . لا افهم شيئا . . . لكنه قال بانه سيعود الى البيت فى الساعة السابعة مساء . ولم يرجع حتى العاشرة . فلم أتمالك نفسى ! . . وجئت اليك !

القى سيمينوخين الجريدة الممدودة اليه . ولزم الصمت .

– لقد ق . . . قرات ذ . . . ذلك ! لكنه ك . . . كان اليوم ب . . . بعد هذا ء . . . عندى . هل يعقل ؟ . .

ورأى بيلا تستند الى الجدار محبوسة الانفاس . . . وبالكاد لحق فى الامساك بها واجلاسها على الكرسى .

وسكب الماء فى قدح بهدوء ، وملأ فمه به ثم رشه عـــلى وجهها . وعاد الى وجهها لونه الوردى ببطء .

– هيا ، ثو . . . ثوبـى الى رشـدك ! لا . . . لا يج . . . جوز سلوك هذا المسـ . . . مسلك ! ابقي لقضاء الليلة عندى لا يجوز لك الع . . . عودة الى الشـ . . . شقة بأى حال مـــن الاحوال . انا ذا . . . ذاهب الآن . يجب تب . . . تبيان الامـــر فورا . ماذا لو . . .

وشد سيمينوخين على قبضتيه وتوقف .

ثم ارتدى معطفه وخرج .

• • •

فى الصباح استيقظت بيلا لدى سماع صوته ، وكان غريبـا وصلبا مثل العصا .

– اذ . . . نهضى ! لقد عرفت الامر ! لقد اعتقلوه م . . . مساء امس . هذا ما . . . ما ك . . . كنت اعتقده . وتذكرى – توقف عند هذه الكلمة وتطلع فى أعماق عينـى بيـــلا – ان لا وجود لاورلوف بعد هذا بالنسبة ل . . . لك ، ولى ، وللحزب . لقد ار . . . ارتكب خ . . . خيانة .

وتطلعت بيلا اليه بنظرات من لا يفقه شيئا .

– نعم خ . . . خيانة ! . . كان امس ء . . . عندى واعلـن انه سـ . . . سيسلم نفسه ، لكى ينـ . . . ينقذ الرجل المق . . . المقبوض عليه ذاك وقد م . . . منعته باسم الحزب واللج . . . اللجنة الثورية . واعطى ك . . . كلمة شـ . . . شرف واخـــل بها . . . انه خ . . . خائن ، ونحن نشطب اسمه من بيننا ! . .

نهضت بيلا وقالت :

– اورلوف سلم نفسه ؟ . . بنفسه ؟ . . لا أصدق ذلك ! هذا مستحيل !

– اننى لا أكذب . ان هذا أشق بالنسبة لى منه لك .

وانفجرت بيلا صارخة :

– انك يا سيمينوخين ، خشبة ، وآلة . . . لا أستطيع . . افهم ذلك . اننى . . . أحبه ! لقد وافقت لأجله فقط ! كنـــت سأذهب الى العمل . . . واحتمال الفشل . . . والموت الاكيد .

فأجابها سيمينوخين بهدوء :

– م . . . هذا مما يزيد الطين بلة . شىء مؤســـف ان اخ . . . خترت لنفسك مثل م . . . هذا الشخص . سأدعو الآن لاج . . . جتماع ط . . . طارئ للجنـــة الثورية من اجل م . . . محاكمـــة اورلـــوف . . . ان الح . . . حزب لا يحتـــاج الى مانيلوفيين * ضعاف النـ . . . نفوس هكذا .

وسألته بيلا مبهورة :

أحقا ؟ . . الا تمزح يا سيمينوخين ؟

– اعتقد ان الوقت الآن ل . . . ليس للمزاح !

ابتعدت بيلا نحو النافذة . ورأى سيمينوخين مـن ارتجاج ظهرها انها تنتحب .

لكنه صمت كالحجر .

وأخيرا التفتت بيلا . كانت عيناها مغرورقتين بالدموع . سألها سيمينوخين :

– ماذا ؟

وارتعش نفسه لدى سماع صوتها المتوتـر الحـاد النبرات والصارم اللهجة :

* نسبة الى مانيلوف احد ابطال رواية «النفوس الميتة» لجوجول ويجسد شخصية الحالم الذى يبنى قصورا فى الهواء (المترجم) .

– اذا كان الامر حقيقة . . . فاننى اتخلى عنه ! . . اننـــى احتقر هذا الحب !

انقذنى يا رب . . .

عاد النقيب تومانوفيتش الى اللجنة مساء ، والتقط القلـم ، وفتح ملف «اللجنة الخاصة للتحقيق فى جرائم البلاشفة الوحشية ، التابعة للقائد العام للقوات المسلحة لجنوب روسيا» .

وكتب بخط واثق مدور وبحروف كبيرة ، عدة أسطر . ثـم وضع القلم جانبا ، وتطلع بنظرات ساهية الى العتمة الزرقـاء عبر النافذة ، وحرك مقعده بشكل مريح اكثر ، وبدأ يكتـب القرار .

كان انف النقيب المدبب ممدودا فوق الورقة ، وصار يشبه آكل نمل ماكر ، ينبش بيت النمل .

وعندما انسابت تحت قلمه المثابر آخر السطور ، دق الباب بحذر . ولم يسمع النقيب . فتكرر الدق .

ترك تومانوفيتش الكتابة بعدم ارتياح ، واضحت عينـــاه الشبيهتان بقطعتى جليد زرقاوين للحظة خابيتين وغير مدركتين لما تراه .

رفع الملازم القادم يده الى طرف قبعته ، وقال بالغموض الذى يتصف به البطل الشرير الرومانتيكى :

– ايها السيد النقيب ، لقد جئت بالمعتقل اورلوف تنفيذا لأمركم .

– قده الى هنا . . . وقده بنفسك ، رجاء . فان الجنـود ملأوا الغرفة يوم امس برائحة تبغ «الماخوركا» . وانا لا اطيق هذه الرائحة البتة . ارجوك ولا تستاء من كلامى .

كان اورلوف يجلس على الدكة فى غرفة الاستقبال . وهـم الجنود بقيادته لكن الملازم أخذ بندقية احدهم ، وقال :

– سأقوده بنفسى ! تفضل ، يا سيد اورلوف !

وخرجا الى الممر .

وقال الملازم ، خجلا : أترى اى حرس شرف . لقد أمـــر النقيب بذلك .

ثم أضاف قائلا بتهكم :

– كيف الحال ، الم تغير رايك فى الهرب ؟

– سأحاول عدم تأثير ذلك ارضاء لك .

– آه ، وددت كثيرا ان ارى ذلك ! . . او تعرف سأقول لك ، بالسر ، واقسم لك اننى اتمنى ان تفلح فى ذلك . اننى احب كثيرا مثل هذه المغامرات !

ضحك اورلوف .

– حسنا ! اننى لا أسىء اليك ! كن راضيا !

قدم تومانوفيتش فى مكتبه ورقة وريشة الى اورلوف .

– لقد دعوتك للحظة فقط . وقّع هنا بانك قرأت القرار .

– اى قرار ؟

– قرار التحقيق .

– وهذا كل ما هناك ؟ . . وماذا لو لا ارغب فى التوقيع ؟

فهز تومانوفيتش كتفيه .

– كما تشاء ! هذا ضرورى للشكليات !

وكتب اورلوف اسمه بسرعة فى اسفل القرار صامتا .

– هذا كل ما فى الامر ؟

– هذا كل ما فى الأمر ! أيها الملازم ! قد المعتقل !

كانت العبارة التى القاها الملازم فى الممر بصورة عابرة قـد تملكت فكر اورلوف وهزته .

وعندما خرجا من مكتب النقيب صار يهدئ من روعة نفسه ، ويستجمع كل ارادته .

كانت هناك فى الممر الطويل ثلاثة منعطفات بين غرفة الملازم ومكتب تومانوفيتش . وكان يضىء فى الوسط مصباح خاب ملوث بالذباب .

سار اورلوف امام الملازم عـلى مهـل . ووصـــل بمحاذاة المصباح .

ثم دورة خاطفة . . . طارت البندقية مـــن يدى الضابط ، وانقلبت ، وتوجهت حربتها الى حنجرتـه ، وحوصر الملازم الى الجدار ، وهو يطلق صاصاة خافتة .

– صه ! . . بلا صوت ! . . قدنى الى الخارج او تموت !

وهمس الضابط : – هناك حراس فى الشارع .

– قدنى الى الفناء ! اردت ان ترى كيف اهرب . . . فتفضل وانظر !

انفصل الملازم عن الجدار . وكانت شفتاه ترتعشان ، لكن ارتسمت فوقهما ابتسامة . واخذ يسير على اطراف اصابعه فى الممر ، متحسسا فى ظهره السنان الحاد تحت ابطه .

تجاوز المنعطف الاول ، والثانى . وكانت العتمة شاملة تقريبا ، ولا يبدو سوى بياض باب بشكل غير واضح .

واطلق اورلوف تنهدة عميقة .

وقال الملازم وهو يمسك المقبض : – هنا .

انفتح الباب فى لمح البصر ووميض نور ساطع . فرأى اورلوف للحظة مرحاضا صغيرا وبلوعة .

وقبل ان يتسنى لاورلوف ان يعى ما يحدث كان الباب قد اغلق وراء الضابط وطقطقت السقاطة بشكل حاد .

بقى وحده فى ظلام الممر ، بعد ان خدع ، وهو لا يعرف الى اين يذهب .

ولم يصدر من المرحاض اى صوت .

اطلق اورلوف شتيمة واتجه فى طريق العودة وهو يمسك البندقية بشدة ويلتصق بمحاذاة الجدار . وسمع صوت صفق باب فى مكان ما ، فجمد فى مكانه .

وفى اللحظة نفسها سمع خلفه صوت هدير يصم الآذان ، وعندما التفت ، رأى فى باب المرحاض ثقبا منيرا صغيرا .

وتكرر الهدير مرة اخرى .

وفى الحال صفقت الابواب فى الممر وسمع اصوات اقدام تجرى .

عندما رفع البندقية وصرخ بغضب :

– آه ، ايها الوغد ! . . لتنفق فى المرحاض !

وصوب البندقية بهدوء ، واطلق جميع الرصاصات الاربع على باب المرحاض ، وهو يرتعش من ضربات البندقية المدوية للغاية فى الممر الخالى .

وهجم عليه احدهم من الخلف ، وامسكه من يديه . وحاول اورلوف الافلات ، لكن عاجله شىء ثقيل بضربة على رأسه ، فسقط على الارض القذرة ، وارتطم بها بفكه .

وضغطت على قفاه جزمة ثقيلة ، بينما داست الاخرى على بطنه .

وصاح احدهم :

– هاتوا حبلا . . . هيا بالحبل .

وامسكه ثلاثة اشخاص ، وطوقه حبل صلب ، منغرزا فى يديه وساقيه .

رفعوه واجلسوه ، واسندوه الى الجدار .

وسأل ضابط طويل القامة :

– أين تيريشينكو ؟

– لا ادرى . . . الشيطان اعلم ! وهنا فى الظلام لا يتبين المرء شيئا . يبدو انه قضى عليه ! من لديه عود ثقاب ؟

– هاك قداحة .

– غير موجود . . . فى اى مكان !

– انه فى المرحاض ! . . الا ترى الباب مثقوب بالرصاص !

– آه ، يا للشيطان ! . . لقد قتل الفتى !

وقفز الضابط الطويل القامة فوق اورلوف وجذب باب المرحاض بقوة .

فصدرت عنه قرقعة وفتح قليلا .

– أجذبه بقوة أشد !

وجذبه الضابط الطويل القامة مرة ثانية ، ولم تصمد السقاطة ، فطار الباب بهدير ، وسقط على الجدار .

كان الملازم الاسود العينين يجلس فوق خزان الماء تحت السقف ، وقد ثنى ساقيه ، ومد يده شاهرا المسدس «البراونينج» ، بينما تمسكت اليد الاخرى بماسورة المياه . . . وكان وجهه قد شحب شحوب الاموات ، وفكه يرتعش ، وعيناه تنظران نظرات حاقدة خالية من المعنى .

وكانت شفتاه ترتعشان باستمرار وبسرعة ، وسمعه الحاضرون فى الممر ، الذين صمتوا ، وهو يردد همهمة بلا توقف :

– ربى انقذنى . . . انقذنى يا رب . . . انقذنى يا رب . . . انقذنى يا رب . . .

قال أحد الضباط :

– لقد جن جنون الفتى ! تيريشينكو ! انزل ، لياخذك الشيطان !

لكن الملازم واصل الهمس ، وفجأة التفت الضابط بهلع الى اصوات شبيهة بالنباح .

كان اورلوف يجلس بلا حراك مستندا الى جدار الممر وهو يضحك ، دون ان يستطيع منع نفسه منه ، وكانت ضحكاته تشبه نباح كلب .

– عظيم ! . . والآن فقد هذا عقله ايضا !

– ما القضية ؟ . . لماذا تضيعون الوقت هنا ؟ انزلوا الملازم من معقله ! شاطر ! لقد فطن الى الصعود على الخزان ! واقتادوا السيد اورلوف الىّ !

توجه النقيب تومانوفيتش الى مكتبه . وانهض ضابطان اورلوف من جلسته ، وحملاه فى الممر ، وسحباه الى المكتب .

– اجلسوه على الكرسى . . . هكذا ! يمكنكم الذهاب ! اشرب ماء يا سيد اورلوف .

سكب النقيب الماء وقربه الى شفتى اورلوف .

وشرب بنهم ، وهو لا يزال يرتجف من الضحك .

– حقا انك انسان فائق الشجاعة والحزم ! لو لم يكن هذا الفتى الظريف فطنا ، لحسن الحظ ، الى هذا الحد ، لمنحت العقيد روزنباخ عملا اضافيا . واظن اننى ما كنت لألتقى بك مرة اخرى . لقد احسنت وضع الخطة ، يا سيد اورلوف !

فقاطعه اورلوف : – اذهب الى الشيطان !

– لا ! . . اننى اقول ذلك بكل جد اضافة الى أن . .

ورنّ جرس التليفون على الطاولة ، فرفع النقيب السماعة .

«للاسف ، هذا مستحيل»

– هالو .

وسمعت خرخشة فى الاذن صادرة من السماعة ، وعرف تومانوفيتش الصوت «الباريتونى» الرقيق المهذب للضابط خروشوف ، ياور قائد الفيلق :

– تومانوفيتش ، يا لعين ! هذا انت ؟

– انا . . . ماذا تريد فى مثل هذا الوقت ؟

– مهلا ، سأحدثك بالامور بالترتيب . الجنرال مای مصاب بنوبة . مثل الثيران فى اسبانيا ، اذ توحش وصار يحفر الارض بقرنيه ! ولا يستطيع احد الاقتراب منه ، حتى الخدم يخافون تقديم الكونياك اليه ، قائلين «سيقتلنا» .

– لماذا ؟

– لقد حدثت مصيبتان مرة واحدة ، يا اخى . اولا ، اختطفت خليلته ، انت تعرفها ، ليلكا ، اختطفت جواهر ونقودا وهربت ويعتقد انها مع سنياتكوفسكى . . . بينما جنون هو . وثانيا ، استلم برقية مفادها ان فرقة تشيرنيتسوف قد هزمت عند قرية ميخايلوفسكى ، وان تشيرنيتسوف نفسه . . . اوه !

– قتل ؟

– كلا ! هناك معلومات تفيد انه فى الاسر . ويقترح البلاشفة اجراء مبادلة . واقترح رئيس الاركان على الجنرال مای مبادلة تشيرنيتسوف بأسيرك . وقد وافق مای على ذلك . وبذلك استلم البرقية التليفونية رسميا .

القى النقيب نظرة على اورلوف . كان المعتقل يجلس بعينين نصف مغمضتين ، وبان عليه الارهاق والانفعال الشديد .

هز تومانوفيتش كتفيه واطلق فى السماعة الكلمات التالية بصوت واضح ومشددا عليها :

– ابلغ فخامته ، انه نظرا للظروف الجديدة الناشئة فان الاقتراح المذكور غير قابل للتنفيذ ، لان المعتقل اورلوف – والقى عليه نظرة اخرى مجددا – حاول قبل قليل الهرب وقتل الملازم تيريشينكو .

ونهض اورلوف .

وسمع صوت صفير فى السماعة :

– عظيم ! ولكن ما العمل بالنسبة لتشيرنيتسوف ؟

– سنجد شخصا آخر لغرض المبادلة . وحتى لو يقتل «الرفاق» تشيرنيتسوف فلن يكون ذلك ، فى الواقع ، مصيبة كبرى . اذ ستبقى دون نهب عدة آلاف من اطقم البدلات العسكرية .

فقال الضابط الآخر :

– ربما ، انت على حق . . . سأبلغ ماى بذلك الآن .
ووضع النقيب السماعة . وقال اورلوف :
– انك لا ترحم رفاقك .
ورمت قطعتا الثلج الزرقاوان اورلوف بنظرة باردة شريرة .
– اننى بشكل عام لا ارحم المجرمين ، اينما كانوا ومهما كانوا . فعندكم فقط يرتفع فى المنزلة من يسرق اكثر من الغير !
فضحك اورلوف متهكما وقال :
– لديك معلومات خاطئة ، ايها النقيب .
– ربما . وانت نفسك قد اتلفت الامر . . .
– كيف ؟
– لو لم تحاول الهرب ، لامكن تدبير المبادلة . والآن سأصر نفسى بشكل قاطع على القضاء عليك باقرب فرصة .
– اننى فى غاية الامتنان لك !
وردد التليفون ثانية اغنيته البغيضة :
– نعم . . . اسمعك ! هكذا . . . هذا ما اعتقدته ! سينفذ ذلك الآن ! نعم . . . نعم ! الى اللقاء ! كلا ، لن اذهب الى المسرح : لا وقت لى لذلك .
التفت النقيب الى اورلوف وقال :
– لقد وافق الجنرال على تقديمك الى المحكمة العسكرية . وستنقل الآن الى الزنزانة . لقد انتهى دورى ! وداعا ، ايها السيد اورلوف !

شىء بسيط

اجتمعت المحكمة العسكرية مدة نصف ساعة .
وتهامس العقيد رئيس المحكمة مع اعضائها . ثم سعل وتلا بكسل ما يلى :
«بناء على أمر القائد العام الاعلى نظرت المحكمة العسكرية للفيلق «س» فى قضية السيد دميترى اورلوف ، عضو حزب البلاشفة ، الرئيس السابق للجنة الاستثنائية فى المحافظة ، البالغ من العمر ٣٢ عاما ، بالتهمة الموجهة الى المدعو اورلوف المذكور اعلاه . . . واصدرت قرارها الآتى : الحكم باعدام المتهم

اورلوف شنقا حتى الموت . ينفذ الحكم خلال ٢٤ ساعة . الحكم نهائى وغير قابل للاستئناف» .
استمع اورلوف الى الحكم بلا مبالاة وقال فقط باقتضاب :
– لقد سرنى سماعكم . . .
تم نقله الى الزنزانة . وجلس حتى حلول الليل بهدوء ودون ان يهتم بشىء .
لكن كانت تغلى الافكار فى جمجمته بشكل محموم ، وفكر فى امكانية الهرب فى الطريق الى محل الاعدام .
«لقد هربت مرة هكذا فى قازان . . . من حبل المشنقة مباشرة . . . والآن من السخف ان اموت . . . مثل الخروف» . واطلق الشتائم بغضب .
اخذ يذرع الزنزانة وفجأة سمع وقع خطوات واصوات فى الممر . وصر الباب بشكل مزعج مرة اخرى ، وغمر الزنزانة نور المصباح الذهبى .
– ابقوا هنا ! ساخرج بعد قليل !
سمع هذا الصوت المألوف لديه ، كما تراءى له ودخل الزنزانة رجل . كان وجهه فى ظل نور المصباح ، وعندما قال : «ايها السيد اورلوف !» ، عندئذ فقط عرف فيه اورلوف النقيب تومانوفيتش .
واجتاحته عاصفة من الغضب . فتقدم نحو النقيب وقال :
– ماذا تريد بحق الشيطان ؟ لماذا تدس خلقتك المنافقة هنا ؟ اذهب الى . . . !
وضع النقيب المصباح على الارض بهدوء . وقال :
– جئت لبضع دقائق فقط يا سيد اورلوف . لقد أتيت هنا بعذر رسمى وجدته ، لايضاح احد الامور . لكن جوهر القضية ليس فى هذا . يمكننى ابلاغك بأن الجنرال قد صادق على الحكم . لكنه بدل فقط الشنق بالرمى بالرصاص . فقد عنفه القائد الاعلى قبل ايام على المشانق . لكن هذا لا يغير من الامر شيئا .
– وماذا ؟ هل جئت لكى تنفذ الحكم شخصيا ؟
– دع الوقاحة ، يا سيد اورلوف . لم آت لهذا الغرض ابدا . اكرر القول : من وجهة نظر قانونى ، فقد استحققت الموت . وكنت سآسف كثيرا لو جرت مبادلتك بالمختلس

العجوز تشيرنيتسوف ، لان منح الحياة لمثل هذا العدو يعتبر خطأ سياسيا كبيرا . والآن تقرر مصيرك بلا رجعة . لكن تذكر انى وعدتك بموت سهل . فمما لا يسرنى ان تصبح هدفا للرماة الذين يبولون فى سراويلهم من الخوف . . . خذ !

ومد النقيب يده . وكانت تلمع فيها قارورة زجاجية ببريق خاب .

واختطف اورلوف القارورة وقد تولاه انفعال مفاجئ .

وصمت الاثنان . واحنى النقيب راسه .

– وداعا يا سيد اورلوف !

لكن اورلوف اقترب منه واعاد اليه القارورة .

وقال بصوت واضح وبلا اى تهدج :

– لا حاجة لذلك !

– لماذا ؟

– اوه ، ايها السيد النقيب ! اننى فى غاية الامتنان على لطفك ، لكننى لن استفيد منه . لقد خسرت اللعبة ، ووقعت كالاحمق فى براثن اوغادكم ، ولم استطع تنفيذ المهمة التى كلفنى الحزب بها ، غير اننى لا امتلك الحق فى افساد هذه القضية اكثر .

– انا لا افهم !

– انك لن تفهم ذلك ابدا ! ومع ذلك فانه شىء بسيط جدا . لقد افسدت القضية التى كلفت بها ، وعلىّ الآن ان اصحح هذا الخطأ حتى لو بموتى . انت تقترح علىّ ان اقتل نفسى بهدوء وسلام ؟ وان لا اجلب المسرة الى قلوب جلاديكم ؟ انا لا اعرف ، لماذا تفعل ذلك ! . .

وقاطعه النقيب :

– لا تظن ، انه شفقة عليك . . .

– لنفرض ذلك ! . . ان هذا بالنسبة لى شخصيا مخرج رائع . لكن لدينا ، ايها السيد النقيب ، نفسيتنا الخاصة . وفى هذه اللحظة لا يهمنى شخصى ، بل قضيتنا . ان اعدامى ، عندما يصبح معروفا للجميع ، سيكون ضربة اخرى الى عالمكم المتعفن . وسيوقد شرارة انتقام اخرى فى قلوب من يقف ورائى . واذا ما مت هنا بهدوء ، فان هذا سيكون مبررا للقول بان اورلوف الذى

اخفق فى تنفيذ العمل المناط به قد خاف الاعدام وتناول السم مثل طالبة ارستقراطية حملت عن طريق غير شرعى . . . لقد عشت من أجل الحزب وسأموت من أجله . أترى اى شىء بسيط هذا !

فقال النقيب تومانوفيتش بهدوء :

– افهم .

وطاف اورلوف بالزنزانة ثم توقف مجددا قبالة النقيب وقال :

– أيها السيد النقيب ! انك مغرم بالشكليات ، ومدقق فى عملك ، ومتشرب بكل كيانك فى الصيغ الحقوقية . انت رجل معلب ، لك روح من الكارتون ، وانت ملف دعاوى ! لكنك رجل صلب الراى على طريقتك الخاصة . هناك مسالة تعذبنى للغاية . . . لقد كان هناك حديث . . . باختصار ، اننى اخشى ان يظن رفاقى بانى سلمت نفسى لكم طوعا . . . وانا اخشى ان يحتقرونى . . . هذا ما اخشاه ! . . أتفهم ؟ انا اخشى ذلك !

لزم النقيب الصمت وصار يحفر بلاطة الارض بطرف حذائه .

– لقد امتنعت عن الادلاء بافادتى . . . لكن . . . لدى هنا صفحتان مكتوبتان ! وهما توضحان كل شىء . الحقهما بملف قضيتى . وعندما تصبح المدينة بأيدينا مرة اخرى . . . أتفهم ؟

قال تومانوفيتش :

– حسنا ، هاتهما ! اننى لا اشاركك ثقتك بشأن المدينة ، لكن . . .

وأخذ الورقتين ، وطواهما بعناية ، ووضعهما فى جيبه الجانبى .

خطا اورلوف الى الامام .

– كلا . . . كلا ! اننى لا اريد . . .

وابتعد النقيب مبتسما .

– لا تقلق ، يا سيد اورلوف . نحن نقف فى قطبين متباينين ، لكن لدىّ مفاهيمى وهى واضحة تماما حول اسرار التحقيق والشرف الشخصى .

التفت اورلوف بكامل جسده . كان الانفعال يضغط عليه ، وكان لا بد من اخفائه .

– اننى لا اشكرك ! . . اخرج ! . . اخرج بسرعة ، ايها النقيب . . . قبل ان الطمك ! . . لا اريد ان اراك أكثر من هذا !

فاجابه النقيب بهدوء :

– اتعلم ، اننى اتمنى من مصيرى ، ان يحضرنى مثل هذا الثبات فى اليوم الذى ينبغى عليه فيه ان اموت .

وتناول المصباح من الارض .

– وداعا يا سيد اورلوف .

توقف تومانوفيتش ، كما لو ارتعب ، ورأى اورلوف يد النقيب النحيلة ممدودة نحوه ، فى ضوء المصباح الشاحب .

فاخفى يديه وراء ظهره .

– كلا . . . هذا مستحيل .

وسأله النقيب : – لماذا ؟ ام انت تخاف ان يجلب ذلك الضرر لقضيتك ؟ لكن رفاقك لن يعلموا بهذا !

فضحك اورلوف وشد بقوة على الاصابع النحيلة البارزة العظام .

– اننى لا اخاف شيئا ! وداعا ايها النقيب ! أتمنى لك ميتة طيبة أيضا !

خرج النقيب الى الممر .

هجم الظلام على الزنزانة مثل شلال صامت . وطقطق المفتاح فى القفل بصرير ، مثل زناد أدير بثبات .

التابع السابع



الفصل الاول

كانت ترى من النافذة سيارة حمولة خضراء تهدز مارة بالبيت ، هازة الرصيف الحجرى المحطم ، نافثة وراءها غمامة زرقاء من رائحة البنزين الكريهة .

كانت السيارة تشبه القنفد . وكانت كالقنفد تجرى متلمسة الطريق بأنف الراديتور الافطس ، وكانت حراب الجنود الحمر تبرز من كل الجوانب ، مثل ابر واقفة .

وحالما حاذت النافذة ، انطلقت منها طلقتان . وكان من الصعب معرفة ما اذا كان ذلك عارضا ام للتحذير واختفت السيارة عن مدى البصر .

هز يفغينى بافلوفيتش رأسه وقال بصوت مسموع :

– انها لبلاد عجيبة . مرت ثلاثة اعوام من الحرب ، وما يزالون كالسابق لا يبخلون بالرجال والذخيرة . لم يغيروا سوى موضوع العمل .

قال ذلك واخذ يذرع الغرفة . وبينما هو كذلك لاحظ صورة زوجته المتوفاة ماثلة على الحائط باطارها من خشب البلوط الثقيل . تقدم منها ، وصحح وضعها بحركة آلية . واخذ يفكر فى الحال : «لماذا أفعل ذلك ؟ فقد اضحى كل شىء أعوج .» .

اهتزت الستارة على باب غرفة الطعام ، واطل من ورائها وجه عجوز صغير مدبب الانف .

سأل الجنرال :

– ماذا بك ، يا بيلينكا ؟

ان بيلينكا ، او بيلاغيا ، آخر انسان وفى . وراءها ثلاثون عاما من الحياة فى جدران واحدة مع يفغينى بافلوفيتش وتعلق اهوج هرم لمربية بسيد وحيد هجره الجميع .

قالت بيلاغيا متلفظة من شفتيها ، مقلصة عينيها ، قالبة السين شينا :

– ما زلت اراك شائرا ، يا محترم ؟ . . اية حياة امشت ! وانت تشير وتشير ، لا تخلد لراحة .

توقف يفغينى بافلوفيتش ، وراح يقلد نطقها :

– وانت ما زلت تجلشين ، يا عجوز ، تشتهلكين الكرشى ؟

لوحت العجوز بكفها الجافة ، وانحنت ، ومسحت الرماد عن ارض الغرفة الخشبية الصقيلة بمئزرها . لوى يفغينى بافلوفيتش شفتيه بابتسامة هازئة .

– تنظفين ؟ . . عادة . . . آه ، يا عجوز ، حين تدخلين الجنة اظن انك بحكم العادة ستكنسين العتبة اولا ، ها ؟ – ثم اضاف قائلا – سأذهب الآن الى السوق ، يا بيلينكا . . . أشترى بعض الاطعمة .

صحبته بيلاغيا الى الرواق ، وهى تهز ذقنها ، وساعدته على ارتداء المعطف . وعندما اغلقت الباب ، صلصلت بالسلسلة طويلا دون ان تستطيع ادخالها فى فتحتها ، وظلت هذه الصلصلة تصاحب يفغينى بافلوفيتش طوال هبوطه الدرج .

فى الفسحة السفلى التقى بجاره المهندس ارانداريتكو . وكان هذا اللقاء مزعجا دائما . فقد كان هؤلاء الناس الكثيرون الكلام يبدون يفغينى بافلوفيتش دائما غير حقيقيين ، بل مثل لعب ميكانيكية أو طيور مروضة ، والآن صار يضيق بهم بشكل خاص .

انحنى مجيبا ، واراد ان ينسل ، الا ان ارانداريتكو كان يسد الطريق بمائة كيلوغرام من لحم جسمه ، وتلوى زر فى معطف الجنرال باصابع ارانداريتكو الشبيهة بالخيارات الصغيرة .

– مرحبا ، يا صاحب المقام . . . مرحبا ! ماذا عندك لتقوله ؟ ها ؟ الرأس دار الى الظهر . . . هل سمعت انهم ليسوا بحاجة الى اى مثقف ، ها ؟ انهم يقولون : «كل طباخة تستطيع ان تدير الدولة» . طباخة ! ها ؟ الطباخة وزيرة ! بينما انا وانت فى المطبخ صبيان يساعدان فى شؤون الطبخ . تلك هى حالة الامور . مهندس كهربائى واستاذ فى الاكاديمية العسكرية الحقوقية ينقلبان الى صبيين فى المطبخ .

وكان الزر يزداد لويا ، وبدا وكان ارانداريتكو يقطع الزر من مكانه . وبسبب ذلك ، ولشىء آخر لا شعورى احس الجنرال بحقد اكال نحو المهندس . وقال بشىء من الجفاف :

– لا ندين ، فلا ندان .

اطلق ارانداريتكو الزر وتمطق بلسانه .

– أهذا جزع ؟ خمول ؟ لا يجوز ذاك يا عزيزى يفغينى بافلوفيتش . يجب ان نصارع الى آخر قطرة . نحن ، المثقفين . . .

وصار واضحا ان المهندس كان يطيل الوقوف . ولكى ينقذ الموقف ، ويكسب المعركة قال الجنرال بادب مشدد :

– ارجو ان تشرفنى فى المساء لنتحدث . . . انا مستعجل للذهاب الى السوق . اعذرنى ، والا تاخرت .

ورفع يده الى قبعته بالتحية العسكرية ، وانسل بحركة التفافية بمحاذاة الجدار ، وتجاوز المهندس ، وخرج الى الشارع . سار متلفتا . كان النظر الى الشارع مكدرا ومثيرا للفضول فى آن واحد .

كان الشارع يتقشر . كانت قشرة جافة معدية تتقشر من جسده الحجرى بهسهسة وشرشرة ، وتندفع على الارصفة تسوطها

دفقات رطبة من ريح بليلة منطلقة من البحر . كانت القشرة فى كل مكان . كانت تتساقط من الشفاه المتهدلة للمارة المتسكعين بذهول قشرة عباد الشمس ، ومن الجدران اكواما ملونة من الكلس والملاط ، ومن اللافتات المتدلية كالميتة مربعات متساوية من الصبغ المتشقق ، ورقاقا نحيلة من القشرة المذهبة .

كان الشارع يتعرى من يوم الى آخر بسخرية خاملة لا روح فيها .

وحتى الناس كانوا شبيهين بقشرة ذاوية تتخلص منها الشقق فترميها فى الريح الرطبة وهى تتماثل للشفاء من مرضها .

وحتى يفغينى بافلوفيتش بدا لنفسه مثل بثرة جافة سقطت من جسد محطم عانى من لحظات مميتة من الازمة ، تطاردها الريح فى العالم الخيالى للشارع المعرى .

كانت الريح تارة تتقاذف اذيال المعطف قالبة البطانة الحمراء ، وتارة تهز الحزام الظهرى المقطوع من احد طرفيه ، وتارة تتشربك فى الرجلين الجافتين .

كانت الريح تؤاخى الزمن . وكان لا يهمها شىء من عمر ولقب أستاذ فى اكاديمية الحقوق . فكانت تسوط وجه الجنرال ، وتصفر صفير اللصوص فى اذنيه ، وترنحه ، وتدفع الجسد الاعجف على الرصيف ، مستخدمة معطفه كشراع .

كان المعطف مقببا عند الظهر بحدة . وكانت رؤوس الخيوط من الكتافيتين المخلوعتين تتدلى برخاوة على الكتفين . انها لم تقطع كسلا ، ولم ترفع عليها يد .

وكان الجنرال وهو يمخر فى الشارع مضطرا الى ان يعاين كلا جانبيه بفضول لامبال لقبطان قاد سفينته مائة مرة بين شاطئين معروفين له منذ زمان حتى ملّهما . والقبطان الآن لا يلاحظ الشاطئين . اذ لا يلتقط البصر غير التغيرات فى معالمهما ، التى حدثت فى الفترة بين رحلتين .

وهذا ما كان مع الشارع ايضا . لاحظ يفغينى بافلوفيتش ان الزمن والريح قد قرضا خلال ليلة واحدة الكعكة المذهبة المرسومة على دكان لبيع الخبز مسدود باللوح . تساقطت الطبقة المذهبة والجبس ومن الشكل المرفه للكعكة برز السلك الصدىء للقاعدة ساخرا .

توقف يفغينى بافلوفيتش مقاوما عصف الريح ، ورفع لحيته المدببة الى الكعكة . وطرأ على ذهنه فجأة وكأنه شىء عارض : «كان كوتيا يحب الكعك المحشو بمربى العليق البرى» .

وعاد الى ذاكرته ، وكأنه حى ، ابنه الذى خدم فى فرقة الفرسان وصرع فى بداية الحرب قرب هومبينين . انه لم يتذكره ضابطا فى فرقة الفرسان مصلصلا فى درعه اللامع وسترته القصيرة الضاربة الى الزرقة ، بل ولدا فى الخامسة . كان فى ذلك الحين يلبس سروالا مخمليا قصيرا ، ووجهه الصغير مورد ، وفى يده كعكة بمربى العليق البرى ، وقد تلطخ فمه وطرف انفه الصغير كالزر بالمربى الحمراء .

وزفر يفغينى بافلوفيتش ، وكور كتفيه ، وواصل سيره مدفوعا بالريح .

وعلى ناصية «ليتينى» اصطدم بصخرة بحر .

على وجه التخصيص لم يكن ذلك غير بحار اعتيادى . كان عريض المنكبين رمادى العينين مشاكسا . وقف على الرصيف فى سترة بحار ، وعلى كتفه بندقية قصيرة ، ينظر الى المارة بعين حادة . وكان المارة يتحاشونه . كان وسط زبد الناس كالصخرة الصلدة تشق الامواج .

كانت الريح تداعب القرط الفضى المهتز فى شحمة اذنه اليسرى .

نظر البحار بسخرية الى بطانة المعطف الحمراء ، والى الخيوط على الكتفين ، وغمز قائلا :

– يسقط ريشك ، يا طائر الجنة برتبة جنرال ؟

وجاء الجواب ، وكأنه من تلقاء نفسه ، وبدون تفكير طويل .

– أنا أتعلم من الطبيعة الخيرة . التجديد يحتاج الى انسلاخ الجلد . وهذا ما تفعله الثعابين الحكيمة .

دفع البحار بكتفه البندقية التى انزلقت عليه ، وأفلت منه بحسن نية ظاهر :

– اسلخ والبس ، ايها الثعبان الحكيم ، ولكن استعجل ، والا فاننا ، أيها الاخوة الجنرالات ، سنرميكم قطيعا قطيعا بالسرايا .

أراد يفغينى بافلوفيتش ان يسخر ، فسأل وهو يرفع الى البحار لحيته المدببة :

– يعنى هذا هو الاستهلاك الاشتراكى للطعام ؟ طعام سيئ ، يا أصدقاء .

قال وأدرك أن سخريته لم تمر بسلام . فان البحار قد تغير لونه ، وزم شفتيه ، وأشار صامتا الى الجانب المقابل من الجادة ، حيث لاحت على الحائط ورقة مطبوعة حديثا .

– انظر ، ايها طائر الجنة ، وستفهم .

أطلق البحار هذه الكلمات فى اثر يفغينى بافلوفيتش الذى كان قد غادر محله .

تقدم يفغينى بافلوفيتش من الورقة . كانت تفوح منها رائحة كريهة لصمغ عفن . وكانت الورقة رمادية ، وقد انتشرت عليها بثور المادة الرخيصة التى صنعت منها . ووثبت عليه سطور عريضة بحروفها التى تفلطح حبرها على الورقة بلونه القطرانى .

التصق يفغينى بافلوفيتش بسبب من قصر بصره بالنص تماما حاكا الورقة بلحيته الشائبة . وتلولب فى عينيه ما يلى :

«. . . سترد البروليتاريا على مصرع الرفيق اوريتسكى ، ومحاولة اغتيال زعيم الثورة العالمية الرفيق لينين بضربة مميتة توجهها الى البرجوازية التى تآكلتها العفونة . ليس العين بالعين ، بل العين بألف عين . الف نفس من البرجوازية مقابل حياة القائد . عاش الارهاب الاحمر !» .

كفت اللحية عن حك الورقة . وابتعد الجنرال عن الجدار ، ووقف برهة مقلصا جفنيه . وتمطق بشفتيه ، وهز جذعه ، وذهب الى السوق . وتلمس فى جيبه علبة مخملية فيها زران ذهبيان للاكمام كان قد أعدها للبيع لهذا اليوم .

الفصل الثانى

كان الكاتدرائية البيضاء الواطئة المستديرة الرأس ، والمزينة قبابها الصغيرة بالفيروز والذهب قد تحولت الى خيمة للارجوحة الدوارة كان يدور حولها كل شىء ، رغم انها نفسها

بقيت غير متحركة جهمة تحدق بكآبة فى الزحام اللاغط .

ثم أكملت الشبه بالارجوحة موسيقى زاعقة .

وعند سياج الكاتدرائية تماما ، وقرب مدفع تركى قديم انغرز فى الارض كالعمود ، كان رجل فى معطف طويل ضيق عند الخصر ربط منديلا اسود على عينيه ، يدير مقبض ارغن صغير . وكانت الانابيب المتنافرة النغم تبتهل بنفاذ واسى الى السماء الشفافة لليوم الاخير من آب .

نظر الرجل الارض . وقد برز من خديه من كلا الجانبين شاربان كثان ناعما الشعر لهما زائدتان على طرفى الفم كانا كمجسى خنفس كبير اشعث وعلى مثل حركتهما واهتزازهما . وقد انزوى بين المجسين انف دقيق له حدبة معتبرة .

وكانت على سطح الارغن قبعة رسمية ذات شريط احمر ، وثقب فى مكان الشارة . وقد امتلأت الى النصف بالعملة الورقية وقطع النقد من فئة نصف روبل وروبل ، بل والتصقت عملة خضراء من عملة كيرنسكى يتيمة على الشريط .

كان بعض الناس يلقون على العازف نظرات فضولية سريعة . قبل فترة قصيرة جدا كان هذا الرجل يدير الدولة كما يدير مقبض الارغن ، وكان وجهه معروفا فى البلاد كلها . اذ نشرت صورته على صفحات الجرائد والمجلات مئات المرات .

والآن ايضا كانت تنطوى فى طية شفتيه ، وفى حدبة انفه الاصيلة وخلال الجفنين ، الكرامة المتبقية للشيوخ الرومانيين الذين كانوا ينتظرون فى صمت ، ملفوفين بثيابهم الرومانية الفضفاضة وبلا اى سلاح ، الضربات المميتة من جحافل المتوحشين الذين اقتحموا اسوار الفوروم فى روما القديمة .

كما كان شيوخ آخرون لروما القديمة جالسين او واقفين حوله وبمحاذاة السياج كله ملتصقين بقضبانه الحديدية ومدافعه .

فقد قذفت بطون الفيلات والقصور وشقق الوزراء المهزوزة بنوبات العهد العنيفة عند سياج الكاتدرائية اشتاتا لا تجدها الا فى الحكايات .

كانت وصيفات البلاط الشابات واللواتى استهلكن عمرهن ، النحيفات والبدينات ، الوسيمات والدميمات ، المشحونات مع

ذلك بالعظمة وآداب السلوك الرفيعة يلوحن بأيديهن التى كانت تهتز عليها كل ابهة البضائع المعروضة على المتوحشين المنتصرين .

العقد والكشكشات والمنمنمات والمخرمات والفخامة الخانقة لمخمل ليون ، والبريق الثقيل للحرائر الموروثة ، والزركشات اللامعة للفاعات الجدات وجدات الجدات ، والالبسة الداخلية المصنوعة من الكريب الصينى ، والقماش الكمبرى الغاية فى النعومة ، المدخر سنين لحفلات الزفاف وليالى الاعراس والمخرمات الدقيقة كخيوط العنكبوت التى سببت عمى صانعات المخرمات فى ضياع ريازان وكورسك والمناطق المجاورة لموسكو ، والحقائب والمرايا ، وحقق البودرة الذهبية والفضية ، والمحفظات والكشتبانات ومحافظ الابر وعلب الزينة ، كل ذلك كان يذهل ويأخذ بلب المشترى البسيط الساذج .

كانت الوصيفات يلوحن بأيديهن ؛ كانت الوصيفات اللاتى تعودت شفاههن على الالحان الموسيقية للغة الفرنسية ، وعلى الالقاب المديرة للرأس Majesté, Votre Altesse impériale, Votre mon Prince, monsieur le Comte. * يصحن بهذه الشفاه كلمات مفزعة :

— تعالوا ، تعالوا ! مخرمات ، حرير ، بناطيل ، زوفير !

آه ، كم كانت الافواه تنطبق فى كلمة «بنطلون» ! وكيف كان يهتز الكيان كله !

قبل عام كانت هذه الكلمة لا تنطق الا همسا فى الاحاديث الخاصة لاعز الصديقات ، فى اعماق المخادع الهادئة ، وكانت تثير رعشة فزع خفى . اما الآن فكان يجب ان يصرخ بها بأعلى ما يمكن من الرنين ، واكثر ما يمكن من الوضوح لكى يقبل عليها المشترى بالتأكيد .

ووراء الوصيفات صفوف من الموظفين من مختلف الدرجات والمرافقين والجنرالات المرافقين . وهنا ايضا انعم الاقمشة لبدلات الريدنكوت الانجليزية ، وذيول ستر الفراك الشبيهة

---

* وردت بالفرنسية فى النص ، وترجمتها على التوالى : صاحب الجلالة ، صاحب العظمة ، يا سمو الامير ، الكونت .

بذيول الخطاطيف ، والجاكيتات المدورة والبناطيل المخططة ، والبناطيل ذات المربعات ، وبناطيل الجنتلمانات بالتدرجات اللونية بلون الكريمة وبالشرائط الذهبية ، والصدارات الملونة ، واربطة العنق ، والياقات ، وعلب السيكائر ، وعصوات المشى ، وقبعات بورسالينو ، والقبعات القشية الناعمة ، وضفائر الزينة على البزات الاستعراضية ، والقماش الكامد للقبعات العالية ، والقطيفة اللامعة للقبعات المطوية ، والمينا الصقيلة للاوسمة والاشرطة والتحليات لستر البزات الاحتفالية .

والمتوحشون الذين خطفت ابصارها نشوة الابتهاج يندفعون الى هذا الترف المثير .

آه ، ما الطف ان يلصق وساما آنا وستانسلاف الرفيعان على عصبة امرأة ريفية ، وان تضرب بالعصوات ذات المقابض العاجية ابواز العجول والخنازير السارحة ، وان تخاط ضفائر الزينة الذهبية ، والزينات الصدرية الأخرى لستر البزات الاستعراضية على اذيال ستر الفتيات للاعياد ، بينما فى الامكان ان تصنع من حقق البودرة الفضية للصائغ الماهر «لياليك» سرج جميلة واقتصادية تحل محل قطع الحطب الرفيعة التى تحرق للاستضاءة .

وما اكثر المنافع الأخرى التى تجنى من ميراث طبقة استنفدت دورها فى بلاد أعيد تنظيمها ؟

واذا كان الشارى راضيا ، وهو يتلمس هذه النفائس فان البائع سيكون راضيا ايضا .

لان السوق عامة .

وما هى محلات تيتس وفيرتهايم بطوابقها العشرة ، و«أوبون مارشيه »، وغيرها من المحلات العامة الضخمة ، بواجهاتها اللامعة كالمرايا ، وسلالمها المرمرية بالمقارنة مع سوق الجمهورية فى عام ١٩١٨ ، اذا كان من المستحيل ان تشترى فيها الدخن غير المصفى الذى تطهى منها عصيدة مقوية جدا ، وشحم الخنزير المقدد ، والحنطة السوداء والقشدة ، والكعك ، واخيرا اكثر الاطعمة ديموقراطية ، على شدة سحره ، واعنى به خبز الجودار الفواح بشكل مسكر بالنخالة وبقشرته الذهبية البنية .

وما نفع السلالم المرمرية والواجهات اللامعة كالمرايا ، اذا كنت لا تجد فيها حتى ظل الرومانسية الاسطورية واصداء الصراع العنيد من اجل الحياة ! . .

ارجوحة السوق الصاخبة اللاغطة تدور حول الكاتدرائية الواطئة ، والحرير والقماش الكامبرى يهسهس ، وقبعات الدربى المستديرة تقرقع بين اصابع المشترى الخشنة ، وعملات كيرنسكى وآل رومانوف تخشخش مدغدغة ، ويد الرجل الرقيقة العظام ، بشاربيه المهتزين مثل مجسى خنفس كبير تدير مقبض الارغن الصغير .

شق يفغينى بافلوفيتش طريقه الى قضبان سياج الكاتدرائية والزحام يضغط عليه ، وهناك استرجع انفاسه .

الآن يجب أن يتخذ مظهرا لائقا لانسان غير مكترث لا يلاحظ احدا من المعارف . ذلك هو شعار شرف السوق ، لأن من الانزعاج أن ينظر الواحد فى عينى الآخر ، ذلك لأن من الممكن أن ترى دائما فى عينى من تعرفه ذكرى لا حاجة لها ، تماما مثل انعكاس صورة القاتل فى شبكية عين القتيل .

يجب ان يلصق مرفق اليد على الجنب ، ويمد الكف مقلوبة الى الاعلى ، ويضع عليها العلبة المخملية لازرار الاكمام الذهبية ، ويتخذ مظهر من لا يهتم بالامر ، وينتظر النتيجة .

ولم يكن الانتظار طويلا .

خرج من عجينة الزحام السائلة امامه رجل احمر الشعر فى فروة خروف (كان النهار دافئا لطيفا رغم الريح) ووقف أمام يفغينى بافلوفيتش .

كان العرق يتصبب خطوطا داكنة من جبين الرجل ، من تحت قبعته القوزاقية ، على انفه الهزيل المائل الى خده الايسر . ولبرهة نظر الرجل الاحمر الشعر الى الازرار ، ثم حملق بعينيه الصفراوين الشفافتين فى معطف الجنرال ، ولحيته المدببة ، وقبعته .

ومسح العرق على جبينه بظهر كفه وقال :

– اوف ، يا امى ! اكاد اختنق بهذه الفروة . وكاننى فى داخل مرجل بخارى ويرتفع الضغط فيه ! . .

فاستفسر يفغينى بافلوفيتش :

– ولكن لماذا ترتدى الفروة ؟

ضرب الرجل الاحمر الشعر فخذيه :

– انت رجل عجيب ، والله ! واين أودعها اذا كنت قد اشتريتها الآن ؟ ان حملها على يدى اصعب . وهكذا ترانى اتعذب – ودخل الموضوع مباشرة ، ومد أصبعه الى الازرار – العلك تبيعها ، أيها الرفيق صاحب السيادة ؟

واهتزت لحية يفغينى بافلوفيتش من فوق الى تحت . تناول المشترى العلبة ، وقلبها . ارسلت الشمس الشاحبة لمعانا رقيقا على حواشى الازرار الذهبية . احنى الاحمر الشعر انفه المعوج على العلبة تماما .

– ذهبية ؟

– العيار مثبت فى الخلف .

– اها . . . ولماذا الصقت هذه المراة ذات الميزان ؟ ماركة تجارية ، ام ماذا ؟

اضطر يفغينى بافلوفيتش ان يتريث لحظة فى الجواب حتى يكبت ضحكة غير لازمة . ثم شرح بهدوء :

– هذه فيميدا ، ربة العدل . وقضايا البشرية معلقة فى الميزان .

وتذكر اليوم الذى جلب فيه طلبة الاكاديمية هذه الازرار فى التهنئة بالترقية الى رتبة لواء . الا ان الذكرى كانت شاحبة مغلفة بالدخان ، واختفت فى لحظة واحدة .

– حميدة – ردد الاحمر الشعر بعدم ثقة – هذا هراء ، أيها الرفيق صاحب السيادة . حكايات غير طبيعية . قضايا البشرية لا يمكن ان تعلق فى الميزان . يمكن أن يعلق الناس فى المشنقة ، فلا أجرأ على الجدال فى ذلك ، فقط ان تكون الحبال كافية . اما قضايانا ، فلا يمكن ان تعلق فى الميزان ، فانه لن يتحمل القذارة . كم تريد ؟

نظر يفغينى بافلوفيتش الى المشترى بطرف عينه . كان انفه المعوج ما يزال يمسح العلبة .

وجاءت الكلمة بسهولة وبثقة :

– خمسمائة .

بينما فكر مع نفسه : «يمكن ان انزل الى المائتين» .

الا ان المشترى وضع العلبة فى جيبه بشكل غير متوقع ، وقلب ذيل فروته ، وعدّ من محفظة النقود المنتفخة بحافتها المقطوعة اثنتى عشرة ورقة خضراء وورقة واحدة من عملة كيرنسكى .

– خذ ! نقودى كثيرة ، ولا عندى احد اتركها له . ولا انوى ان انجب اطفالا فى الوقت الحاضر .

لف الزحام صاحب الفروة بين طياته . حرك يفغينى بافلوفيتش رجليه الخدرتين ، وشق طريقه الى قسم الاطعمة من السوق .

اشترى كيسا من الدخن ، وشحم خنزير مقددا ، وحنطة سوداء ورغيفا من خبز الجودار وخمس كعكات بيض . وبعد ان قرر ان يفرغ ما فى جيبه اشترى ايضا علبة من السكرين الالمانى ، وثمن رطل من بدل القهوة ، واتجه الى البيت .

الفصل الثالث

كان البحار فى عطفة ليتينى قد غادر مكانه ، وكانما لم يتحمل الهبات الشديدة للريح التى كانت تزداد عصفا بشكل جنونى ، وتهدر فوق المدينة .

وكانت الورقة المطبوعة الملصوقة على الجدار فى الجادة قد انخلعت من حافتها ، واندست الريح تحتها وقبتها مجاهدة ان تخلعها كليا من الجدار ، وتديرها فوق البيوت .

فى البداية مر يفغينى بافلوفيتش بالورقة غير مكترث ، ولكنه توقف قبل ان يخطو عشر خطوات . فان شعورا غريبا امسكه عن مواصلة السير . فقد تخيل ان شيئا مهما جدا مستعجلا لم يقم به . وعندما استمع الى وسوسة هذا الشعور المبهم اضحى واضحا ان هذا الشعور يدفعه الى الوراء ، الى الورقة المخلوعة .

وارتسمت على وجه يفغينى بافلوفيتش حيرة حذرة ، بينما نقلت رجلاه جسده الى الورقة ، وامسكت يده بالحافة المخلوعة ، وضغطتها على الحائط . انقلعت الورقة واخذت تضرب الحائط بضراوة اشد .

ابتسم يفغينى بافلوفيتش ابتسامة هازئة ، وامسك بالورقة مرة اخرى ، ودون ان يفكر بالسبب فى ذلك ، بصق على حافة الورقة ، وضغط بصلابة على الغراء الذى لم يجف بعد . والتصقت الورقة .

ونظر يفغينى بافلوفيتش بارتياح هادئ الى الورقة ، وابتعد .

كانت تطل على البيوت المقشرة الناحلة اللون ، وعلى الريح الهادرة ، وجسر ليتينى الاحدب فى نهاية الجادة ، سماء خريفية هشة عالية مخضرة كمغرفة جليدية ، وقد مسحها فى الاسفل شفق مصفر سام . وكان سرب من الغربان المروعة بنحيبها الزاعق يبقع خضرتها المتدفقة شآبيب . وعلى بعد اذرع من يفغينى بافلوفيتش ، وسط الرصيف رقد حصان عربة محلول يحتضر وقد طوى قائمتيه الاماميتين ومد قائمتيه الخلفيتين كعصوين .

وتجمعت حوله جمهرة من العاطلين اللامبالين . وقد وقفوا متزاحمين خافضى الرؤوس ، وكانما كانوا خائفين من وجودهم فى هذه المدينة الجليدية المحتضرة ، وزفرات الحصان الاخيرة الساحبة فوق ضلوعه المدورة شعرا مشعثا مشبعا بعرق بارد كانما كانت تنبئهم بالساعة التى سياتى فيها الموت اليهم ايضا ، الى الذين ما زالوا قادرين على الرؤية والسمع .

وكان الحوذى الفنلندى يحوم عند بوز الحصان ، وهو ما يزال ممسكا فى قبضته طرفى العنانين اللذين لم تعد بهما حاجة . ولما مر يفغينى بافلوفيتش لاحظ ان عينى الحوذى خضراوان باردتان كالسماء ، وفيهما تتجمد دموع رجولية شحيحة .

حث يفغينى بافلوفيتش خطاه ، ولما وصل الى مدخل بيته تنفس الصعداء . دق الجرس واستمع وراء الباب خفى بيلاغيا الفرانيين الخافقين بحذر . ودون ان تفتح الباب سالت يفغينى بافلوفيتش عدة مرات عما اذا كان هو الطارق .

وشدد التأخير من الانزعاج المتراكم غير الواعى .

– هل أصبت بالصمم ، أيتها العجوز ؟

سأل وهو يلقى معطفه وقبعته ، واندهش حين لاحظ

الاضطراب فى عينى العجوز ، وراء الجفنين المحمرين المنتفخين .

اخذت بيلاغيا تطرف وتتمتم :

– لا تغضب ، يا حضرة . اخذنى الفزع . عندما كنت غائبا ، قتل اللصوص الشيد لوباتشيفسكى .

فصرخ يفغينى بافلوفيتش :

– كيف ؟ !

حتى ان ركبتيه ارتجفتا ، وكأنما انحلت مفاصلهما ، فاضطر الى الاتكاء على المشجب للتوازن .

– كيف قتلوه ؟

اعتمل الغضب فى العجوز فجأة .

– كيف قتلوه ؟ . . . هكذا ، قتلوه ، يا حضرة . ذهبوا الى الطابق الرابع ، ودقوا الجرس وسألوا عن سيرغى بيتروفيتش ، وكان قد خرج من توه . وطلبوا نقودا . وهو يصيح . وهم بالمشدشات . وبعدها نزلوا من الدرج واختفوا وكأنما ابتعلتهم الارض . وتراكض الشاكنون ، ووجدوه غارقا فى دمه . رفع راسه فقط ، وقال «قتلونى» ومات .

تغلب الجنرال على الضعف المفاجئ . ولم يبق الا مذاق معدنى مقزز فى فمه ، وكأنما مضغ رصاصة .

اخرج مشترياته ، وغمغم فى صوت خفيض ، وهو يقدمها الى بيلاغيا :

– فى الموت نم فى قبرك هادئا . وفى الحياة تمتع بهانئا .

– ماذا ، يا حضرة ؟

– اتحدث مع نفسى ، يا بيلينكا ، ابحث عن تبرير لوجودى . من الافضل ان تطبخى عصيدة . فالاكل ضرورى ، على اية حال ، ولو كان غير نافع .

ودخل غرفة مكتبه ، ونحى المقعد من الطراز السلافى القديم امام المكتب ، وجلس وحاول ان يتصور لوباتشيفسكى الميت حيا . ولم يفلح . ولسبب ما لم يخطر فى ذاكرته غير غلاف فيولونسيل * الراحل (كان لوباتشيفسكى يعزف فى فرقة

---

* آلة موسيقية تشبه كمانا كبيرا (المترجم) .

الاوبرا) متذكرا حتى اصغر الخدوش عليه ، حتى الزخرفة الفضية للحرفين الاوليين من اسمه واسم عائلته : «س . ل .» .

اما سيرغى بتروفيتش نفسه فكأنما غلف بورنيش رمادى عكر ومن تحت الورنيش لم يكن يبدو غير اذنه اليسرى التى قضمها كلب فى الطفولة .

قلص عينيه ، وهز راسه ليتخلص من صورة الراحل المورنشة .

من الرواق انبعث رنين الجرس ، وشحطت بيلاغيا بخفيها . ووثب الجنرال ، ومشى قفزا الى ركن غرفة المكتب ، وقلع خشبة من الباركيه ، وضغط على المسدس الذى اخرجه من تحت الباركيه ، واقترب من الباب وتسمع .

من الرواق تردد صوت ارانداريتكو غليظا . غضن يفغينى بافلوفيتش وجهه ، ودس المسدس فى مكانه ، واعاد الخشبة وطبطب بقدمه عليها .

اندفع المهندس بخطى الفيل لاهثا :

– هل سمعت ؟ حول سيرغى بتروفيتس . هذا شىء مستحيل – ولطخ يد يفغينى بافلوفيتش بلزوجة كفه الضخمة بشكل غير طبيعى ، وانهد على الكرسى – الى اين نحن سائرون ؟ ها ؟ فى وسط المدينة ، فى وضح النهار يقتل شخص .

صمت يفغينى بافلوفيتش متمعنا النظر فى حذائه .

– وتصور – واستدار ارانداريتكو ، وصر المقعد – استدعوا رجال ميليشياهم . وجاء ثلاثة حمير ، يديرون بعيونهم ، فاسالهم : «أهذا ما يسمى بسلطة العمال والفلاحين ، ما داموا يقتلون انسانا فى الساعة الثانية ظهرا ؟» فيجيبون : «عندنا قلة فى الرجال» . فاقول لهم : «اذن ، لم يكن هناك داع لتمسككم بالسلطة ، اذا كانت عندكم قلة فى الرجال» . فيحدجنى احدهم بعينيه : «القضية ليست من شانك ، يا رفيق» ها ؟ اخسا ، اوغاد !

اجاب الجنرال بغير ما رغبة ، ناقلا بصره من حذائه الى وجه المهندس .

– الامر صعب عليهم .

– يعنى أنا لا افهمك ، يا يفغينى بافلوفيتش . هكذا

انقلبت ، وارجو المعذرة ، خائفا اما تسامحا لكل شيء او قبولا بكل شيء .

كانت عينا المهندس الجاحظتان بسبب تضخم الغدة الدرقية البادئ ، اشبه بعيني الضفدعة الجاحظة الخضراء ، وهو نفسه في جلسته على المقعد كان اشبه بالضفدعة ، مذهولا معوج الرجلين . وفجأة بزغت فكرة خبيثة : «ماذا لو ينق ويقفز ؟» .

وبسبب ذلك ، وقبل ان يرد ابتسم واخذ يتكلم كاتما ابتسامته :

– قبول بكل شيء ؟ اظن انك قلت الحق . ليس قبولا بكل شيء ، بل تقبلا ، اذا اردت ذلك . فهو موجود هنا – ومس الجنرال الجنب الايسر من صداره الرمادي في موضع القلب – في واقع الامر يوجد شيء من هذا القبيل . العقل يقول «لا يجوز» اما هذا فيهمس «انفذ الى جوهر الأمر» . في الايام الاولى اردت الرحيل الى الخارج . فتوقفت . أتدري ما الذي اوقفني ؟ فكرت مع نفسي : «حسنا ، سأرحل ولن أرى بعد الآن هذا السياج الروسي المائل ، ولا الكوخ الواهن ، ولا اشجار البتولا ، ولا الدرب الريفي الوعر ، بل ستكون حولي اسيجة نظيفة بلا هوية ، وقد علقت عليها لافتات «هنا يجوز» و«هنا لا يجوز» . وهكذا لم أستطع الرحيل . من الافضل أن يكون لك شيء يخصك ولو كان قذرا أعوج ، بليدا ، يعذب الناس ويعذب نفسه معهم . . .

قاطعه ارانداريتكو :

– يعني ، انت تعترف بهم ؟

مشط يفغيني بافلوفيتش لحيته عدة مرات . ورد على السؤال بصورة غير مباشرة .

– هذا ما لا استطيع ان اوضحه حتى لنفسي بشكل دقيق . فعليّ انا ، وليس على غيري ان اصوغ صيغا دقيقة . انني بروفيسور حقوقي ، ومع ذلك لا أستطيع أن أجد الصيغة الملائمة . انا لا استطيع ان اقول انني اعترف بالجديد كما كنت اعترف بالقديم ، ولكن لا اقف ضده . لن اكون عدوا . أنا عابر . . . مراقب . بل واحيانا يبدو . . . حسنا ، اليك هذا الحادث الغريب . في جادة ليتيني شعار . ارهاب احمر . الموت للبرجوازية . يعني الموت لي ، الموت لك . يبدو كان بالاحرى ان

اغتاظ . ولكن لم اغتظ . فان لهم ايضا الحق في الدفاع عن أنفسهم .

– أتقصد محاولة اغتيال لينين؟ لم تنجح ، – قال المهندس المأسور بأفكاره .

– انا سعيد لانها لم تنجح – قال يفغيني بافلوفيتش بحنق – ان هذا الارهاب وضاعة ، شناعة من جانب الناس . والارهابيون في تسعين بالمائة وضيعون ، والعشرة الباقية مضطربون عقليا . لا يستطيعون التفكير بعقولهم فيستعملون القنبلة أو المسدس وهم لا يفهمون ان مجرى التاريخ لا يمكن ايقافه برصاصة . والذي يحصل هو وضاعة عارية او حماقة . في شبابي ، عندما كنت مساعدا للمدعي العام في سيباستوبول اصطدمت بشابين غرّين القيا قنبلة على آمر وحدة . وكلاهما في السادسة عشرة ، ودماغاهما ما زالا طريين . نظرت اليهما ، وامتنعت عن اتهامهما . فماذا أطلب من غرين غير ناضجين ، على أن هذين الغرين قد ادار راسيهما الاوغاد الكبار ، واختفوا وراء ظهريهما . اطلقوا النار على لينين ! ليست لدى الاشتراكيين الثوريين القوة على مقارعة فكرة غيرهم . فوجدوا رذيلة هستيرية ، ودسوا في يدها مسدسا ، وتواروا هم عن الانظار . أوغاد !

ومرة اخرى صر المقعد تحت ارانداريتكو .

– انت مريض تماما ، يا حضرة ، ها ؟ من رأيك علينا ان ننحني ، ونقدم ولاءنا وننسحب قائلين : تفضلوا واحكموا وسنفرش نحن الابسطة تحت احذيتكم . على الارجح انك تتكلم هكذا لأنك روسي ، يا يفغيني بافلوفيتش * . ان اجدادكم ظلوا يدفعون الجزية للتتار ثلاثمئة عام . أما رجالنا فقد كانوا يخوزقون التتار .

واثار صوت المهندس الواثق عزة مدفونة في مكان عميق وبدا من الضروري ان يفحم الجثة المسترخية على المقعد :

– لا تمس اجدادي ، – وارتجت لحية الجنرال – ربما كانوا قد انحنوا للتتار ، ولكن اجدادك في نهاية المطاف اندسوا تحت

---

* في النص الاصلي هذه الكلمات بالاوكرانية (المترجم) .

اذيال اجدادى بحثا عن حماية . بالضبط . اما عن هذه السلطة فقد قلت واكرر اننى سأتقبلها . واذا كان من الصعب تقبلها رأسا ، فان ذلك أيضا مفهوم لى . فأنا حقوقى . ان كل ثورة — وبدأ الغضب يأخذ بنفس يفغينى بافلوفيتش فراح يشدد على نهايات جمله تشديدا قويا — لكل ثورة ابتداع قانونى بالنسبة للمبادئ السابقة . كانت الثورة الفرنسية ابتداع قانونى بالنسبة للاقطاعية ، وهذه بالنسبة للراسمالية . اما الناس من مثلى ومثلك فحيوانات منقرضة ، عبيد التقاليد ، ولهذا لا نتقبل ونرتكب الحماقات .

قال ذلك وابتعد الى النافذة . كانت الريح ما تزال تهدر وراء النافذة . وخيمت على السطوح ظلمة شاحبة عليلة . واستمع بشماتة غير مفهومة لنفسه نخير المهندس الذى نهض بصعوبة من المقعد وراء ظهره .

— اقول لك انت مريض ، يا حضرة . وانت تحتاج الى طبيب . مع السلامة . أرى أن من غير الممكن الاتفاق معك .

صحب يفغينى بافلوفيتش المهندس الى الباب الامامى صامتا ، واغلقه بالسلسلة ، ودخل غرفة الطعام . كان البخار يتصاعد من قدر عصيدة الدخن على المائدة . وكانت بيلاغيا واقفة عند الحائط مصلبة يديها على صدرها الجاف . قال يفغينى بافلوفيتش ، وهو يحرك الكرسى :

— اجلسى ، يا عجوز . سنتعشى سوية . وكما يقال تصادق البروليتاريا مع البرجوازية . ملء الاحشاء عمل خارج الطبقات .

لذعت لسانه العصيدة الحارة الهشة . لعقت بيلاغيا العصيدة من الملعقة ، متمطقة بشفتيها بنهم على طريقة العجائز . نظر اليها يفغينى بافلوفيتش وابتسم ابتسامة هازئة حزينة .

— كل شىء يريد أن يعيش حتى المغرق فى الشيخوخة والذى لا ضرورة له . ويعيش للفضول . . .

وبعد ان فرغ من عشائه ودفع الصحن الى منتصف المائدة ، وعاد الى مكتبه . واخرج من الدرج الاوسط كراسة مربعة ذات غلاف من السختيان الاخضر مملوءة بكتابة متراصة ، واخذ يقلب اوراقها حتى وصل الى ورقة فارغة .

وتناول الريشة وغمسها بالمحبرة ، ثم ازال بظفريه فى حذر خثرة حبر ، فكر قليلا ، وسجل التاريخ فى زاوية ، وتحت التاريخ كتب بخط دقيق متلاصق مائل حاد :

«اليوم خرجت الى السوق لابيع الازرار التى عليها رسم فميدا . وقد بعتها بشكل موفق . لا استطيع ان اغضب على الحياة ، لان المحنة يغطى عليها حب الاستطلاع . ماذا سيحصل فيما بعد ؟ انا لا استطيع التحدث مع ارانداريتكو . ان عدم التقبل يجب ان يكون بمهارة . وذلك ما لا يفهمه . فان له غيظ التاجرة السوقية التى غبنت . نظرت الى المدينة . انها رهيبة ، ولكنها بدت لى أنها لا تحتضر ، بل ، بالعكس ، تتماثل للشفاء بعد مرض عضال ، لان الناس الذين تعود اليهم معافون الآن . وروسيا تتشافى أيضا ، حين تموت القشرة وتنسلخ» .

ورفع كفه التى حصر الريشة بين اصابعها ، وقارب بين حاجبيه مركزا تفكيره ، وكتب بسرعة ، وكأنما خوفا :

«اومن ، يا ربى ، فاعن عدم ايمانى» .

واغلق الكراسة ، وعندما وضعها فى المكتب سمع وراء النافذة دمدمة محرك سيارة توقفت عند مدخل البيت . وخيل اليه بالحدس لا بالعقل ان السيارة لا تخلو من غرض ، فنهض من وراء المكتب ، وزرر جميع ازرار جاكيته ذات الصفين من الازرار . صدرت دقة جرس فى الرواق قصيرة مرنة . اوقف الجنرال بيلاغيا التى كانت تشحط نحو باب الخروج .

— لا تذهبى ، يا بلينكا ، سافتح انا بنفسى .

وتناول مقبض الباب بلا اكتراث فى مظهره ، بينما قلبه المتعب الذى اتعبته السنون راح يتراقص برنين وحدة . سأل :

— من تريد ؟

ومن وراء الباب صوت متعجل لرجل عجول :

— الجنرال اداموف .

صلصلت السلسلة ، وتدلت ، وراحت تتمايل . ودخل الى الرواق ثلاثة رجال واحدا فى اثر الآخر . وقد تدلت من احزمتهم قرابات المسدسات مكرمشة ملطخة .

وقال احدهم ، وهو ذو معطف اسود ، بلهجة عملية ومضجرة بعض الشىء :

– بأمر من اللجنة الاستثنائية . فامتثل . . .
– تفضلوا .
قاطعه يفغينى بافلوفيتش بأدب ، بل وابتسام .

الفصل الرابع

الناس فى مكان جديد كالصراصير .
فلو أخذت صرصارين من مكانين مختلفين ، ووضعتهما فى علبة سيجار زجاجية الغطاء ، فان الصرصارين فى البداية سيمتلكهما اضطراب محموم .
سيأخذان بالدبيب والرواح والمجيء المضطرب ، وكأنما قد سلقا بماء فائر . ويحومان فى العلبة كلها بلا تدبير ولا غاية . وبعد أن يتعبا من اللعب القبيح يبدأ أحدهما بشم الآخر متلاقيين عند راسيهما ، ويتدغدغان بمجساتهما وكان احدهما يقول للآخر :
– دعنى أتلمسك لاعرف هل انت صرصار ، ومن أى فصيلة ؟
وبعد أن يتشمم احدهما الآخر ينزويان فى زاويتين مختلفتين من العلبة ، ويختار كل واحد منهما مكانا مريحا ، ويقبعان هناك فى سوداوية هادئة ، ثم يأخذان بالتزاور بفتور وعدم اكتراث .
وهذا الحال مع الناس .
فى بادئ الامر بدا ليفغينى بافلوفيتش انه وقع فى قاعة الاجتماع فى بناية المدرسة العسكرية فى ذلك اليوم الذى جلبته فيه أمه المنفعلة للدراسة فيها .
كانت قاعة المدرسة العالية ذات الصفين من النوافذ تزدحم بمئة من الفتيان الصغار ما يزالون فى بناطيلهم القصيرة وقمصانهم الملونة .
كان الاولاد يلتفتون ويختلسون النظر . كان المتهيبون منهم يلتصقون بأذيال امهاتهم ، اما الاكثر شجاعة فقد كان يتقدم بعضهم من بعض يتشممون ويسألون :
– ما اسمك ؟
– من هو أبوك ؟

– اما أبى فعقيد .
– هل عندك ريش ؟
– هل تعرف ان تلعب بالازرار ؟
وبعد ان استجوبوا المعارف الجدد اخذ بعضهم بيد البعض وتراكضوا فى القاعة مرحين متوثبين حتى خرج الضابط المناوب متراقصا مصلصلا بمهمازيه ، ومرر كفه على شاربيه ، وهتف :
– أيها الطلاب العسكريون ، الى صفوفكم !
لقد بدا كل شىء كأنه كان فى بناية المدرسة . لقد كانت القاعة البيضاء ، حيث حشدوا جمهورا مختلف الاصناف من المحتجزين ، بسبب النقص فى المحلات ، تشبه قاعة المدرسة العسكرية شبه قطرتين من الماء . والناس المتزاحمون فيها يشبهون أولئك الصغار الذين جاءوا لاداء امتحان عسير .
وكان الفرق لا يتجاوز ان الاولاد قد كبروا وصلعوا وشابوا ، ولم يكن فى عيونهم الفزع الطفولى العابر ، بل فزع مميت ثقيل لا يتلاشى ولا يختفى .
ولكن الناس ، مثلما فى المدرسة العسكرية ، كان بعضهم يتقدم من بعض ، ويسأل خفية وبصوت خفيض :
– متى اعتقلوك ؟
– وأنا من السرير راسا .
– اما سيرغى سيرغيفيتش فقد عاند . احتدت فى نفسه العزة الاميرية وقال : «لا امتثل الا لاوامر صاحب الجلالة» . وهكذا ساقوه بأخامص البنادق .
– لا ، ماذا سيكون من هذا ؟ ماذا سيفعلون بنا ؟
– أما انا ، فمع ذلك فقد استطعت ان اخبئ المجوهرات .
وكان الاولاد الكبار يلتقون ويتفرقون ، متجهمين شعثاء ، مقطوعين عن الحياة العادية . كانوا ينتظرون الامتحان الاخير .
كان وجه الليل الخريفى الازرق يطل كالابتسامة الجليدية من النوافذ اللامعة للقاعة العالية نافشا اغصان الشجر مثل شوارب الجنود الخشنة .
وبدلا من الضابط المناوب اندفع رجل طويل أهوج الحركة ، نحيل ، ناتىء الوجنتين ، يرتدى معطف جنود ملطخ ، الى الباب المفتوح الذى كانت حراب الحراس تلمع وراء فتحته فى ظلمة

الممر الشاحبة . كان وجهه ممتقعا منورا من الداخل بشفافية الموت الشمعية ، وعيناه الخضراوان الثابتتان تقبعان فى الهالتين البنيتين الداكنتين لجفنيه المنتفختين من الارق .

بسط ورقة ، وقفز بحذاءيه الطويلين على الحرير الابيض لمقعد وثير موضوع عند الباب . واخذ يصرخ :

– قفوا عند الجدار فى صفين ! سنقوم بتعداد . اذا ناديت على اسم ليرد صاحبه بـ«نعم» . هيا ، بسرعة .

ومن صوته المبحوح بعلوه ، الاجش اندفعت جمهرة من الاشخاص الذين لا تقل مراتبهم عن الدرجة الخامسة من تسلسل الرتب – وكانوا متجمعين فى وسط القاعة – نحو الجدار فى كتلة متراصة ضاربين اقدامهم بضراوة ، وكانهم مجندون جدد يدخلون الى الثكنة لاول مرة ، وامتدت كالمادة المطاطية ، والتصقت على طول النوافذ .

وفى صفى الوجوه الممتقعة ومضت العيون المتسمرة بالخدين الشمعيين للرجل على المقعد .

بصق الرجل على الارض ، وقال بجلاء :

– استعداد ! انا قومندانكم . ومن له حاجة فليتوجه الىّ . والآن اجيبوا على التعداد .

ومن السياج البشرى المسمر بمحاذاة النوافذ صدرت نفثات مكتومة ، وسال صوت قصير متكلف الهدوء مخفيا ريبة لا تفصح ، وكانما يخيف نفسه بنفسه :

– ولم التعداد ؟

ابتسم الوجه الشمعى فجاة ابتسامة عريضة .

– للنظام . امن المعقول انك لا تعرف ؟ الا يجب ان اطلب طعاما لكم ؟

وصرخ بصوت عال مانعا عن استمرار الكلام :

– آداموف !

وكان غريبا وغير متوقع ليفغينى بافلوفيتش ان يسمع اسم عائلته العارى المجرد من الاسم واسم الأب * .

بل لم يدرك راسا ان آداموف المجرد هذا قد يكون هو ،

---

* حسب العادة الروسية المتبعة للدلالة على احترام (المترجم) .

صاحب السيادة ، اللواء ، الاستاذ فى اكاديمية الحقوق العسكرية .

ولهذا السبب لم يجب ، ومن حيرته مرر عينيه بصفى الوجوه باحثا عن آداموف آخر مختلف . الا أن نظرات مماثلة فى تساؤلها وارتباكها قد اطلت من هذين الصفين .

سأل القومندان :

– الا يوجد آداموف بينكم – ثم كرر – آدا . . مو . . ف !

قذف يفغينى بافلوفيتش بـ«نعم !» ويداه قد سقطتا على درزى بنطلونه ، وصدره مستقيم ، كما كان يفعل أثناء التعداد فى المدرسة العسكرية أيام صباه .

ونظر القومندان شزرا .

– ماذا بك ، يا عجوز ؟ اتحسب اننى سانادى كل واحد مرتين ، وهل تكفى حنجرتى لذلك طويلا ؟ اذا كنت جنرالا مدنيا ، فلا بأس ، ولكنك عسكرى ويجب أن تفهم .

وبعث صوت القومندان المتعب المزدرى فى نفس يفغينى بافلوفيتش ارتباكا منسيا منذ زمان بعيد من توبيخ الرئيس . خفض راسه ، واحمر وجهه . ولم يعد الى نفسه الا بعد أن سمع الاسم الثانى :

– ارخانغلسكى .

فى نهاية التعداد صاح القومندان بصوت مبحوح وبارتياح واضح الاسم الاخير :

– ياكونتشيكو – و – وف !

غمغم بجفاف شخص شبيه بمومياء فرعون محنط :

– نعم .

قفز القومندان من على المقعد .

– من البداية الى النهاية . الجميع حاضرون . مائة واثنان وثمانون – ومسح بكمّ المعطف شفته العليا العرقة واضاف – والآن ، هيا ، يا اخوان ، لتعبئة الزكائب بالقش لتكون حشايا . العمل يحتاج الى عشرين رجلا .

وتفكك السياج الذى كان عند النوافذ ، واخذ يتنفس ، وتفرق فى القاعة .

وزعق فى وجه القومندان الشمعى صوت عصبى يقطر صفراوية :

– وأين الاسرة ؟

تراجع القومندان ، وتأوه مستغربا .

– اسرة ؟ لم تجهز لكم اسرة . سيكون النوم على الارض طيبا . انا نفسى منذ اربع ليال انام فى دولاب . ولم الاسرة لكم ، ربما انتهت من حياتكم فرصة النوم على سرير . ناموا على الارض بلا ضوضاء .

واخذ جمهور الناس من ذوى الدرجة الخامسة وأكثر يتململ .

وتدحرجت على القومندان كرة هائلة للعبة الفروسية ، وتحت الكرة رجلان فى سروال عريض . وكانت الكرة من الاعلى متوجة براس بنى اللون له شفتان بارزتان . كانت الكرة برتبة عالية وحاصلة على لقب شيخ فى مجلس الشيوخ .

صرخ ذو الرتبة العالية بصوت طفولى عالى الطبقة ملوحا بذراعين قصيرتين كانتا تتطايران كقطعتين من النقانق مربوطتين الى الكرة :

– على الارض ؟ نستلقى على الارض ؟ لمن الكلام ؟ لى ؟ انا الموظف الكبير ؟ ارمنى بالرصاص ، ايها الوغد ، الجلف القذر . اتريدنى ، انا العضو فى مجلس الشيوخ ، والحائز على وسام الكسندر نيفسكى ان اضطجع على الارض ؟ طوال حياتى لم انم على الارض ، فافهم ذلك يا معتوه !

استدارت عينا القومندان المحاطتان بالهالتين البنيتين ، امارة على الغيظ ، وانتفخت بالدم العروق على بياضيهما . وسأل بثقة :

– لا تضطجع ؟ ستضطجع ، واللعنة على امك . ستضطجع على البراز ، وتتغطى بالروث . لم تنم . وهل نمت انا ؟ انا ايضا ، ربما قد تعودت على ان انام على سطح الموقد الروسى فى القرية . اما الآن فانا اتمرغ كالجرو الصغير . فتمرغ انت ، يا ابن الملعونة .

صرخ الموظف الكبير :

– لا تجسر على رفع الكلفة ، يا وضيع .

وضع القومندان يديه على جنبيه ، ونظر الى الموظف الكبير

شزرا وبابتسامة متهكمة . انشطر قطيع الناس الى قسمين ، قسم ، وهو اكبر ، تراجع الى زاوية ، والثانى ، وهو اصغر ، احاط بالقومندان والموظف الكبير مدمدما مزمجرا .

– يجب أن تكون لنا اسرة !

انتفخ الموظف الكبير من تدفق الدم المرضى ، وامسك بالمقعد الذى كان القومندان يقف عليه اثناء التعداد ، ورفعه بحركة عالية ، وضربه بالارض . تطايرت الارجل فى الهواء ، واصابت واحدة ركبة القومندان ، فصرخ هذا ووضع يده فى جيبه .

تفرق القسم المدمدم كحبات الحمص . ووقف الموظف الكبير والقومندان وحدهما متواجهين . وببطء تسربت الحمرة الكدرة من خدى الموظف الكبير المنتفخين ، ولاح على شفتيه ازرقاق كدر . اخذ القومندان ينبش فى جيبه بأصابع لا تطيعه حتى لمع الفولاذ الاسود لمسدس «ناغان» لمعانا كامدا باردا . وارتفع «ناغان» الى مستوى وجه الموظف الكبير .

صرخ شخص فى الركن ، وقد نظر الى شفتى القومندان الملتويتين ، والى حدقتيه الغائرتين فى عمق كعمق فوهة المسدس .

امتد كم رمادى فى الهواء ، واستقرت يد صغيرة جافة على كف القومندان المرتعشة القابضة على المسدس .

وقال صوت خافت :

– لا حاجة لذلك . . .

ادار القومندان راسه ، والتقى بنظرة حارة يرسلها رجل فى سترة جنرال رمادية . وخفتت عينا القومندان .

تساءل القومندان بضيق ، ولكن بصورة اهدأ :

– لماذا تتشبث بى ، يا عجوز ؟

كرر يفغينى بافلوفيتش :

– لا حاجة لذلك .

انزل القومندان المسدس ، وارسل شتائم ، الا ان يفغينى بافلوفيتش ، دون ان يسمعه ، التفت الى المتزاحمين عند الجدار .

– يا سادة ، دعوا بعضنا لا يثير بعضا . القومندان لا

يستطيع ان يخرج اسرة من مص اصابعه . واذا اردنا ان نطلب شيئا وجب علينا ان نفعل ذلك بشكل منظم وبأدب . اما الآن فعلينا ان نملأ حشايا . فمن يذهب ؟

قال القومندان ، وهو يحشر المسدس فى بنطلونه :

– هذا هو الصواب ! عجوز مستقيم . بالطيبة يمكن ان يفعل كل شىء ، فانسوا الصياح ، ايها السادة الطيبون . أجمعوا فريقا لحشو الزكائب .

اجتمع جمع عند الباب . واحصى القومندان الفريق بنفسه وقال :

– هذا يكفى ! اما انت ،يا ايها العجوز صاحب الدماغ ، فستكون فى الوقت الحاضر مراقب الزنزانة . حافظ على النظام لكيلا تحدث اية ضجة – وربت على كتف يفغينى بافلوفيتش .

خرج الفريق الى الباب . حرك الموظف الكبير شفتيه المنتفختين بعد أن التقط انفاسه ، ولمز يفغينى بافلوفيتش قائلا :

– انت متملق ، يا جناب المحترم ! أتريد ان تكون آمرا احمر ؟ أخدم لتستحق حبل المشنقة .

نظر يفغينى بافلوفيتش الى خدى الموظف الكبير اللذين لم يهدآ بعد . واحس بشفقة عليه . وفكر مع نفسه برقة وبلا حنق .

«اها ! على صدرك وسام الكسندر نيفسكى ، وفى رأسك ما لا يكفى لوسام «آنا» من الدرجة الرابعة» .

الا انه لم يقل شيئا بصوت مسموع .

حث القومندان على الخروج بسرعة . وقال للجنرال مبتسما بتعب ابتسامة هازئة .

– هيا ، يا اخ !

وبعد ساعة استقروا على القش الهش فى الاركان كالصراصير . الموظفون الكبار مع أقرانهم ، والاصغر منهم مع امثالهم ، والعسكريون مع العسكريين ، وكالصراصير زحف بعضهم لزيارة البعض الآخر .

كان من اللذة ان يمتد الجسد المضطرب على القش . ولما رتب يفغينى بافلوفيتش القش ليصبح اكثر اراحة ، قال لجاره :

– حوادث طريفة ! . .

بسط الجار ، وهو برتبة عقيد متجهم بلون المصاب بالملاريا ، بطانيته بصمت . وأجاب بلا رغبة :

– ربما هى طريفة ، ولكن اعتقد ان الامر لا يطول بالنسبة لنا .

اجاب يفغينى بافلوفيتش :

– سفاسف ! انا لا اخاف الموت مطلقا . والشىء المحزن فقط اننا لن نرى المستقبل . ذلك محزن جدا !

– لا يستحق أن يرى . مستقبل قذر ، يا صاحب السيادة .

رد يفغينى بافلوفيتش ، وهو يعدل المخدة :

– لا يمكن ان تقول ذاك . المستقبل رائع دائما ولا يهم لمن يدير وجهه .

الفصل الخامس

من الليالى التى قضيت فى القاعة العالية انغرزت فى الذاكرة الليلة الخامسة الى الابد . انغرزت بقوة حتى الصغائر منطبعة ذكراها كجمد ثاقب حاد .

فى الساعة العاشرة مساء استلقى يفغينى بافلوفيتش على حشيته بعد أن قدم للقومندان قائمة بحصص الطعام . غالبه التعب . لقد كان الجنرال لم يستطع ان ينال قسطه من النوم فى لغط وفزع تلك الايام ، فكانت جفناه تنسبلان على عينيه كمخدتين صغيرتين . انتهى يفغينى بافلوفيتش من تدخين لفافة لفها جاره العقيد ، ووضع تحت راسه كفه الجافة ، وغفا فاتحا فمه ، صافرا بأنفه كالطفل الرضيع .

وارتفعت باتجاه السقف لحيته مفضفضة بلون كامد .

حلم فى نومه القلق الخانق بأنه يرقد فى غرفة الطعام فى شقته ، يرقد فى مهد لطيف مزين بعقد حريرية زرقاء يرقد طفلا صغيرا له شهران من العمر ، ولكن له وجها هرما كوجهه الآن ، تتحرك تحت غطاء لحيته . وكان يغطيه ، بدلا من لحاف الاطفال الصغير غطاء سرج خيطت عليه نجوم وسام «اندريفسكى» ، بينما كان لم يكن يرتدى صدار طفل ، بل بزة

جنرال كاملة مع الاوسمة ، وعند المهد تجلس بيلاغيا العجوز في سترة جلدية لامعة ، تهز المهد بيدها المتغضنة ، بينما تخلع بالاخرى الاوسمة واحدا بعد الآخر ، وترميها ، كما ترمي الحشرات بنقرات قصيرة مشمئزة . وتقول ليفغيني بافلوفيتش :

– اية قشرة نمت لك ، يا مريضي . ومن اين لصقت بك هذه ؟ . .

ويريد يفغيني بافلوفيتش أن يجيب المربية بأنه سيأتي زمن وتسقط فيه القشرة ، ولكن لا تخرج من فمه كلمات بل صرخة رنانة :

– اووووا .

نفض يفغيني بافلوفيتش رأسه ، واستيقظ ، واتكأ على مرفقه .

ما زالت الصرخة ترنّ في الهواء غير ان يفغيني بافلوفيتش لم يفهم ما حدث الا بعد ان صاح القومندان للمرة الثانية وهو واقف عند الباب :

– انهضو و و و ا !

وكما في المساء الاول التصقت مرة أخرى على الجدران المادة المطاطية ، وتوهجت كفوانيس الجنائز العيون في الوجوه المرسومة فوق الصفوف من قبل رسام خيالي كئيب يعاني من كوابيس الموت .

لمعت رؤوس الحراب في الباب المفتوح على الممر كأضواء برتقالية كدرة ، وبرزت قبعات الجنود الحمر المدعوكة .

استعرض القومندان الصفوف بعينيه الثابتتين الخضراوين بلون العشب ، وحرك فكه بتعب ، وقال :

– آداموف !

رفع يفغيني بافلوفيتش رأسه المطرق ، ونظر في وجه القومندان ببصر متشبث لا يفوته شيء ، بينما بردت أصابع يديه في الحال وتخشبت .

الا ان القومندان لم يتوقف على يفغيني بافلوفيتش بل مدّ اليه يده بورقة وهو يكشر تكشيرة متجهمة ، وأوعز :

– نادِ على الاسماء . والذي تقرأ اسمه دعه يخرج الى الباب .

نظر يفغيني بافلوفيتش الى الورقة . تضخمت الحروف أمام بصره واهتزّت . نادى على الاسم الاول بصوت ضعيف متقطع ، واذا بالموظف الكبير الشبيه بالكرة للعبة الفروسية ينقلع من الجدار وكان المادة الغرائية التي كانت تشده اليه قد انحلت وفقد بلمحة واحدة الاتصال الحي بالباقين . سار مفكك المفاصل يجرجر قدميه بثقل نحو الباب ، وقد كلفته هذه الخطوات الخمس عشرة من العناء الكبير ما لم تكلفه المسافة التي قطعها في حياته غير القصيرة . وقد كان ذلك واضحا من الطريقة التي كان يضع فيها قدميه على الباركيه القذر ، بثقل وتخلخل .

كان البنطلون الرمادي العريض يلتف حول رجليه ، وكأنما يحاول أن يوقفهما ، بينما رجلاه تحت البنطلون كفتا عن الانثناء ، فكانتا كالميتتين .

ووراء الموظف الكبير خرج آخرون ضائعين أيضا ، ومنقطعين عن الحياة بلمحة واحدة أيضا وبطريقة مرعبة ، وقد رأوا وراء ظلمة الممر الكدرة ، وراء الومضات البرتقالية لحراب الجنود الحمر الخواء الاخير المحتوم .

كانت القائمة تحتوي على سبعة وعشرين اسما ، وكان لهؤلاء السبعة والعشرين اسما سبعة وعشرون قلبا يخفق خفقانا مروعا ، ويقلص عضلات جرابيه ، وكأنما قد مسه فعلا رأس الرصاصة الحاد الحار .

انزل يفغيني بافلوفيتش القائمة التي قراها ، وراح يترنح وينظر الى السقف ليتحاشى النظر الى تلك الوجوه والعيون . وسقطت الورقة من بين اصابعه ، وتقلبت اثناء سقوطها مرتين ، واستقرت على الارض .

نطق القومندان بصوت لا رنة فيه ، وهو يعدل وضع الحزام على معطفه مدحرجا مقلتيه الى زاوية :

– اخرجوا الى الممر . ولا تاخذوا اشياءكم معكم . لا حاجة .

صمتوا .

وقفوا بلا حراك مثبتين نظراتهم على الباقين .

– قلت لكم ، اخرجوا !

صاح القومندان ، وخيل الى يفغيني بافلوفيتش ان صوته

سيتقطع فى اللحظة التالية ، وينفجر من الالم غير المحتمل حتى بالنسبة للقومندان نفسه .

عند ذاك اخذت الاقدام الرصاصية تطبطب منقلعة عن الارض بثقل ، وصاح أحد الخارجين بصوت عال رهيف :

– وداعا يا سادة ، لا تذكرونا بالشر ! . .

وكان الصياح كان شعاع مصباح كبير نفذ الى النفس المهضومة كاشارة ساطعة تدعو الى الحياة ، وان تكن حياة غريبة لا لزوم لها فى هذه القاعة العالية ، على حشايا القش ، ومع حصة طعام عفن ، ولكنها الحياة الرائعة التى لا تنسى ، – ورفع الموظف الكبير ذراعيه عاليا ، وعبر القاعة الى الباقين بهرولة ، وقلب عينيه ، وغرز اصابعه بسترة احدهم – مثلما يغرز الاطفائى الكلاب بالسطح .

قلص يفغينى بافلوفيتش عينيه . ولطم اذنيه عواء .

كان الموظف الكبير يصرخ ، يصرخ صراخا اجش ممزقا نياط القلب لاهث الانفاس متناثر اللعاب :

– لا اريد ! . . لا اريد ! . . اريد ان اعود الى البيت ! . . الى البيت ! . . لا تمسكوا بى . . . لا اريد ان اموت ! . . خدمت القيصر سبعة وعشرين عاما . . . خد . . . مت . . .

فكّ يفغينى بافلوفيتش رموشه بجهد ، فالتقى بصره ببصر القومندان . كانت حدقتا القومندان الخضراوان قد تحولتا الى كدرة ، وخداه الشمعيان مشدودين على عظمى الوجنتين بتوتر وتسطح ، مثل قماشة على قطعة اثاث .

رفع يفغينى بافلوفيتش يده ، وفتح فمه ، الا ان القومندان استدار فجأة نحو الباب ، حيث كان يراوح المتجمهرون . وهتف بصوت قبيح عال :

– الى الممر سر ، اللعنة على امهاتكم ! – وعندما خرجت الجمهرة الشاحطة باقدامها من الباب . نادى – تيموشوك ! سريدين ! فانكا ! خذوه ، خذوه ، اخذكم الشيطان !

وأمسك ثلاثة من الجنود الحمر بالموظف الكبير .

ان قوة الانسان رهيبة حين تهفو الى الحياة . انتزع الجنود الحمر الموظف الكبير من جاره ، لاوين ذراعيه ، فاكين أصابعه المنغرزة بالسترة ، نافثين ناخرين . وكان الجار نفسه ، وقد

امتقع لونه وارتجف فكه ، يساعدهم فى فك سترته من الموظف الكبير خائفا ان يسحب معه الى ما وراء الباب المشؤوم .

ولول الموظف الكبير وبصق ، وعض اصابع الجنود الحمر ، وانتفخ وجهه ، وصار اشبه بالدملة القرمزية المتهيئة للانفجار ، وقذف كل الدم الاسود المتقيح .

ألقوا الموظف الكبير ارضا وجروه نحو الباب من ابطيه . أمسك أحد الجنود الحمر بقدميه الرافستين الضاربتين الارض بكعبيهما .

وانصفق الباب .

وفى الحال هدأ الجميع وجمدوا فى اماكنهم وكان ذلك بايعاز ، مستمعين بلهفة الى الضجة المتباعدة وراء الباب والصراخ المتلاشى .

وهبط صمت حديدى مرهق مولول فى الأذن بحدة بعد الصياح وكركبة الاقدام . وازدادت الرهبة بسبب ذلك الصمت . وجف اللعاب فى فم يفغينى بافلوفيتش ، والتصقت شفتاه بأسنانه .

سار الى مكانه ، الى حشيته ، وعند ذاك فقط فطن الى ان جاره العقيد ذا الوجه المصاب بالملاريا كان ايضا من بين الذين استدعوا . وبقى على بطانيته الرمادية عود ثقاب محترق وبقية بقسماطة . وقرب البقسماطة تناثر على زغب البطانية فتات دقيق مصفر .

جمع يفغينى بافلوفيتش الفتات على راحة يده بحركة آلية ، ودعكه باصابعه ، ونثره على الارض . وتناول عود الثقاب ، وحكّ منه الراس المحترق ، وكسره ورماه ايضا . وبعد ان فعل ذلك ادرك ببرودة لاذعة خاطفة ان العقيد لن يأكل البقسماط بعد الآن ، ولن يشعل عود ثقاب .

واهتزت اعصابه بسبب ذلك فى جسمه كله مثل ديدان دقيقة .

عض يفغينى بافلوفيتش على شفتيه . ومرقت فكرة سريعة كومضة عود الثقاب : «قتلة ! . .» .

الا ان نفس الابتسامة المرضية الخرقاء زحفت على وجهه فى نفس اللحظة ، وقال الجنرال لنفسه وهو يسحب البطانية على

راسه حتى لا يرى الزنزانة والناس المكبوتين بانفاس الموت :
«شيء متناقض ، يا يفغينى بافلوفيتش ! انت نفسك تحدثت عن الابتداع القانونى ، أيها البروفسور المحترم لتاريخ القانون . فهذه هى اذن احدى الابتداعات للتاريخ» .

ومن الخارج اندفعت الى قاعة الدارة دفعة حادة من ريح الخريف القارسة ، ناقرة على الزجاج بمقياس الحرارة الخارجى المخلوع نقرات متساوقة . فرنّ هذا الصوت مثل قرقعة ترابيس البنادق المسحوبة .

وظل يفغينى بافلوفيتش يسمعه حتى الصباح ، عاضا على شفتيه ، مبتسما ابتسامة هازئة خرقاء ، متسمعا الى همس المؤرقين .

الفصل السادس

كان يفغينى بافلوفيتش كعادته يعلم بجرة قلم على الرادين على النداء أثناء تعداد الصباح . كان ذلك الصباح بداية الاسبوع الرابع من الاعتقال . وقبيل نهاية التعداد طافت امام عينى يفغينى بافلوفتش نقاط رمادية راعشة ذابت فى الحدقتين ببطء مثل مزق من برقع بلون الدخان .

كانت ركبتا الجنرال ترتجفان ، ومفاصله واهية ، ورجلاه معكوفتين قليلا . واتم التعداد ، وكأنه فى حلم ، مميزا بصعوبة وجوه الواقفين فى الصفوف .

خلال الاسابيع الثلاثة انتزعت الليالى الخريفية الموحشة من قائمة الرهائن تسعة وستين شخصا ، خرجوا ولم يعودوا . وقصرت القائمة كثيرا . بعد ان علم يفغينى بافلوفيتش على الاسم الاخير ، طوى القائمة وجلس على الحشية ضاغطا صدغيه بكفيه .

ان الضعف الواهن الذى أرخى القدمين وعشى على بصر الجنرال ونحته كما ينحت الماء التربة تحت السد كان قد بدأ منذ الاسبوع الثانى وكان سببه واضحا ليفغينى بافلوفيتش : لقد كان يجوع .

لم تستطع صحة العجوز أن تصمد لشحة الطعام . لقد كانت

حصة الطعام الميرية أقل مما تمد بالقوة الكافية لتدفئة الدم الذى ميعته السنون ، ودفعه فى الاوعية والشرايين بضخ قوى . كما كانت الليالى الخريفية الباردة تترك أثرها فى رحابة القاعة العالية ، وغالبا ما كان يفغينى بافلوفيتش يستيقظ فى الليالى من القشعريرة الحادة ، ولم ينفعه التفافه بالبطانية من جميع الجوانب .

لقد أخذ المحتجزون الآخرون منذ الايام الاولى يتلقون من أهاليهم ارساليات من الاطعمة . وكان الحراس ينقلون الى الزنزانة كل يوم الاطعمة بالصرر والمغلفات والسلال . وبعض المحظوظين كانوا يتلقون الكثير الزائد ، ومن وفرة الطعام كانوا يستضيفون جيرانهم .

ولم يتلق يفغينى بافلوفيتش اية ارسالية قط . ثم من اين ينتظرها . لم يكن له أقارب فى المدينة ، اما المعارف فالاولى بهم ان يهتموا بانفسهم ، وهم ، على الارجح لم يكونوا على علم بمصير الجنرال . وكانت بيلاغيا العجوز ضعيفة قليلة الفهم جاهلة ، وحتى اذا توفرت الرغبة لا تستطيع التوصل الى سيدها المختفى .

وفى بعض الاحيان ، كان يفغينى بافلوفيتش يقاسم جيرانه طعامهم ، ولكنه كان يفعل ذلك بغير ما رغبة . فقد كان يبدو غير مريح حرمان الناس من نصيبهم ، فكانت اللقم التى يدعى اليها تبدو وكأنما يغص بها حلقومه ، وفضلا عن ذلك فان غالبية المحتجزين كانت تضمر للجنرال سرا واحيانا علانية تامة ، عداء لا يخفى وكراهية .

وكانت تكره يفغينى بافلوفيتش لانه مراقب الزنزانة ، ولانه «يخدم الجلادين» وهو «حانث اليمين والوطن» وغالبا ما كانت تلاحق الجنرال الذى كان يسير فى الزنزانة همسة الاعداء المكتومة والواضحة فى نفس الوقت :

– لاعق البصاق الاحمر يمر .

– خادم البلاشفة .

– وغد ! . .

ذات ليلة جلس الى يفغينى بافلوفيتش عضو فى مجلس الدولة اشيب اللحية كان اسمه يتردد كثيرا فى الماضى غير

البعيد فى اعمدة الصحف مصحوبا بالقاب «الموقر» و«المبجل» و«رجل الدولة المحترم» و«عماد الدولة» .

احنى عماد الدولة على يفغينى بافلوفيتش جمجمته الصلعاء ، وانزلق لمعان المصباح الاصفر على الخواء الوردى كما ينزلق على كرة بليارد صقيلة .

– ارجو ان تعذرنى ، يا صاحب السيادة – قال هامسا قليلا – ولكن يبدو لى انك لا ترى كليا الحالة التى وضعت انت نفسك فيها بسلوكك .

نظر يفغينى بافلوفيتش الى النقطة اللامعة المنزلقة على الصلعة الزلقة . وفجاة تملكته رغبة فى الضحك ، رغبة لا تقاوم ، فكبح بصعوبة التقلص الذى ارعش خديه .

لاحظ محدثه ذلك ، فصار منغلقا لانما .

وسأل بلوم :

– اعذرنى ، ألعلك تجد كلماتى مضحكة ؟

نظر يفغينى بافلوفيتش الى قصبة انفه دون ان يرد . احمر عضو مجلس الدولة .

– كما تريد ، يا صاحب السيادة . ومهمتى هى ان احذرك . فانت نفسك تفهم اية مسئولية ستتحملها انت بالدرجة الاولى حين تعاد السلطة الشرعية .

وقد نطق بـ«السلطة الشرعية» بهمسة درامية ورفع كفه المسطحة الى فوق ، وكانما يؤدى يمينا .

قلص يفغينى بافلوفيتش عينيه فكانتا شقين ، وردّ على محدثه بلهجة كلامه :

– وهل انت واثق ، يا صاحب السيادة بأن هذه السلطة غير شرعية ؟

نظر المحدث بضع ثوان فى وجه الجنرال بعينين مدورتين معروقتين صفراوين ، ثم نهض بحدة ، وبايماءة رادعة ، وغادر الى مكانه مسرعا .

ضحك الجنرال فى اثره ضحكة هازئة خافتة .

وقد تذكر يفغينى بافلوفيتش هذا الحديث الآن ، وبعد التعداد ، حين طافت امام عينيه مزق من برقع بلون الدخان .

استمر يفغينى بافلوفيتش فى جلسته على الحشية برهة

اخرى محاولا بعناء كبح تقلص لاذع فى حنجرته ، وتقزز وشيك . ولكن حاله تردت فنهض ، وبدت الزنزانة عائمة فى غشاء حليبى .

وفكر يفغينى بافلوفيتش «من المحتمل انهم دخنوا كثيرا» وفرر الخروج الى الممر .

وكان يسمح للمحتجزين بالتمشى فى الممر .

كان جندى احمر يجلس فى الممر على مقعد بلا ظهر ، وقد وضع بندقيته بين ركبتيه ، وابرز شفتيه الممتلئتين الشبيهتين بشفتى صبى ، وانكب على قراءة جريدة بمجاهدة .

ألقى يفغينى بافلوفيتش عليه نظرة خاطفة .

وفكر : «فى زماننا كانوا سيعنفون الحارس اذا راوه يقرا جريدة . اما هذا فهو ملتصق بها التصاق ذبابة بعسل . أهذا جيد أم ردىء ؟ جندى متنور سياسيا . أهذا ضرورى ؟ من المحتمل انه ضرورى ، ما دام يقرا . . .» .

وسرحت افكاره وانداحت .

اتكأ الجنرال بمرفقه على بروز فى الحائط ، ورفع يده الى جبهته . التصقت كفه على البشرة الباردة المبللة برشح مقزز . وتعجب ، وارتعب . ولكن قبل ان يلحق بالتفكير فى ذلك سقط البرقع الدخانى مرة اخرى من فوق . وانزلقت كفه على ورق الحائط فى محاولة للاحتفاظ بتوازنه .

ألقى الجندى الاحمر الجريدة ، ووثب حين راى جسدا جافا فى سترة ذات صفين من الازرار حمراء الطيتين يقع على الارض ببطء ودون ضجيج .

افاق يفغينى بافلوفيتش على نفسه فى حجرة معقودة السقف تشبه كنيسة قوطية صغيرة . وكانت جدرانها مزينة بخشب بلوط داكن منحوت . فى هذه الحجرة التى كانت فيما مضى مكتب مالك الدار السابق اقام القومندان مسكنا له .

كانت عينا القومندان الخضراوان تنظران دون ان تطرف الى الجنرال الذى ارقده الجنود الحمر على اريكة جلدية عريضة . وكان فى عينيه قلق انسانى بسيط .

تململ يفغينى بافلوفيتش ، وارسل ما يشبه الزفرة أو الانين . مس القومندان كتف الراقد .

– لا تتحرك ، يا عجوز ، لا تتحرك ، واستلق حتى يأتوا بالطبيب . ما الذى حصل لك ؟

حرك يفغينى بافلوفيتش لحيته وهمهم بصوت مبحوح ، وكانه يعتذر :

– لا ادرى ، حقا . سقطت ، ولا اعرف انا نفسى كيف كان ذاك . وهن رهيب . . .

فسأل القومندان فاركا خده باصبعه :

– وكيف وهنت هذا الوهن ؟ أمن الخوف ؟

وجد يفغينى بافلوفيتش القوة على ان يحرك راسه نفيا .

– لا . لست اخاف . اعتقد اننى وهنت من مجرد قلة الطعام وانا عجوز ، والصحة غادرتنى .

همس بذلك بحزن ، وصار يرثى لنفسه ، ولذلك الزمن الذى ذهب بلا عودة ، حين كانت عضلاته فتية وقوية ، ومعدته تزدرى الجوع .

قال القومندان :

– هكذا ، اذن . ثم على الطعام الحالى حتى الاقل عمرا يشد الحزام على بطنه .

صرف الباب فى مسكن القومندان . ودخل طبيب شاب مصحوب بجندى احمر . وكان ، على ما يبدو ، قد اُخذ من بيته ، وكان مذعورا الى حد يقرب الموت . لم تكن يداه وحدهما ترتجفان ، بل وكان يهتز شارباه الصغيران الاشقران الرقيقان المفتولان الى الاعلى .

قال القومندان مشيرا الى يفغينى بافلوفيتش :

– ايها الرفيق الدكتور ، اعذرنى على المضايقة ، ولكن الامر يحتاج الى ان تشهد كيف ان العجوز فى حالة سيئة .

وتألق وجه الطبيب الذى كان ينظر الى القومندان بقلق . فقد ادرك ان لا شىء يهدده ، ففكّ معطفه بحركة معتادة ، واخرج من جيب معطفه انبوبة سماعة عظمية لامعة . وأمر يفغينى بافلوفيتش قائلا :

– اخلع سترتك .

قام الجنرال طائعا ، وخلع سترته . وفى الضوء المبيض للصباح الخريفى المتقطر بشحة من مشبك النافذة بدا جسمه له بائسا ولا حاجة لاحد به . فقد كان ينضح صفرة مرضية ، وبرزت الضلوع الناتئة من تحت الجلد المرقط بالبثر ، طالعة كاقواس قاسية . انحنى الدكتور ، ووضع السماعة على ترقوة يفغينى بافلوفيتش .

وصمت الحراس من الجنود الحمر الذين كانو يتحدثون بخفوت ، ولبضع دقائق لم يسمع الجنرال غير انفاسه الضعيفة المبحوحة .

سأل الطبيب ، وهو يطوى السماعة :

– كم عمرك ؟

– سبعة وخمسون .

– حسنا ، لا شىء خطير – قال الدكتور وهو يلتفت الى القومندان ، متحسسا فيه شخصية رسمية – فقر الدم ، ونزلة صدرية ، ونقص شديد فى التغذية . الغيبوبة حصلت من الضعف الناجم عن قلة التغذية وانعدام الهواء الطلق . فى عمر المريض . . .

قاطعه القومندان :

– مفهوم . اذهب الى البيت . سنفكر فى شىء ما هنا . الا تكتب له شيئا من الدواء ؟

– لا ، لا حاجة للمريض الى الدواء . الهواء والتغذية المكثفة . ولا شىء آخر .

وانصرف الطبيب . وجاهد يفغينى بافلوفيتش لارتداء سترته . كان يرتجف من البرد ارتجافا متزايدا ، فلم يستطع ان يضع ذراعه فى كمه . ساعده القومندان بشكل آلى ، مفكرا بشىء آخر ، وعندما زرر يفغينى بافلوفيتش ازرار سترته ثبت فيه القومندان حدقتيه الخضراوين وكأنما تنبه الى شىء .

– ما هذا يا عجوز ؟ الآخرون يتلقون من اهاليهم طعاما ، وانت لا . هل نسيك ذوو قرباك أم يخافون أن يطلوا علينا بانوفهم ؟

اجاب الجنرال بوهن :

– ليس لى أحد فى المدينة .

– واين أهلك ؟

– زوجتى توفيت ، وولدى قتل فى زمن الحرب ، وابنتاى متزوجتان فى الجنوب . وهنا كانت تعيش معى مربية عجوز ولا احد غيرها . ولكنها طاعنة فى السن ، وضعيفة البنية وجاهلة ، ولا تستطيع ان تفعل شيئا . بل ومن المحتمل انها لا تعرف أين انا ، وانا لا استطيع ان اخبرها . انا وحيد تماما – قال يفغينى بافلوفيتش بيأس حاد ، ورمق القومندان .

ومرة اخرى راى فى عينيه شفقة انسانية معتادة . وقف القومندان ، وبتقطيبة من حاجبيه غرق فى تفكير . واخيرا سأل :

– واين مسكنك ، يا عجوز ؟

ردّ يفغينى بافلوفيتش :

– كنت اعيش فى شارع زخاريفسكيا . رقم الدار سبعة وعشرون .

وضع القومندان يده على كتف الجنرال ، وتكلم بطلاقة مقصودة ومرح :

– اذهب الى زنزانتك الآن ، وتمدد . وغدا ، عندما افرغ من العمل ساذهب الى عجوزك . واتكلم معها لتجلب لك طعاما .

قال يفغينى بافلوفيتش محمرا :

– شكرا ، ساجشمك العناء حقا . ساكتب لبلاغيا لتبيع اشياء ، وتشترى طعاما .

– لا ، ليس بخصوص الكتابة . انها ممنوعة . اخبرنى وسانقل لها ما تقوله .

فكر يفغينى بافلوفيتش :

– اذن ، قل لها ان تبيع الملاعق الفضية الموجودة فى الدرج الايسر فى الصوان ، ثم علبة للسجائر الذهبية ، وهى تعرف مكانها ، وهذا يكفينى الى أن أموت .

سأل القومندان :

– ولم تموت ، يا عجوز ؟

لم يجب يفغينى بافلوفيتش ، ونظر الى القومندان باندهاش . وفهم القومندان الشىء الذى لم ينطق به ، والذى انتشر ظلا جهما على وجه الجنرال . فابتسم ابتسامة معوجة ، وقال بتأن :

– نعم ، بالطبع . لو كان الامر راجعا لى لاطلقت سراحك

الى حيث تشاء . مخاطرك علينا ، نحن البروليتاريا ، لا تساوى شيئا . واعذرنى لذلك .

صمت يفغينى بافلوفيتش . واحس الاثنان بالحرج ، وانهى القومندان كلامه كصاحب سلطة :

– هيا ، يا عجوز ، عد الى الزنزانة . قريبا سيوزع الغداء .

خرج يفغينى بافلوفيتش الى الممر ، ومشى الى الزنزانة بهدوء ممسكا بالجدار .

الفصل السابع

من لا يتذكر هذا الصابون ؟ كان مذهلا . ولونه البنى الكثيف الغامق كم داعب بلطف عيوننا . فى عام ١٩١٨ ، وفى الاعوام التالية حتى عام ١٩٢٢ ، حين استعاضت الجمهورية عن السيف بالمحراث وبدا الابطال يغسلون ايديهم بصابونة «روند» الناعمة العطرة الكثيرة الرغوة .

وما من مكائد برجوازية تجعلنا ننتزع من قلوبنا الذكرى العذبة عن صابون ١٩١٨ .

كان يعطى ببطاقات التموين للكومونة ، وكان يستلزم الوقوف ساعات فى طوابير التوزيع الكئيبة فى الشوارع المقفرة المغطاة بأكوام الثلج . كان كل واحد منا يشعر ، وهو يتسلم من يدى الموزع ، هذه الكتلة القبيحة بشكلها ، وكانه بلغ القطب الشمالى ، او حل المسالة المهمة ، مسالة اطالة عمر الانسان وكنا نغادر الى بيوتنا غير المدفأة متعثرين بأكوام الثلج ، ساقطين ضاغطين على جنبنا بحرص ، الصابونة المشتهاة .

وغالبا ما كانت تقدم من قبل مؤسسات التوزيع بدلا من الخبز فى الايام التى لم تكن فيها القطارات قد جلبت الطحين . وكانت لهذا التسليم نشوته وحكمته .

والرائحة ! آه ، تذكروا رائحتها . انها خليط فريد لا يضارع فيه رائحة سمك واحذية مصبوغة ، وثقل الخمرة السيئة التقطير ، والنفتالين وحامض الكاربوليك ، والعفن ، وكل هذا الروائح فى تشابكها وتراكم بعضها على بعض كانت تولد رائحة واحدة احتفالية مستثيرة لكل شىء .

وفى الاماكن التى كانت تضم اكثر من عشرة كيلوغرامات من هذا الصابون كانت تفنى جميع الروائح الاخرى فى دائرة يصل نصف قطرها الى عشرين مترا . وانتم تتذكرون انكم حين كنتم تاتون الى بيوتكم محاولين بعناء اشعال الموقد الصغير بالرقائق الرطبة لخشب الصنوبر ، كنتم تحسون فجاة من الزاوية التى كوم فيها هذا الصابون اكواما كاحجار الزاوية لبناء معين ، بالرائحة المنشطة النفاذة الباعثة على الاطمئنان والاحتمال . . .

انحنى يفغينى بافلوفيتش على حوض المغسلة ، وفرك بالصابونة بأناة على الرجل اليسرى لسرواله الداخلى . كان الماء المثلج الفضى ينزل من الحنفية كخط نحيل محبوك كما تسكب القهوة من ابريقها .

كانت ذراعا الجنرال العاريتان حتى المرفقين محتقنتين بالدم ، وكان بخار شفاف يتصاعد منهما .

لقد كان غسل الملابس صعبا . وكان الصابون يترك على السروال الداخلى خطوطا بنية لا تكاد تبين . وكان الماء المتثلج ليس فقط لا ينظف هذه الخطوط بل يبدو وكانما يثبتها على القماش الى الابد .

انتصب يفغينى بافلوفيتش بقامته ، ومسح جبينه بظاهر كفه الرطب ذاهلا . وضع الصابونة ، ورفع السروال الثقيل المتشبع بالماء ، ووضعه تحت الماء ، واخذ يدعكه ويعصره . كانت فى حركات يديه ثقة متانية موفقة ، وكان اسرار غسل الملابس لم تكن غريبة على الجنرال .

وهذا ما كان فى الواقع . عندما اكتشف يفغينى بافلوفيتش ان التبديلتين من الملابس الداخلية اللتين اخذهما معه على عجل اثناء اعتقاله قد اكتسبا لونا كالحا تذكر مشاكسات اعوام الطفولة التى كان غالبا ما يتلقى بسببها تعنيفا من امه . عندما كان غسيل الملابس يجرى فى بيت عائلة آداموف كان يفغينى الطفل ينسل الى المطبخ خلسة وينضم الى الغسالات . وكانت تسلية عملية الغسيل ذاتها ، وغمامة البخار ، والماء الحار الرقيق المترقرق فى حوض الغسيل ، وتلال الرغوة الفقاعية الهاسة ، والايدى المغموسة فيها المتحركة بلطف وعناية .

وكانت الغسالات يغضبن ، ويطردن من المطبخ طالب

المدرسة العسكرية الصغير ، الا انه كان يدس فى ايديهن خلسة الحلويات الماخوذة من غرفة الطعام وقطع النقود الصغيرة ، فتسمح الغسالات للصبى ضاحكات باللعب فى حوض الغسيل حتى تجده أمه فى هذا العمل ، وتسحب ابنها وهو يعاند ويشاغب . وبهذا الشكل كسب يفغينى بافلوفيتش فن غسل الملابس دون كلفة .

زفر ووضع السروال الداخلى فى حوض المغسلة . ثم انحنى ورفع من الارض ابريقا معدنيا مملوءا بالماء المغلى الذى كان من الحصص المخصصة له ، وسد فتحة الحوض بكرة مصنوعة من جريدة ، وصب الماء الساخن .

ذابت ببطء الخطوط البنية التى خلفتها الصابونة على القماش وتلاشت . غمس يفغينى بافلوفيتش يديه فى الماء الساخن ، وعاد الى الدعك بقوة ، مقلصا وجهه ، محركا لحيته .

أخرجت ابتسامة طفولية راضية شفتيه المضمومتين بمجاهدة . ابيض القماش ، واتخذ لونه الاصلى ، وكدر الماء الفاتر واتسخ . وبعد ان غسل الجنرال سرواله رجلا بعد اخرى ، اطلق الماء ، وشطف الغسيل فى حصة جديدة من الماء البارد ، واخذ يعصر . الا أن يديه ارتجفتا من التعب ، وصار الماء يقطر بقلة من القماش المعصور .

صفق الباب وراءه .

– آداموف ! ااانت هنا ؟

التفت يفغينى بافلوفيتش ، ورأى على عتبة الباب الحارس الاحمر بروشكا . كان هذا يبتسم ابتسامة عريضة وينظر الى الجنرال والى البياضة المعصورة فى يديه .

– غسالة ممتازة ! ولكن القومندان يبحث عنك . – واخرج بروشكا جسمه فى الممر وصاح – ايها الرفيق القومندان ! آداموف هنا .

لم يستطع القومندان فى الايام القريبة ان يفى بالوعد الذى قطعه ليفغينى بافلوفيتش فى الذهاب الى شقته ، والتحدث الى بيلاغيا . فقد كان الوقت مضطربا محموما ، اذ جرى فى المدينة تفتيش كبير عن النهابين واللصوص والمضاربين . وفى الايام الثلاثة الاخيرة جلب شقاة جناة بزمر صغيرة . وقد وضع قسم

منهم فى غرفتين مجاورتين للقاعة من غرف الدارة ، بينما سيق القسم الآخر الى القاعة ليحتل مكان الذين اعدموا رميا بالرصاص . واختلط الموظفون الكبار والصغار ورجال الحاشية واصحاب المعامل والجنرالات واصحاب الاطيان بالساطين على البيوت والنشالين ، وقطاع الطرق والمتاجرين بالمخدرات . وحمل الجناة معهم الى القاعة تصرفاتهم المتحللة والسباب الفاحش ، ومع هذا ايضا الثقة والمرح الخلى البال للمغامرين المقامرين بأنفسهم .

وصار الجو فى القاعة اهدأ وانشط . اقترحت جماعة صغيرة من الارستقراطيين السياسيين على بقية المحتجزين الاحتجاج على خلطهم بالمجرمين ، الا ان احدا لم يؤيدهم . فان الغالبية كانت مسرورة بدخول الجيران الواضعين الحبل على غواربهم . فقد بدا كما لو ان الحياة التى ودعت الكثيرين قد دخلت معهم القاعة وعاد اليها رواؤها همة وفتوة .

وانهك القومندان بتوزيع القادمين الجدد ولم يستطع مغادرة الدارة فى تلك الايام .

رمق يفغينى بافلوفيتش وجه القومندان المتجهم وهو يدخل دورة المياه . واحس فورا وبوضوح ان القومندان ينوى أن يقول له شيئا غير مريح . ولم يكن على خطأ فى ذلك .

ألقى القومندان نظرة خاطفة على السروال المتدلى من مرفق الجنرال الايسر ، وازداد تجهم وجهه . وقال بفتور وبلا رغبة :

– انا قادم عليك ، يا آداموف . عندى خبر مسيئ .

قال الجنرال وقد ضغط سرواله على صدره :

– كيف ؟

– الامر بهذا الشكل . ذهبت اليوم الى صاحبتك العجوز . فلم أجد لها اثرا هناك .

فتمتم يفغينى بافلوفيتش بصوت لا يكاد يبين :

– ماتت ؟

وخيل اليه أن يدا قاسية قد اقتطعت بأظافر حديدية قطعة من اللحم من موضع ما فى داخله عند القلب تماما مريقة الدم ومسببة الالم .

– لا ، لم تمت . بل رحلت عجوزك الى القرية ، لانه لم يكن لها ما تأوى اليه ، ولم يرد احد ان يطعمها . وفى شقتك

يعيش الآن اناس آخرون . اى ان لجنة توزيع المساكن على المعوزين قد اسكنت فقراء فيها .

هز يفغينى بافلوفيتش ذراعه بلا حول . وارتفع السروال الى فوق ، وكاد يسقط على الارض لو لم يلتقفه القومندان . ولما امسك بالسروال المبلل نشره على كفه بغضول . وقال مفكرا :

– مغسول جيدا . وكأنما غسالة حقيقية قد غسلته .

وعاد يفغينى بافلوفيتش الى نفسه :

– اعذرنى . . . كيف ذلك ؟ ان فى شقتى أشيائى . . . وثائق . . . رسائل . . أثاثا . كل ما هو عزيز علىّ . اهكذا ممكن حقا ؟

لوى القومندان السروال لا شعوريا بقوة واجتهاد . وانهمر الماء على الارض .

– لكن عصر الملابس بشكل طيب لا تقدر عليه . – قال ذلك ، وبعد ان عصر الماء كله ، عند ذاك فقط اجاب على سؤال يفغينى بافلوفيتش المقلق :

– لقد حصل سوء فهم . والمسألة كالآتى . الساكنون فى البيت ظنوا انك مفقود . وافترضوا انك قد خرجت من دائرة الاحياء . وهؤلاء الناس لا مسكن لهم ، من سكان السراديب . وهكذا انتقلوا . . . ولكن لا تخف – أضاف القومندان مهدئا – سأقول لك سرا : بعد غد ستأتى لجنة من اللجنة الاستثنائية . وستفرج عن بعض وتحتفظ ببعض . وهكذا من الممكن الافتراض بأنهم سيطلقون سراحك نهائيا . . . حسنا ، انا ذاهب لأقوم بشؤونى . . . موفق !

ودسّ السروال فى يد الجنرال وانصرف .

وقف يفغينى بافلوفيتش مصعوقا ، وتدلى السروال من مرفقه بلا حياة .

انه لم يستطع حتى الآن استيعاب ما حصل . وكان يعذبه اكثر من اى شىء آخر رسائل الزوجة المتوفاة والاولاد ، تلك الرسائل المحزومة بشكل جيد والموضوعة فى أدراج المكتب ، والآن تعبث ايد غريبة لا مبالية بالاشرطة ، وتقلب الاوراق المخشخشة ، وتتراكض عيون الغرباء على الاسطر العزيزة على

الذكرى ، ولربما رميت هذه الرسائل غير الضرورية للغرباء فى كومة الزبالة او مداسة او محروقة . اما بقية الممتلكات فلم يكن يرثى لها . لقد كانت تذكارات الماضى وحدها تعذبه .

وأصدر يفغينى بافلوفيتش صوتا ضعيفا كصوت فار أصابه أذى . وسار الى الزنزانة مرنحا . ولما وصل الى مكانه القى السروال على البطانية ، وجلس مقوس الظهر ، وغطى وجهه بيديه . ومن خلال اصابعه ذرفت ببطء مآقيه المنتفخة بالدموع .

كان جاره مستلقيا يدخن لفافة بوداعة ، وقد رفع جسمه قليلا ، ونظر الى يفغينى بافلوفيتش من طرف عينيه بدهشة متنبهة . وصفر صفيرا خافتا ، ومس بكفه كتفى الجنرال المرتعشتين . وسأل بصوت نحيل موصوص :

– ماذا بك ، يا عجوز ؟

أبعد يفغينى بافلوفيتش يده مذعورا ، ونظر الى السائل . كان يحدق فيه وجه منتفخ مشورب . وكان الشاربان يبرزان على كلا الجانبين من تحت الانف المنمش مثل قطعتين لامعتين مساويتين من السجق ، وكأن فوق الشفة العليا قد ألصقت فوهتان سوداوان لمسدس .

حرك الرجل شاربيه بعد أن لاحظ التساؤل المرتسم فى عينيه ، وقال :

– لا تخف ، يا عجوز ! أنا سارق ، واسمى نيكيتا شوروف ولقب «التركى» . حبسونى بتهمة قتل . وسأعدم بالرصاص ، ولكنى مع ذلك لا ابكى . تلك هى حياتنا اللعينة ، يا عجوز ، تعددت الاسباب والموت واحد .

ولمعت العينان القمحيتان المتوثبتان كنارى شمعتين لمعان تهور واستماتة .

وابتسم يفغينى بافلوفيتش ابتسامة تهكمية واجاب «التركى» :

– أنا لا افكر فى الموت ، بل فى شىء آخر .

وتناثرت الكلمات بشكل غير متوقع ولا محدوس كتناثر الحبوب من مستودع الحبوب متحدثا عما فيه ، عن ضائقته وهو فى شيخوخته .

فكر «التركى» قليلا ، وضرب ركبة الجنرال براحة كفه ،

ووصوص بصوته النحيل غير المعقول والغريب بالنسبة لوجهه الغرانيتى العريض الوجنتين وشاربيه الضخمين :

– انا افهمك . دائما يحدث ذلك للمتعلمين . فلا بد ان يكون بسبب عقلهم الكبير او لسبب آخر . يعطون افضل ما لديهم من اشياء دون اية حسرة . ولكنهم يتعذبون الى حد تمزق المصارين على شىء يمس قلوبهم . ما قيمة ، وارجو المعذرة ، رسائل متنوعة وصور فوتوغرافية واشرطة مثلا ؟ تفاهة بالقياس الى الملك المنظور ، وارجو المعذرة . وها انت لا تهمك المتاع والاشياء ، ولكنك تعذب نفسك على رسائل . انا ايضا شهدت مثل هذا الحادث قبل ايام . جردنا ، وارجو المعذرة ، شقة واحدة من الفنانات البارزات . انها تعيش فى جادة فوزنيسينسكى ، ولقب عائلتها تاماروفا ، ربما قد سمعت بها ؟ حسنا ، عبأنا ثلاثة اكياس من المتاع ، المختار ، وارجو المعذرة . واحكم انت بنفسك : فى شقة واحدة اثنتا عشرة غرفة . ولما تهيأنا للانسلال لاحظ زميلى لعبة على شكل قطيطة موضوعة على المائدة من الفضة وبحجم الكشتبان ، والله اعلم ، وثمنها وارجو المعذرة ، فلس ونصف . وقد دسها زميلى فى جيبه . كانت الفنانة طوال الوقت الذى كنا نجمع فيه الاشياء تجلس على الاريكة وليس على شفتيها الا ابتسامة استهزاء . ولكن حالما رات القطيطة قد وضعت فى الجيب حتى وثبت تماما كالكلبة المسعورة ، وارجو المعذرة . وراحت تخمش زميلى فى وجهه وتصرخ : «اعدها يا رذيل !» صراخ وصياح ولا غير . فاقول لها ، وارجو المعذرة ، «عجيب جدا ، باردون ، مدام ، لقد اعطيت لنا الشقة كلها بابتسامة استهزاء ، بينما أنت تضجين هذا الضجيج على فلس ونصف» . اما هى فقد بكت وسحت دموعها المرة ، واجابت من كل قلبها : «أفضل ان تقتلانى ولا تاخذ القطيطة . لقد كانت ابنتى الفقيدة تلعب بها» . وبالطبع ، ورغم اننا لصوص ، الا أن قلوبنا ليست من حجر . اعدنا لها القطيطة ، وخرجنا محملين بالمتاع . وقد اوصلتنا الى الباب بل وقالت لنا شكرا . وعلى اى شىء الشكر ؟ عجيب غريب ، وارجو المعذرة .

وامتص السارق دخان التبغ الرخيص بعمق ، واطلق نحو

السقف مرة بعد اخرى عشر حلقات كثيفة تدخل احداها خـــلال الاخرى .

مسح يفغينى بافلوفيتش الدموع من رموشه ، وبعد ان تابع الحلقات السحرية ابتسم ابتسامة ساهمة طفولية لها وللسارق .

وغمز السارق :

– وانت ، يا عجوز ، لاى قضية احتجزوك ؟ لعداء الثورة ؟

هز يفغينى بافلوفيتش كتفيه . لقد حيره سؤال «التركى» . اذ لم يخطر بباله قط لماذا هو محجوز هنا . فقد كان هناك تسليم بليد سهل لما حدث . ولكن كان يجب ان يقدم جوابـــا «للتركى» ، وحرك استاذ تاريخ القانون شفتيه شارد البال ، ثم اجاب اخيرا :

– لا ادرى . من الصعب علىّ ان احدد سلوكـــى باعتباره معاديـــا للثورة . انـا لم افعـل شيئـا . اذا كان ذلـك عداء للثورة . . . بالمناسبة ، لعلك تعرف ان الصخرة الموجودة فى وسط الشارع ، من المحتمل انها تحسب نفسهـــا غير مضرة ، بينما يرى الناس فيها اعاقة للحركة . اذا تمعنت . . .

قلص «التركى» جفنه الايسر سخرية .

– كلام محبوك ، يا عجوز . وكانك لست جنرالا ، وارجـو المعذرة ، بل استاذ علوم .

قال يفغينى بافلوفيتش مبتسما :

– انا استاذ بالفعل ، ولكن عسكرى .

هز «التركى» راسه ، واطلق الحلقات السحرية من جديـد وقال :

– هكذا ، اذن فعندى معك حديث ذو اهميـة كبيرة ، يـا عجوز . انا مهتم جدا ، وارجو المعذرة . لا تنظر الىّ كسارق ، وارجو المعذرة . ان حياتى لم تسر على السكة الصحيحة ، لم يكن عرض السكة مناسبا ، والا لكنت فى الوقت الحاضر ، وارجـــو المعذرة ، رئيس قسم فى السكة الحديد ، فقد كنت محول سكك . والمحنة كلها فى النظام القديـــم ، فى الفودكا ، وفـى انعدام الخلق ، وارجو المعذرة . وانا اريد ان اطرح عليك سؤالا مفيدا بشان حياتنا . هؤلاء الناس غير المهمين المحرومون من الراحة ، الذين عاشوا فى السراديب ، وارجو المعذرة ، قد فكروا بانهم

لو قاموا بثورة فان الحياة ستسير بارتياح متبادل وعدل تام . وان الذين من امثالكم من الاساتذة واصحاب العقول ، وارجـــو المعذرة ، الذين كانوا يعيشون فى البيوت فـوق سطح الارض يتآخون مع اهل السراديب ، ويبنون معا ، وارجو المعذرة ، حياة حقيقية ، بحيث يعيش الجميع فى دفء . لدى اهل السراديـــب قبضات ، وارجو المعذرة ، ولدى اهل البيوت فوق سطح الارض ادمغة . وفى الامكان ان تقام حياة ممتازة . اما انتم ، وارجـــو المعذرة ، فقد ادرتم لأهل السراديب ابوازكم راسا ، والقيتـــم ذيولكم على ظهوركم لا تريدون ان تتلطخوا بذوى الاسمال . والآن مصيركم أن تقتلوا وتعادوا الثورة . فلم ذاك ، وارجو المعذرة ؟

نظر الجنرال الى «التركى» مذهولا ، وقال بخفوت وكانـــه يستعرض افكاره :

– لم ندع .

بسط «التركى» ذراعيه واخذ يقهقه :

– اعذرنى . ان كلماتك غير علمية ، يا عجوز ، بل كلمات وحشية . يعنى انكم لم تدعوا ؟ . . ولم تستطيعوا بانفسكم ان تذهبوا ؟ يعنى ، لم ترغبوا . هذا تفكير زائف ، وارجو المعذرة . الم تحدسوا بانفسكم بان اخاكم الصغير محتاج الى مساعدة ؟

اجاب الجنرال مرتبكا :

– لم اعرف ، ولا استطيع ان اتحمل المسؤوليـة عـــن الآخرين .

– لم تعرف . ارجو المعذرة – انفجر «التركى» فجاة محركا شاربيه ومصوبا اياهما نحو الجنرال – حتى من الحماقة سماع مثل هذا الاعتراض . انت لم تكن تعرف . اما انا فيمكن ، بسبب عدم معرفتك على ان اصف على الحائط لأرمى ، لانه لم يكن لدىّ من يرشدنى الى الطريق الصحيح . آه ، يا لكم من قصار النظر ، انتم تحلقون بعقولكم فى السماء ، ولكن لا تستطيعون ان تجدوا لكم مستقرا على الارض .

ورمى عقب اللفافة على الارض بعنف ، ولمع بعينيه جهـــة يفغينى بافلوفيتش واستلقى قربه مديرا له ظهره .

وانسل يفغينى بافلوفيتش الى مكانـه ايضا كالجرو الذى ابدى مشاكسة ، محاولا ان لا يحدث صريفا على الواح الارضية

وحاول ان ينام . الا ان النوم لم يراوده . فان فكرة السارق غير المنحوتة كقطعة خشب خام قد اثارته ، فانخدشت نفس الجنرال بالزوايا الخشنة لصدقها المفاجئ المرعب . وتقلب يفغينى بافلوفيتش على فراشه قلقا حتى صاح الحارس الخفير وقد اطل من الباب :

– اجلب الجردل ، لتسلم الغداء .

قفز يفغينى بافلوفيتش ، كما رفع السارق جسمه ، وفرك عينيه . ونظر الى الجنرال مرة اخرى بطرف عينه ، وابتسم بهزء قائلا :

– حسنا ، يا عجوز لا تذكر بالسوء ما دمت قد اطعمت ولو فجلا . لنذهب للاكل . نحن الآن على حد سواء ، وارجو المعذرة . انت استاذ وانا سارق ، ولكننا سوية نغذى القمل فى زنزانة واحدة . ارجو الا تغضب .

– لا اغضب .

اجاب يفغينى بافلوفيتش بهدوء ، وصافح كف «التركى» الخشنة الممتدة اليه .

الفصل الثامن

اخذ «التركى» ليلا ومعه سبعة من المجرمين وقد اخرجوا بهدوء ، ودون مناداة ، فى محاولة لعدم ايقاظ الآخرين . كان القومندان بصحبة الخفير يتقدم من احد المعنيين ويهزه ليوقظه . وبعد ان يوقظه يقوده الى الباب ، ويوقظ الآخرين . عندما اوقظ «التركى» استيقظ يفغينى بافلوفيتش ، ونظر الى خدى القومندان الشمعيين ، وفهم .

وقد احسّ بارتعاش لم يسبق ان اصابه ، وبشفقة مرضية ، وكانما جاءوا لينتزعوا منه اخا كان قد وجده من توه بعد فراق طويل .

كان «التركى» غاطا فى نومه ، ولم تجعله الهزات الا ان يشخر .

سأل يفغينى بافلوفيتش القومندان همسا :

– احقا انكم سترمونه بالرصاص ؟

ارتعش خد القومندان فى عصبية ، وادار نحو الجنرال عينين غاضبتين :

– لا ، سنشرب معه القهوة بالحليب – اجاب غاضبا ودمدم – نم يا عجوز ، فلا تتدخل فيما لا يعنيك .

والظاهر ان انحلالا خائرا قد غزا كيان يفغينى بافلوفيتش كله ، لان القومندان اضاف :

– أهذا موضع شفقة ! نحر عشرين شخصا ، ابن الكلب . مثل هؤلاء الناس يجب ان يعدموا قبل غيرهم لكيلا يوسخوا الارض .

استيقظ «التركى» . كان احد شاربيه بارزا كالسابق مثل فوهة مسدس ، بينما انتشر الآخر على خده كالمروحة . ولم يسأل عن شىء . لف لفافتى قدميه بسرعة ، ولبس حذاءه الصقيل ذا الطيات وقد اربد وجهه قليلا ، وتراكضت عيناه كفارين .

وسأل «التركى» القومندان :

– الى المكان المعهود ؟

أجاب القومندان بتأن :

– ستسأل الرصاصة هناك .

فتل «التركى» شاربه ، ونهض وضحك :

– انها ، أيها الأخ ، تصفر بلا فائدة ، ولا تستطيع ان تحصل منها على جواب .

وفتل شاربيه اكثر ، وغام وجهه .

– آه ، الحسرة على شاربى . عشر سنوات وانا ارعاها .

والتفت الى يفغينى بافلوفيتش .

وشعر بالوحشة المعذبة التى تجتاح كل كيان الجنرال ، فربت على كتفيه مشجعا :

– لا تغتم ، يا عجوز . كلنا سنكون هناك . والآن تقبل منى ، وارجو المعذرة ، تذكارا من قلبى الصافى . . . ظل مرميا فى جيبى . . . لا حاجة لنا به .

واخرج شيئا صغيرا ثقيلا ذا لمعان اصفر كامد ، ودسّه فى يد الجنرال ، وانحنى اليه محييا ، وقبله من شفتيه فجأة . وشم الجنرال رائحة الفانيليا تفوح من شاربى «التركى» لسبب ما .

– اعذرنى ، يا عجوز اذا كنت قد كدرتك بكلمة .

لم يستطع يفغينى بافلوفيتش ان ينظر فى عينى السارق ، ووقف مطرق الراس ، مطبقا كفه اليسرى على الهدية .

واخرج «التركى» . فتح يفغينى بافلوفيتش كفه ، ورأى فيها صورة منحوتة صغيرة لبوذا ، التمثال المنغـــولى . كان بوذا يجلس طاويا رجليه النحيلتين حاملا الحية فى يده ، مبتسمـــا ابتسامة حكيمة لا معنى فيها . وعرف الجنرال من الوزن ولمعان المعدن الرقيق انه من الذهب .

زفر يفغينى بافلوفيتش ، ووضع التمثال فى جيب سترتـه الصدرى ، وانسل تحت البطانية . وفى صمت الزنزانة كان يخيل اليه من حين الى آخر انه يسمع طلقات منفردة ، فكان يرتعش من خلال النوم .

فى الصباح الباكر قدمت لجنة تحقيق مرسلة من اللجنـــة الاستثنائية . وجلبت الى غرفـة القومندان قوائـــم المعتقلين ، وصاروا يستدعون واحدا بعد آخر . وفى الساعة الثانية عشرة جاء دور يفغينى بافلوفيتش لدخول غرفة اللجنة .

كان ثلاثة اشخاص يجلسون وراء مكتب القومندان ، احدهم جورجى يتفشى الشيب فى شعره . كانت عيناه الجنوبيتـــان الحارتان تتقلبان بجنون فى محجريهما وبياضهما يلتمع لمعانـا ازرق .

سأل باقتضاب مثل صوت شق فى جنفاص :

– اسم العائلة ؟

– آداموف .

– الرتبة فى الجيش القديم ؟

– لواء ، استاذ فى الاكاديمية الحقوقية العسكرية .

– هل كنت مدعيا عاما فى محكمة عسكرية ؟

– كنت مرتين .

قلص الجالس الى يمينه عينيه ، وكان اشقر ضئيل الجسم يتعذر كليا حزر عمره من وجهه (فى الامكان بنفس النسبة من النجاح اعطاؤه عشرين واربعين من العمر) وتدخل فى الاستجواب :

– اسم عائلتك آداموف ؟

– بالضبط .

اجاب يفغينى بافلوفيتش كما يجيب الجنود .

– حسنا ، اذا لم تخنى الذاكرة ، كان فى عام ١٩٠٥ فـى سيباستوبول مدع عام يدعى آداموف . فهل تربطك رابطة به ؟

أجاب الجنرال : – انه أنا .

مال الاشقر نحو الجورجى ، وهمس له بشىء . تحركـــت الزرقة فى بياض عينى الجورجى ، ولوح بذراعه بغضب وقـــال بلكنة جورجية :

– لماذا لم تعلن رأسا ؟

سأل يفغينى بافلوفيتش مندهشا : – عن اى شىء ؟

– عن اى شىء ؟ عن كونك آداموف .

ابتسم يفغينى بافلوفيتش .

– ولماذا كان علىّ ان اعلن اننى آداموف ، اذا كان اسمى مسجلا فى القوائم ؟

وابتسم الجورجى ايضا فجاة ، وقال بلكنته الجورجية :

– انا لا اقول ذلك ، يا رفيق . بل اقول لماذا لم تقـــل انك آداموف الذى رفض ان يوجه الاتهام ؟

رد الجنرال :

– انا لم اعر لذلك اى اهتمام .

– لم تعر ؟ – تساءل الجورجى بنفس الغضب – لم تعر ؟ ومتى يمكن ان تعير ؟ بعد اعدامك ؟ نعم ؟ اخرج ، من فضلك .

وقهقه الاشقر مرحا وراء يفغينى بافلوفيتش اثناء خروجـه .

وحوالى الثانية دخل القومندان الزنزانة وقال :

– آداموف ! اجمع أشياءك ! ستخرج .

خفق قلب يفغينى بافلوفيتش كالدجاجـــة عنـد التفقيس .

وامتقع الجنرال وترنح . قال القومندان :

– تماسك ، ولملم نفسك . لقد قلت لك ! ان الموت مـا زال مبكرا عليك . اسرح ! تبين انك تمت بصلة قربى مع جماعتنا على نحو ما . بينما لزمت انت الصمت .

صر يفغينى بافلوفيتش أشياءه بعجالة ، وقد بدت كلمـات القومندان فارغة مهتزة مثل صفير بعيد لطائر ليلى . القى صرته

على كتفه ، وأدار بصره فى الزنزانة . ومن جميع الجهات تعلقت به الومضات المرتعشة للعيون المحدقة .

انحنى الجنرال للجميع بحركة خرقاء رعناء ، وقال :

– الى اللقاء ، يا سادة !

اجابت بعض أصوات الجناة متفرقة :

– موفق !

– معكم العافية !

وصمت السياسيون ، الا أن صوتا واحدا القى همسا :

– عميل . . . مارشال رذل !

ارتجفت العضلة على خد يفغينى بافلوفيتش ولم يرد بشىء ، وسار بسرعة وراء القومندان . وعند المخرج قال القومندان للحارس :

– اطلقه ! – ومد يده الى الجنرال – اتمنى لك كل هذه . . . كنت عجوزا لطيفا ، يا آداموف . حتى يعز علىّ أن اتركك . من سأجعله مراقبا الآن ؟ أناس صغار .

حيا الجنرال القومندان التحية العسكرية ، وخرج الى الشارع .

لطمت صدره ريح تشرين الاول الطرية الرطبة وطوقته ، ودغدغته وادارت رأسه . خلع الجنرال قبعته ، وعرض جبينه للطمات الرطبة . توقف برهة متلفتا فى الشارع الخالى ، وسار على الرصيف بخطوات صغيرة متعجلة .

الفصل التاسع

لم يرد أحد على دقة الجرس الاولى القصيرة فى الشقة . انتظر يفغينى بافلوفيتش قليلا ، ودق دقة أطول . وبعد دقيقة دوت وراء الباب خطوات قصيرة الا أنها سريعة وقوية ، لا تشبه كليا شحيط بيلاغيا الواهن .

فتح الباب . ووقفت على العتبة حاجزة اياه امرأة شابة حمراء الوجنتين قوية البنية ، فى بلوزة محاكة من وبر الجمل . سألت المرأة بلهجة غير عدائية ، ولكن متحفزا :

– من تريد ؟

رفع يفغينى بافلوفيتش أصبعيه الى طرف قبعته بلا حزم .

– لا أريد أحدا . . . لقد جئت الى البيت ، أقصد الى بيتى . . . – قال مشربكا الكلمات غير صارف بصره عن الشامة البيضاوية عند وجنة المرأة اليسرى .

أتسعت عينا المرأة أكثر . والظاهر انها ارتبكت . ان الرجل الصغير الجسم الواقف امامها فى معطف جنرال وعلى رأسه قبعة نازلة على اذنيه ، وبلحيته المدببة الخشنة لا يشبه مجرما او مغامرا ، ولكن ما قاله بدا للمرأة غريبا وباعثا على الخوف . نظرت مرتعبة الى الخلف ، الى ممر الشقة المظلم .

– كيف الى بيتك ؟ العلك اخطأت فى الطابق ؟ هنا نحن نعيش .

– لا ، لم اخطئ – اعترض يفغينى بافلوفيتش واشار الى اللوحة المشدودة فى الباب . فانها لم ترفع بعد ، وقد كتب على سطحها الاخضر : «يفغينى بافلوفيتش آداموف» وقال الجنرال :

– انا آداموف نفسه ، لهذا لا يمكن أن يكون هناك خطأ .

– انا لا افهم شيئا – قالت المرأة ، وفجأة خدشت ، فبسطت ذراعيها القويتين المنتفختين ، وقالت – آها ، اذن ، فهذا انت ! . .

وانفرجت عن ابتسامة ذاهلة مرتبكة :

– يعنى انت نفس الجنرال الذى . . . – ولم تكمل الجملة ، وقالت بصوت مدعوك – اذن ، يجب ان تكلم رئيس لجنة توزيع المساكن على المعوزين . لأن شقتك مشغولة .

– نعم ، لقد سمعت ذلك – اجاب الجنرال لاويا زر معطفه – ولكن كيف يكون هذا ؟ . . انا لا افهم . . . الا يقتضى ان اسكن فى مكان ما ؟ . .

– دعنى اخبرك . . . فى لجنة توزيع المساكن ، فى الواقع ظنوا انك . . . – وتلعثمت المرأة واحمرت ذعرا – فى الحقيقة ، لا استطيع ان اوضح لك كل شىء . من الافضل لك حقا ان تتكلم مع الرئيس .

– حسنا ، سأذهب اليه – اجاب الجنرال ، واستدار لينزل الى الاسفل ، فقد كانت شقة رئيس لجنة توزيع المساكن على المعوزين فى الفناء الثانى فى السابق .

سألت المرأة :

– الى أين أنت ذاهب ؟ رئيس اللجنة يسكن الآن هنا ، فى هذه الشقة . لقد انتقل معنا . ادخل ، فانه الآن فى مسكنه – قالت المرأة ، وتراجعت الى الداخل ، وادخلت يفغينى بافلوفيتش الى الرواق .

– سر امامك . انت تعرف وضع الشقة . رئيس اللجنة استقر فى غرفة المكتب السابقة وغرفة الطعام .

قالت المرأة ذلك ، وهزت راسها بموارية مواسية .

وكان كل جسمها ينطق : «يا لها من حكاية !»

سار يفغينى بافلوفيتش بتردد وعلى أطراف اصابعه فى نفس الممر الذى قضى سنين عديدة يسير فيه صاحب ملك كلى ، ودق باب غرفة مكتبه . وجاء اليه صوت : – ادخل .

ودخل يفغينى بافلوفيتش .

كان أول ما وقع عليه بصره نعلا حذاءين موضوعين على حافة الاريكة . وكان فى وسط كل نعل ثقب مدور . تحرك النعلان ببطء واحدهما يحتك بحافة الآخر . وكانت تتصل بالحذاءين رجلان ، وبالرجلين جسد وبالجسد راس . وفى فم الراس سيجارة ترسل دخانا . ومن خلال الدخان لم ير المضطجع على الاريكة من دخل الباب ، فسأل بكسل ودون ان يغير من وضعه :

– من ايضا ؟ ماذا تريد ؟

قال الجنرال بتخوف :

– هذا انا ، يفغينى بافلوفيتش .

تخبط النعلان فى الهواء ، ووثب المضطجع ، ولبضع ثوان نظر الى الجنرال صامتا مخطوف البصر كليا .

– انت ؟ . . انت ؟ . . انت ؟

كرر ذلك اخيرا بلهجة من اراد ان يقول : «العياذ ، العياذ ، العياذ !» .

– نعم ، لقد اطلقوا سراحى – تمتم يفغينى بافلوفيتش وكانما اقترف فعلا غير لائق ، وكان يعتذر له .

نظر رئيس لجنة توزيع المساكن الى الجنرال من طرف عينه ، ولاحظ ارتباكه الغريب وهيئته المسحوقة . وقد مد ذلك

رئيس لجنة توزيع المساكن بالجراة ، فانتصب ، وصار جامدا بشكل رسمى :

– ارى ذلك – قال بصرامة كصاحب سلطة – هل عندك شأن معى ؟

تقدم يفغينى بافلوفيتش الى الامام ، واهتزت لحيته .

– واى شأن ؟ مجرد اننى عدت الى البيت . ارجو ان تعذرنى – استمر بعصبية هازا ذراعيه – انا لا استطيع ان افهم . كيف يكون هذا ؟ شقتى و . . . اخيرا . . .

واختلطت الكلمات على الجنرال ، وبمقدار هذا الاختلاط اخذ وجه رئيس اللجنة يكتسى سحنة اكثر فاكثر جمودا .

قاطعه قائلا :

– اعذرنى ، ايها المواطن آداموف ! ليس هناك ما تفهمه فى هذه المسالة . لا وجود لشقتك بعد الآن – بل توجد كومونة الغرف رقم سبعة . فقد اعتبرناك ميتا ، واحتلت شقتك من قبل الاهالى الكادحين . وقد ثبت ذلك ببروتوكول من لجنة توزيع المساكن على المعوزين ، ولا يمكن تغيير ذلك . اما كونك حيا فانه خطأ .

– وكيف ذلك ؟ ذلك هراء قانونى – قال يفغينى بافلوفيتش زافرا من الضيق ، وقد ألم به ضعف .

اهتزت رجل المتكلم اليه ، وتجهم وجهه :

– ارجو الا تستخدم كلمات العهد البائد . وحتى اذا انت حى ، فان ذلك لن يغير من الامر شيئا . فان شقتك ستحتل ، لانك عنصر غير عامل ، وان ملكيتك خاضعة للانتزاع لتوزيعها بشكل عادل على الاهالى المعوزين .

كان رئيس لجنة توزيع المساكن مع كل كلمة يمتلئ ثقة ، وينطق بالكلمات الرنانة باستمتاع شديد . فى الماضى كان كاتبا عند كاتب عدل ، وقد اشتهر بين سكان البيت كمخلوق محب للعراك ونفعى . بعد أن تغلب على الارتباك فى الوهلة الاولى اخذ نفسية الجنرال المسحوقة بالحسبان وقرر التمادى فى وقاحته غير العابئة .

– ولكن ، اعذرنى – اعترض يفغينى بافلوفيتش فاقدا آخر تربة تحت قدميه – لنفرض أن الشقة والملكية معرضتان

للمصادرة ، ولكن انا قد اطلق سراحى ، وبالتالى أعيد اعتبارى بذلك ، ولى الحق فى ان اعيش فى مكان ما . ثم توجد هنا اشياء لا يحق لاحد ان ينتزعها منى . . . وثائقى . . . رسائل . . . اوراق . . .

اعترض رئيس اللجنة بقوة :

– الملكية الخاصة قد الغيت .

فانفجر يفغينى بافلوفيتش وقال :

– اعذرنى . انا نفسى حقوقى . وانا ايضا افهم فى القوانين . يمكن ان تصادر قيم مادية ، ولكن لا تصادر اشياء ليس لها قيمة الا لصاحبها ، وقيمتها ليست فعلية ، ليست نقدية ، بل معنوية . لا احد يستطيع أن ينزع منى ذكرياتى .

استدار المتحدث له نحو النافذة . فقد شعر بأن الوضع موشك ان ينقلب الى وضع خطر ومحرج . قال فى بعض الليونة :

– اسمعنى ، يا جنرال . لم يبق شىء من ذلك . ضع انت ايضا نفسك مكاننا . لقد قلنا لك اننا فى البيت اعتبرناك فى حكم الميت . يعنى ، عندما سكنا شقتك امرت بأن تحرق جميع الاوراق ، لكيلا تظل مرمية بلا فائدة . . .

والتفت على صوت غريب ، ورأى الجنرال يشهق فاتحا فمه على وسعه ويلتقط الهواء . وبعد ذلك ارتخى وانهار على المقعد ، وراح يبكى .

سار رئيس اللجنة نحو الجنرال ، وتوقف ، ونظر يمينا وشمالا فى عجز ، ثم اندفع الى غرفة الطعام . وبعد دقيقة جاء هارعا وفى يده قدح ماء ، ورفع راس يفغينى بافلوفيتش ، واخذ يسقيه ، كالطفل . وشَرِق يفغينى بافلوفيتش واخذ يسعل ، وهدأ .

خرج رئيس اللجنة الى غرفة الطعام مرة اخرى ، وظل الباب وراءه مواربا . فسمع يفغينى بافلوفيتش وراءه حديثا خافتا . كان صوتان يتحدثان : صوت رجل وصوت امراة . والظاهر ان رئيس اللجنة كان يتكلم مع زوجته . قال صوت المرأة :

– مسكين . فانه عجوز .

اجاب صوت الرجل :

– الجميع عندك مساكين . أيعنى ان نعود الى الشقة القديمة ، ونرد هذه الشقة له ؟ يجب أن نبعده بطريقة ما . انت نفسك تعرفين ان الاشياء قد بيعت . اذا اشتكى وقعت فى مأزق .

وانخفض الصوت ، وبعد ذلك لم يعد يفغينى بافلوفيتش يسمع شيئا . مسح جفنيه بيده ، ونهض . خرج رئيس اللجنة من غرفة الطعام ، وتقلبت عيناه تحاشيا للجنرال .

– ولكن لا تيأس . ما زال فى الامكان تصحيح الامر على نحو ما – قال ذلك مستخدما اللهجة الرسمية السابقة – قدم الآن عريضة الى لجنة توزيع المساكن ، وسندبر لك غرفة . . .

قاطعه يفغينى بافلوفيتش :

– لا حاجة . ولا تخف ، فاننى لن اشتكى . سواء عندى . سأذهب الى أحد المعارف . اما يزال ارندارينكو يسكن فى بيته ؟

اشار رئيس اللجنة اشارة تدل على النفى :

– رحل الى اوكرانيا منذ ثلاثة اسابيع .

– سواء عندى – قال يفغينى بافلوفيتش ثانية – هذا غير مهم .

وأدار عينيه فى غرفة المكتب ، وكأنما يودع الى الابد الاشياء الاليفة التى يكمن فيها جزء من حياته غير منظور ، وفجأة رأى فوق الاريكة صورة زوجته . كانت معلقة فى نفس الاطار الثقيل من خشب البلوط ، فى وضع مائل قليلا . تقدم يفغينى بافلوفيتش من الاريكة :

– سآخذ هذه .

– بالطبع ، بالطبع . . . انا افهم . . . من الناحية الانسانية – بادر رئيس اللجنة بعجالة وقد سر ، واسرع فى الصعود على الاريكة لينزل الصورة – خذ شيئا آخر اذا كنت تريد . رغم أن كل شىء فى البيت قد سجل فى قائمة المحفوظات فانا افهم الوضع .

ولكن حين التقى بنظرة يفغينى بافلوفيتش صمت ، واسرع فى أن يدس فى يده الصورة المخلوعة . وضعها يفغينى بافلوفيتش تحت ابطه بصعوبة ، ولبس قبعته . وقال بخفوت :

– الى اللقاء . ارجو لك مسكنا طيبا . . . اذا تستطيع .

– كن سمحا ايها المواطن آداموف . ليست لى حيلة فى ذلك ، والا فبكل سرور ، ثم ان الزمن على هذا الشكل . . . لست انا الذى قررت . . . البيت كله . . . اجتماع . . .

جرى الجنرال فى الممر نحو باب الخروج دون ان يسمع ، حاملا الصورة الثقيلة بجهد . وكان يحس بضيق النفس ، وقد بدا له انه ، اذا لم يخرج الى الهواء الطلق فى الحال ، فانه سيختنق ويسقط على العتبة .

نزل يفغينى بافلوفيتش الى فسحة سلم واحدة الى الاسفل ، واسند صورة زوجته على بطارية التدفئة بالبخار ، وجلس على افريز النافذة . كان قلبه لا يكاد يخفق وكل جسمه ينضح عرقا باردا سالبا للقوة .

جلس طويلا على الافريز ناظرا أمامه بلا تفكير وبتعب . واخيرا حرك شفتيه ، وقال نصف هامس ، الا ان الكلمات نزلت مرنة فى جوف الدرج .

– ابتداع قانونى ، يا استاذ ! صبر !

الفصل العاشر

نهض يفغينى بافلوفيتش من الافريز ، ووضع الصورة تحت ابطه مرة اخرى ، ونزل الى باب الخروج . وفى الشارع توقف مترويا يفكر الى اين يذهب . تذكر رفيقا له منذ ايام المدرسة العسكرية يدعى بريكلونسكى كان يعيش على مسافة غير بعيدة من هنا ، على بعد ثلاث حارات . وكان بريكلونسكى قد استقال فى وقت مبكر ، واشتغل فى وزارة الخارجية ، الا أن علاقات الصداقة بقيت . فكانا يلتقيان كثيرا حتى الفترة الاخيرة وكانت لقاءاتهما ودية .

رفع يفغينى بافلوفيتش لحيته ، وسار على الرصيف مائلا الى الجانب الايسر لثقل الصورة تحت ابطه وكيس الحاجيات الاخرى .

وراء الباب المغلق فى بيت آل بريكلونسكى استفسروا منه طويلا وبالتفصيل : من هو ولماذا جاء ، ولأى شأن ، ولمن . وكان يفغينى بافلوفيتش يجهد نفسه ليرد . فان السير فى

الشوارع قد جرده من قواه كليا ، وعندما فتح الباب اخيرا انهار فى الرواق تقريبا .

استقبل بريكلونسكى الجنرال فى غرفة صغيرة . كان يشغل الغرفة كلها تخت هائل بشكل غير طبيعى ومغطى ببساط فارسى ، ومنضدة للكتابة .

حيا بريكلونسكى الجنرال قائلا :

– مرحبا ، مرحبا . منذ زمن لم نرك . اعذرنى على اننى استقبلك فى هذا الخص . ولكن لعلك تعرف اننا قد زحمنا تماما . لم تبق لنا الا غرفتان لخمسة أشخاص ، وهذا الركن المخصص لى .

كان بريكلونسكى يتكلم بصوت عجول متراقص ويتلفت طوال الوقت الى الجانبين قلقا ، ويرتعش من حين الى آخر .

اجاب الجنرال وهو يجلس على حافة الاريكة :

– كان من الصعب علىّ أن أزورك . اليوم فقط أطلق سراحى . بقيت فى الحجز شهرين .

تدورت عينا بريكلونسكى بارتباك ، وثبت الرجل بصره فى الجنرال :

– كيف ؟ هل كنت معتقلا ؟ اين ؟

– كنت معتقلا فى منزل اعتقال خاص للجنة الاستثنائية لمنطقة ليتينى .

قال يفغينى بافلوفيتش ذلك ، وكأنما على شكل تبليغ .

حام بريكلونسكى فى الغرفة ، وتعثر على الاريكة ، واختطف من المنضدة ممسحة ريش لسبب ما ، وادارها ، والقاها ، ونظر الى يفغينى بافلوفيتش مذعورا :

– يعنى هربت – قال بثقة – هربت . . . هربت . . .

قال الجنرال دافعا بلحيته عن دهشة :

– ماذا بك ؟ لماذا دار فى راسك اننى هربت ؟ لماذا تنرفزت بهذا الشكل ؟ . . لقد اطلقوا سراحى ولا شىء غير ذلك .

رفع بريكلونسكى سبابته محذرا ، وانحنى على وجه يفغينى بافلوفيتش تماما ، وهز اصبعه امام انفه وقال :

– يا لك . . . قل هذا لأحد غيرى . فانا لست صبيا جاهلا .

وانا اعرف انهم لا يطلقون سراح أحد من هناك . وفى امكانك أن تأمن جانبى ، فانا لن اشى بك .

فاحتدم الجنرال وقال :

– لقد فقدت عقلك ! انا اكرر لك انهم اطلقوا سراحى . وقد جئت اليك برجاء أن تاوينى مؤقتا .

ترنح بريكلونسكى متراجعا ، وتهدل خداه ، مثل اذيال ثوب امرأة مخمورة . وسأل وهو يغمز بمكر :

– ولماذا لم تذهب الى شقتك ؟

– لانهم انتزعوا شقتى منى . فقد اعتبرونى فى عداد الاموات . وليس لى مكان الجأ اليه . وانا اريد أن اقضى الليلة عندك ، واستشيرك ماذا سافعل بعد ذلك .

تفرس بريكلونسكى بيفغينى بافلوفيتش بابتسامة مستريبة هازئة ، وراح يغمغم بعد ان اتم الجنرال كلامه :

– آها ، بالطبع . ولكن لماذا لا تريد أن تقول ، وتخترع مختلف الخزعبلات عن شقتك ؟ ثم . . . ثم – وخفض بريكلونسكى صوته الى الهمس – ارجوك الا تبقى فى بيتى . ولا تسئ فهم ذلك . . . انا لا أنسى الصداقة القديمة . . . لكن انت تفهم . . . على تبليغ وراء تبليغ ، وانا نفسى أتوقع الاعتقال لحظة بعد اخرى ، واخيرا ان لى اطفالا . . . واذا اكتشفوك هلكنا جميعا . افهم حالتى . . .

– ولكن ليس لى مكان اذهب اليه . . . وليس لى ماوى فى هذه الليلة . أنت وشانك ، فلست أقوى على المغادرة الآن والوقت متأخر . سأنام على هذه الاريكة ، واغادر فى الصباح ، اذا كنت لا تصدق بى وتخاف بهذا الشكل .

وكان فى كلام الجنرال مرارة .

حوم بريكلونسكى فى الغرفة ضاغطا على رأسه وراح يخلط فى كلامه :

– اسمع يا صاحبى . . . ماذا تريد اذن . . . اذا كنت محتاجا الى نقود اعطيك . . . فقط ان تخرج ، بحق الرب . . . ساركع امامك . . . فارحم اولادى ، – وفقد آخر فتات شجاعته ، وراح ينظر فى وجه يفغينى بافلوفيتش كالكلب .

تاوه يفغينى بافلوفيتش ، وزحفت دفعة كدرة من البرودة

ببطء الى حلقومه ، وكان مقززا وغريبا بشكل مميت ان يركع هذا الشخص المذعور على ركبتيه بالفعل . نهض من الاريكة ، واهتزت لحيته ، وقال بازدراء هادئ ومخيف بسبب ذلك :

– اهدأ . . . انا ذاهب . . .

وتالق بريكلونسكى فى الحال :

– حقا ، كنت اعرف انك صديق قديم طيب ، ولا تريد ان توقع بى . ربما انت بحاجة الى نقود بالفعل او ساكتب لك مذكرة الى شخص موثوق ، وسيأويك .

وهرع فى اضطراب الى المنضدة ، واختطف كراسة صغيرة ، الا انه القاها فى اللحظة التالية ، وطوق يفغينى بافلوفيتش .

انسحب الجنرال بجفاف ، وصاح :

– لا تلمسنى !

ومط شفتيه الشاحبتين باشمئزاز .

رفع الصورة من الارض ، ودون ان ينظر الى بريكلونسكى ولا يودعه سار لوحده صامتا نحو باب الخروج ، وفتحه ونزل الى الشارع .

كان المطر قد بدأ ينزل رذاذا عند وصول يفغينى بافلوفيتش الى شقة بريكلونسكى ، اما الآن فكان يهطل بمنتهى الضراوة الخريفية . كان يبدو فى ظلمة المساء ، وفى الشارع الاسود اللامع من الماء وكان آلة حياكة هائلة تعمل بسرعة ونشاط ضافرة خيوطا رمادية مرنة رطبة .

وعند اول واجهة بيت انسكب على يفغينى بافلوفيتش سيل من الماء من المدخل . ولذعت خطوط الماء المتثلجة راسه ، وسالت وراء ياقة معطفه ، وغطت زجاج الصورة بطبقة قشيبة مما يشبه الورنيش . قفز الجنرال مبتعدا ، والتصق بذعر على بروز بيت . واحس بوخزة موجعة فى ضلعه من شىء داخل جيبه . وبحركة لاشعورية اخرج يفغينى بافلوفيتش الشىء الذى ضايقه وفى ظلمة المطر المائلة لمح لمعان التمثال الذهبى المهدى اليه من قبل «التركى» الذى اعدم . امسك الشىء بيده ، واعاده الى جيبه فى حذر ، وراح ، كمن وطد العزم ، يخوض فى برك مياه المطر بسرعة وتوثب .

وبعد ساعة من التوثب فى الشوارع الميتة لاح له من

بعيد مصباح كهربائى خافت الضوء فوق واجهة بيت ، ولما وصل اليه التقط انفاسه ، وخلع من رأسه قبعته المبللة ، ونفض الماء عنها . وبعد ذلك دفع الباب بحزم .

امتدت بندقية على عرض الدرجة ، وقطع الطريق حارس يرتدى حذاء ثقيلا وصرخ بصرامة :

– من انت ؟ ممنوع ! ترخيص !

نظر يفغينى بافلوفيتش الى الحارس بتضرع ، وسأل متشبثا بآخر امل :

– هل القومندان فى مسكنه ؟

– أى قومندان ؟

– قومندانا ، قدمندان المعتقل ، كوختين . . .

تفرس الحارس بعينيه الضيقتين المائلتين فى الشخص الخيالى الماثل امامه فى معطفه المبلل والمتابط صورة امرأة ، وهز كتفيه ، وصاح الى الاعلى بصوت رنان متقطع :

– يا عريف الحراس ! ناد على القومندان . جاءوا اليه هنا . . . اجلس ، يا رفيق ، هنا – واشار ليفغينى بافلوفيتش بطرف حربته الى بروز مرمرى وردى للسلم .

جلس يفغينى بافلوفيتش على البروز . واستمر الحارس فى النظر اليه ، وسأل أخيرا :

– تبللت ، يا جد ؟

هز يفغينى بافلوفيتش رأسه دون ان ينطق ، واصطكت اسنانه بردا .

نظر اليه الحارس من طرف عينه مشفقا ، وقال له بلطف مشوب بالتهكم :

– حبذا تشرب شايا الآن ، يا جد ، وتضطجع على سطح موقد . اى شأن لك مع القومندان ؟ هل لك أحد من اقاربك محبوس هنا ؟

الا أن يفغينى بافلوفيتش لم يرد . طبطبت خطوات سريعة ، وصفق باب . وانطلق الى شبه الظلمة فى الاسفل صوت حانق ، هو صوت القومندان الذى ظهر فى أعلى السلم .

– اى مصيبة وقعت هناك ؟ الشيطان لا يدعنا بأمان . قلنا لكم : الاستقبال حتى الساعة السادسة .

نهض يفغينى بافلوفيتش ، وهتف بآخر قواه بطريقة عسكرية :

– هذا انا ! آداموف . . .

هبط القومندان الى الاسفل نازلا درجتين دفعة واحدة ، وامسك الجنرال من كتفه :

– آداموف ؟ لماذا ؟

رفع يفغينى بافلوفيتش ذراعيه بحركة مستميتة ، وتشبث فى قميص القومندان :

– أعدنى الى حيث كنت – قال متوجعا بصوت متقطع – خذنى . ارمنى بالرصاص ، فهذا افضل . لم يعد لدىّ ما الجأ اليه . لا بيت ، ولا شىء آخر . طردت من كل مكان . وانا لا اريد أن اموت على قارعة الطريق .

اجحظ الحارس عينيه ، ونظر الى القومندان بتساؤل . كما ان القومندان نفسه قد تحير . وبعد أن صرخ يفغينى بافلوفيتش بذلك القى وجهه على قميص القومندان المتسخ ، وهدأ .

– اشرب ، اشرب اكثر ، يا آداموف – كان القومندان يقول وهو يصب من سخان شاى نحاسى مسود الكوب الكبير الثالث من الشاى الفواح برائحة القطران والفاليريان – اشرب ، يا اخ ، حتى الامتلاء ، والا فستموت . واذا ملأت بطنك بالشاى قدمت لك قدحا من الخمرة البيتية لتدفأ حنجرتك ، فلا تمرض .

كان يفغينى بافلوفيتش جالسا على اريكة القومندان عاريا ملفوفا فى معطف القومندان . كانت رجلاه ملفوفتين ببطانية ممزقة . وكان يحتسى الشاى ببطء ملذوعا بحرارته ، وكان الخواء المتعب لمحجريه ينعكس فى لمعة الكوب الرجراجة .

القى القومندان فى الكوب قطعة من السكر :

– ساحلى شايك . وفى الغد سأناطح صاحبك رئيس لجنة توزيع المساكن بكل تاكيد ، وستعيد اليك الغرفة من جديد .

هز يفغينى بافلوفيتش رأسه ممتنعا . فان فكرة العودة الى العالم الذى لم يجد له مكانا فيه بدت فظيعة ومرعبة . نظر الى

القومندان بتخوف . وشف من خلال خدى القومندان الشمعيين شىء انسانى بسيط مشوب بالرثاء .

وقال الجنرال بجهد :

– لا ، انا لا اريد ان اعود الى هناك . يشق على ان اعود الى الماضى . اسمح لى بأن ابقى هنا . لن يمتد بى العمر طويلا .

هز القومندان خصلات شعره ، وقال فى استغراب :

– انت عجوز طيب ، بالطبع ، كما ينبغى . ولست تشبه الاوغاد البرجوازيين ، ونفسك نفس انسان ، رغم أن معطفك من جلد المعز . وعلى اى اساس يمكن ان ابقيك ؟ ليس لى الحق فى ان اعتقلك من جديد . وعلى اى اساس ، بدون ترخيص ؟ ولو ابقيتك هنا بلا اساس فلا يحبذوننى على ذلك .

وصمت الاثنان .

وقال الجنرال فجأة :

– ربما فى الامكان ايجاد شغل صغير لى ؟ كاتبا فى الادارة . . . أو خذونى جنديا .

استلقى القومندان على ظهر المقعد ، وحملق ، ثم أخذ يقهقه باسترسال :

– لا ، غير ممكن يا اخ . يشتغل عندنا فى الادارة حزبيون ، والمراسلة سرية . اما فى الخدمة العسكرية فكيف تحتملها فى مثل سنك ؟ ثم ان ذلك لا يصح – وعبس فجأة ورفض بلهجة مخفضة – ان عملنا شاق ، يلزمك أن ترمى الرصاص . وحتى اذا كان لديك حنق كبير على البرجوازيين ، فانك لن تتحمل طويلا ، وتنقلب . وهذا لا يلائمك اطلاقا .

أغمض يفغينى بافلوفيتش عينيه ، وارتعش .

واستمر القومندان قائلا ببشاشة :

– حسنا ، انتظر ! انت تدبر امرك مع الغسيل ؟

هز يفغينى بافلوفيتش رأسه .

– حسنا ، ان المعتقلين يشكون من الوساخة ، والكثيرون لا يستطيعون تغيير البياضات ، وانا لا استطيع ان استخدم غسالة لأنها امرأة ، وعندنا الرجال وحدهم . فماذا يكون ؟ واذا كنت ترغب أعطيناك حصتين من الطعام ، فهيا واعمل . سنهيئ لك طستا وكل شىء . اغسل للمعتقلين غير الميسورين مجانا ،

بينما تستطيع أن تتقاضى من البرجوازيين ، ما تريد . أهذا يناسبك ؟

علك الجنرال بشفتيه ، واحتسى الشاى . وبعد اللحظة الاولى من الدهشة المشلة حل به لسبب ما ، فرح مثل افراح الطفولة ، حين كان يبتكر شيطنة لعوبا غير اعتيادية . وبمثل تلك الابتسامة الوضيئة المفتوحة قال للقومندان باقتضاب :

– شكرا ، يا رفيق .

وتحسس بدهشة دافئة كيف رنت كلمة «رفيق» ببساطة غريبة وباعتبار ، وقد كانت من قبل لزجة تتعصى على حنجرته .

الفصل الحادى عشر

كان الزمن يعدو فوق المدينة متسابقا مع الريح البحرية الرطبة ، وللتسلية كان يمارس التخريب . وكان مثل يد هائلة غير منظورة يهشم الزجاج من النوافذ ، ويحطم الاطر والابواب ، ويلعق أركان البيوت ، ويقشر اذيال طبقة الملاط الخارجية كاشفا عن قرح الآجر المتورمة .

وكان يلوى ويشقق اسفلت الارصفة المنهارة ، ويكسر الديابيز والالواح ، ويرقد فى اشداق الحفر .

كان يقضم بأسنانه قطعا من أحجار غرانيت الشواطئ ، ويخلع صوارى الاعلام من القصور ، ويقتلع ويلوى فى اسطوانات الحديد الصدىء للسطوح المتهرئة ، وكان ينفخ مع الريح الحرائق الذهبية من المدافئ الحامية .

واحيانا ، حين كان يتعب الزمن من عمله الشرس يتمدد فوق المدينة على السحب الرمادية الواطئة وبطنه الى الاعلى ويندهش ، شاخرا ، من صلابة الحياة .

كان من المستحيل اطفاء الحياة . كانت تنظر الى الزمن المرهق بآلاف عيون العنود الهازئة من جميع شقوق البيوت المهدمة . وكانت قد تعلمت القفز على الحافلات الثقيلة الهادرة والموتوسيكلات المجنونة عبر المطبات فى الشوارع .

كانت الحياة تضحك من الزمن ، ودون ان تلتفت الى تهدم

القديم ، كانت تبنى الجديد قابضة بيديها المتحجرتين مطرقة محطمة وكماشة معوجة .

وكان الزمن يصاب بالقنوط أمام العمل العنيد ، أمام هؤلاء الناس الذين لا يلتوون الرائين فى المستقبل ما كان مخفيا حتى على الزمن .

ذابت الثلوج وعصفت زوابع الربيع ، وكسى الصيف القصير أحجار الغرانيت بدفء كاذب وغبار اكال . وغسلت امطار الخريف الغبار ، ومرة اخرى فضض الجمد الحاد الابر أغصان الشجر وحوافى البيوت .

لم يغادر يفغينى بافلوفيتش المعتقل . فقد ألفه وذاب فيه ، واعتاد على ان يعتبر نفسه جزءا لا ينفصل من تلك الجدران . أما الماضى ، ماضى الجنرال ، واستاذ اكاديمية الحقوق العسكرية فقد مات بالنسبة له ، وقد شطب عليه احدهم بشطب بسيط حاسم من قلم احمر .

أضحت الاريكة فى ركن غرفة القومندان بيتا له ، وجدران حمام الدار السابق ، الجدران المكسوة بالقرميد عالما ، وقد وضع فيه طست الغسيل .

وكان الجو فى الحمام دافئا دائما . وفى الاوقات التى تخيم برودة نافذة مشبعة بدخان التبغ كانت اخشاب الاسيجة القديمة والبوابات والابواب المقلوعة من مكان ما ، وشظايا الاعمدة من البيوت المتداعية تئز فى الموقد وترسل الشرر .

وكان الشخص النحيل يروح ويجىء فى غمامات البخار الدافئة متنقلا وثبا بين الطست والحوض ، وأحب الجنود الحمر الدخول برهة للتدفؤ عند «الجنرال اللطيف» كما كانوا يدعون يفغينى بافلوفيتش .

وكانوا يجلسون على افريز النافذة وعلى حافة الحمام المرمرى ، ويتحدثون ، وهم يدخنون التبغ البيتى ، عن شؤونهم المنزلية ، عن الاهل والاقارب ، عن الثورة ، وفى الليالى كانوا يقصون الحكايات بصوت خافت .

وكان يفغينى بافلوفيتش يصوبن ويغسل ، وهو فى حذائه

الميرى الذى غاصت فيه قدماه الجافتان الملفوفتان بلفافتين ، وفى بنطلون ممزق مما يلبسه الجنود ، وقميص مفتوح . كانت الرغوة ترغى فقاعات ، وتغلف بنعومة الكفين الحمراوين بشقوقهما الصغيرة . وكان الماء يبقبق ويصفر ، والبياضات تطرطش .

وكان كل شىء يبدو كما فى الطفولة ، فى المطبخ ، والصوت الرتيب للراوى الصادر من خلال البخار كان يشبه صوت الطباخة افدوتيا .

وضع الجنرال فى الطست كومة من البياضات ، وتركها لتنقع أثناء الليل ، وذهب الى غرفة القومندان ، وشرب سائلا بلون الآجر مع قطعة من خبز الجودار ، مما خصص له ، وخلد للنوم .

عندما كان يفغينى بافلوفيتش يكمل غسل الوجبة التالية من البياضات كان يغتسل طويلا وبعناية ، ويمشط شعره الخشن ، ويلبس سروال الاستعراض بشريط الجنرالية ، والسترة الرمادية الرسمية بياقاتها الحمراء ، ويجرجر سلة البياضات على الزنزانات محنيا تحت ثقلها .

واكتسب بالتدريج ودون ان يشعر كل اساليب الغسالة الحقيقية .

كان يعاين بعين منتقدة البياضات المستلمة عارضا اياها على الضوء ، ويتلمس القماش ، ويحدد مسبقا ما هو الصعب عند الغسيل وما هو السهل . وكان مع أصحاب البياضات يتعامل بالصوت الحقيقى الزاعق لغسالة ، وكان من الغريب منظر اللحية الشائبة الضيقة وهى تختلج وتنط فى وجه هذه الغسالة .

وعندما كان الجنرال يوبخ على صفرة البياضات أو البقع المتبقية عليها كان ينفخ خديه ، ويحمر ، ويرمى البياضات على صاحبها غاضبا صارخا بصوت ضار عالى النبرة :

— بقع ؟ اغسل أنت بنفسك . ربما تريد أن انشى لك أيضا لقاء قطعة من العملة الورقية . ستغسل أنت بعد الآن ، خادم مطيع . ويسمى نفسه سيدا !

ويدير ظهره بحزم لصاحب البياضات المصعوق .

بل وان الجنرال لاحظ على نفسه بخلا كبخل النساء وذلك

ليس فقط لم يحزنه ، بل بالعكس افرحه . وهو اذ كان يحصل على حصة مزدوجة على عمله فى الغسيل بناء على امر القومندان فانه لم يكن يشترى بالاضافة لها من اسواق متنقلة ، كما كان المعتقلون والجنود الحمر يفعلون ذلك .

الا انه اشترى فقط صندوقا صغيرا مزينا ومغلفا بالقصدير له قفل رنان بشىء من التعقيد ، وقد وضع فيه بزته الجنرالية الانيقة ، كما كان يضع فى ركن منه النقود الورقية الملونة التى كان يكسبها من الغسيل ، كما حفظ فى هذا الصندوق بحرص تمثال بوذا المهدى من «التركى» .

كان يفغينى بافلوفيتش فى الاماسى غالبا ما يشرب الشاى مع القومندان . وعند شرب الشاى كانا يتبادلان الاحاديث ، شىء قليل عن كل شىء .

واغلب الاحيان كان القومندان يتحدث عن الحب .

كان القومندان يود لو يجد امراة له قريبة الى قلبه . كان للقومندان كوختين الريفى من محافظة نوفغورود ، والذى رحل الى العاصمة كسبا للرزق ، واستدعى الى الخدمة العسكرية ، وخدم فى الحرب ضابط صف ، كان له ذوق رهيف ، وقلب حساس . واثناء الشاى كان كل من الجنرال والقومندان يحتسى احيانا قدحا صغيرا من كحول السيارات . وكان القومندان بعد ان يرتخى ويتهدل خداه الشمعيان يتحدث حالما الى يفغينى بافلوفيتش عبر المنضدة :

– زن الامور ، يا اخ آداموف . بالطبع لا وقت الآن للانشغال بالنساء . الا ان لى شوقا عارما الى امراة . فاحكم انت بنفسك : اتظن ان شغلى ممتع ؟ حراسة من لم يات دورهم فى الاعدام ، وارسال البعض الى مثواهم الاخير ! وانا لا استطيع الاعتراض ، فليس لى سلطة فيه . فاذا كانت الثورة بحاجة الى ان يلطخ كوختين يديه بالاوغاد فان كوختين لا يعارض بكلمة . ولكن الامر غير محتمل فى بعض الاحيان . وانا قد كبرت ، وعامى الثلاثون يوشك على الانتهاء . وعندنا فى القرية يتزوجون فى سن الثامنة عشرة لغرض المساعدة فى ادارة شؤون البيت وما حوله . وانا ما عدا الساقطات لم يكن لى شان مع امراة لى حقيقية دافئة . بينما قلبى قلب رجل فلاح ، واحب ثمرتى ! سوى اننى

اريد ان اتزوج امراة متعلمة من الطبقة الراقية . والآن يمكن ان اجد مبتغاى . والا فان نساءنا كلبات متخلفات . اما انا فاريد امراة من الاعيان او كونتيسة . وان تكون نظيفة وتفهم بالسلوك والملاطفة ، وان تحسن تربية الاطفال وتعليمهم العزف على البيانو والتكلم بالفرنسية ، وانا ابحث عن مثل هذه ، يا آداموف ، وساداريها واعتنى بها ، ولن القى نظرة على النساء الاخريات ولو من طرف عينى . ها ! هل سانجح فى ذلك ، يا آداموف ؟ انت رجل نافذ البصيرة ، ففكر فى الامر .

كان الجنرال ينظر الى القومندان بعينين متقلصتين دب فيهما المرح . وقال :

– لا ادرى . ولكن لماذا تريد كونتيسة ولا غير ؟

رفع القومندان ذراعيه باحتجاج وتكدر :

– آخ ! كيف لا تستطيع ان تفهم ، وانت بروفيسور ! ومن يستطيع ان يربى الاطفال التربية الصحيحة غير المراة الراقية ؟ وهذه المسالة لا تغادر دماغى . كان ابى المرحوم يشتغل سائق عربة لدى الكونت كوراكين فى مقاطعة نوفغورود وكنت اشاهد اولاد الكونت هناك . اطفال نظيفون ، يعرفون كيف يضعون اقدامهم ، ويلوحون بايديهم ، ويتكلمون بالفرنسية كالكنارى ، وانا الى جانبهم ، انظر الى نفسى . شعرى اشعث ، ووجهى غير مغسول ، وسروالى يتهدل من على بطنى . وما ان ابدا بالكلام حتى استعمل الكلمات الفاحشة . وكانت توجد كونتيسة صغيرة شعرها مصفوف كحقل الجودار ، وعيناها زرقاوان . فيا ليت لى مثلها ، اذن لظللت اناغيها واناجيها طوال الليل .

قال الجنرال :

– خيالك مريض ، يا كوختين . انت رجل مشتت . بلشفى ، عدو البرجوازيين وتريد ان تتزوج كونتيسة . اولادك ينشاون ، ويأخذون التحدث بالفرنسية . ولكنهم سيكونون اعداء الثورة ، واعداءك . وهنا يحصل تناقض طبقى ، وستكون معه فى حيص بيص . ستحارب البرجوازيين وتقتلهم ، بينما تنشد كونتيستك واولادها «حفظ الله الملك» .

ورمش القومندان لحظة ثم اخرى فى سهوم ، وضرب المنضدة بقبضته . وصاح :

– ولكن هذا هراء ! هراء ! ما تقوله سخافة ، يا آداموف ! ما موضع «حفظ الله الملك» هنا اذا كنت ساقول لها : يجب ان تصنعى من الأطفال بلاشفة . فقط الا يكونوا جاهلين ولا يمسحوا انوفهم بظاهرة اكفهم ، بل ان يتفقهوا فى العلوم ، وان يكون لهم عقل محترم .

فسأل الجنرال ثانية فى مواربة :

– وهل تظن انها ستطيعك ؟

شحب القومندان .

– اذا لم تطع من الممكن تعليمها ، بالحزام أو باليد .

ضحك الجنرال .

– كونتيسة تضرب بالحزام ؟ لن يجرى ذلك . فاترك الهراء ، يا كوختين . يجب ان تجد لك امراة طيبة من القرية . اما مع الكونتيسة فسيصيبك الهم والغم .

نهض القومندان ، ودلق فى حلقومه بحنق آخر قدح من الخمرة البيتية . وقال :

– سأجد . مهما هذرت ضد ذلك .

انطفأ المصباح الصغير . واوى الاثنان للنوم . واحد يحلم بكونتيسة حزبية بيضاء البشرة زرقاء العينين ، والثانى بلا اى حلم .

انتهى فصل الخريف . وازداد الجمد كثافة ، وسقط وذاب اول الثلج هشا لا حول له مضمدا جراح المدينة المتقيحة .

وتقلب الزمن على السحب الواطئة ، وصهل بصفير الريح الليلى . وضحك ، وهو ينظر الى الغرب . كان الناس العجالى فى الغرب ينشرون على منشآت المدن والارياف شعارات ملونة عليها اسطر متلاحقة من النداءات . وعلى الملصقات كان يبرز على عرض الصفحة كلها وجه ممتلئ كبوز كلب الصيد له عينان منتفختان وشاربان ممشطان متدليان . وقد اطبقت ياقة سترته الرسمية على رقبته المتوترة المتغضنة .

وتحت خدى البوز الكلبى كتب على شريط ثلاثى الالوان : «الجنرال يودينتش» .

كانت النداءات تصرخ عن عار موسكو العاصمة ذات القباب

المذهبة ، وكانت النداءات تدعو ابناء الوطن الاوفياء الى القضاء على الزمرة البغيضة المتواطئة مع خدام الدجال .

ومثلما يجرى ماء الفيضان من المنحدرات الى منخفض عميق سالت نحو بتروغراد قوات فى قبعات قوزاقية وخوذ المانية فولاذية وسدارات انجليزية على الطرق المحطمة متجمعة جارية الى مكان واحد .

وفى أحد ايام الشتاء وصل الى المعتقل شخص فى قبعة سيبيرية مما يرتديه الصيادون لها اذنان من فراء الارنب . كانت له لحية عريضة كثيفة كتلك المرسومة فى الايقونات ، وعوينتان محدبتان سميكتا العدستين . وقد كسرت احدى العوينتين ، وشدت بخيط حريرى اصفر .

لقد وصل الرجل ليجمع المتطوعين فى أفواج ضد الجنرال ذى البوز الكلبى . وقد وعدت الحكومة المتطوعين نسيان جميع الذنوب وصفحا تاما . وعندما سأل الرجل من يريد ان يقاتل فى سبيل الجمهورية خرج الى الامام نصف المعتقلين .

اما النصف الآخر فقد ضحك ضحكة ساخرة معوجة شامتة ، وهو ينظر الى الالتماعات العصبية فى عدستى العوينتين على انف الرجل ذى القبعة السيبيرية .

– حسنا – قال الرجل بعد أن شمل القومندان بشرر من نار العدستين البيضاء – سجل اسماء الاشخاص وانقلهم فى المساء تحت الحراسة الى الثكنات .

وبعد أن أصدر الرجل اوامره طاف فى جميع حجرات المعتقل ناظرا الى التفاصيل باهتمام خاطف ولكن حاد .

وعندما فتح باب الحمام راى غمامة من الضباب وتغشت عدستا نظارتيه بطبقة رقيقة من الندى .

– أهذه غرفة الغسيل ؟ – سأل الرجل موجها الى القومندان التماع نظارتيه الشاحب – هذا شىء رائع . شكرا على المبادرة ، يا رفيق . انت اول من ارى ذلك عنده .

رفع القومندان يده بالتحية العسكرية ، وسارع يقول محاولا ان يزيد من دهشة الرئيس :

– اسمح لى ان ابلغك ، ايها الرفيق المفوض ان غرفة الغسيل عندنا ليست معجزة ، ولكن غسالتنا معجزة . فهى ترتدى

بنطلونا وتحمل رتبة جنرال . جنرال سابق ، وحتى بروفيسور سابق . انه عجوز مثابر ولطيف وكأنه غير برجوازى .

قلص المفوض احدى عينيه ، ونظر الى القومندان بتعبير غريب ، ودون أن يجيب ، اقتحم الباب بحدة الى الحمام . التفت يفغينى بافلوفيتش ، ونفض الرغوة من يديه .

اقترب الرجل ذو النظارة منه تماما ، وسأل بأدب :

– اعذرنى ، هل انت جنرال سابق ؟

لم يرد يفغينى بافلوفيتش رأسا ، وكأنه يتشكك فى الرد . مسح يديه ببنطلونه ، واهتزت لحيته لدى الجواب :

– نعم .

– أى منصب كنت تشغل فى الجيش القديم ؟

– انا غير محارب . انا أستاذ تاريخ القانون فى أكاديمية الحقوق العسكرية .

تمتم بذلك يفغينى بافلوفيتش خجلا مرتبكا .

التفت ذو النظارة الى القومندان ، وحدجه بنظرة حارقة من نظارته التى كانت رغم الندى على عدستيها تلمع بغرابة . وتراجع القومندان . الا ان الرجل لم يقل كلمة واحدة له . بل امسك يفغينى بافلوفيتش من كوعه .

– هل سيصعب عليك ، يا جنرال ، لو طلبت اليك ان تذهب معى الى هيئة اركان الدفاع فى السيارة ؟

سأل يفغينى بافلوفيتش حذرا :

– ولماذا ؟

– سأشرح لك بالتفصيل هناك . أما الآن فأريد أن أوجه لك سؤالا قصيرا . ان جمهوريتنا – وشدد على ضمير الجمع باقتضاب وحدة – تصد جحافل البيض . وليس الوقت الآن للمناقشات المبدئية وتصفية الحسابات والمساءات . الآن كل من يملك نفسا حية يجب أن يكون معنا . وانت تملك معارف . فهل تريد أن تساعدنا ؟

صمت الجنرال . فلكزه القومندان من الخلف لكزة غير ملحوظة ، واظهر الغضب فى عينيه . ضحك يفغينى بافلوفيتش ضحكة خافتة وقال :

– اذا كان فى مقدورى أن أكون نافعا . . .

وبعد قليل من الوقت وضع الجنرال صندوقه فى سيارة المفوض . وبقى هو فى قميص الغسيل ، الا انه لبس عليه معطف الجنرال . فلم يكن له معطف آخر .

ابتسم ذو النظارة . وبادر قائلا :

– يا عزيزى الجنرال ، اخف ياقاتك «الثورية» فان الوقت عصيب ، ومن الممكن ان تطلق النار على سيارتى فى الشارع وهى تحمل راكبا مثلك . سنحاول أن نلبسك بشكل عصرى .

واسبل ذو النظارة قبعته على عينيه ، وصمت مطبقا فمه من الريح . ولدى الانعطاف الى احد الشوارع فتح فمه قليلا ، وسأل :

– كم قضيت من الوقت . . . كغسالة ؟

– حوالى سنة .

– ولماذا لم تحاول ان تجد لنفسك شغلا اكثر ملاءمة ، الم تشتك لاحد ، الم تبلغ ؟

نظر الجنرال الى تتابع الشارع الاشعث . مرت بالسيارة عند توقفها فصيلة من البحارة ترفرف بحماس اذيال بناطيلهم العريضة وخصلات شعورهم المتجعدة من تحت طاقيات البحرية . كانوا يضربون الارض باحذيتهم الثقيلة ، وينشدون متوعدين يودينتش بأن لا فرار منهم .

وانتشر الايقاع مع الثلج فوق الشارع مثل زوبعة عارمة . شيع الجنرال البحارة ببصره ، وعند ذاك فقط اجاب المفوض :

– لعلك لا تصدق حين اقول لك اننى لأول مرة فى حياتى احسست بأننى ضرورى بشكل حقيقى .

الفصل الثانى عشر

كانت بتروغراد ترسل الى المعركة فصائل وافواجا وفرقا كما ترسل محطة اذاعة لاسلكية امواجها فى الاثير . وكانت الفصائل والافواج والفرق تندفع على العدو بدفعات متكررة ولكنها ضعيفة . كانت محطة اذاعة الحرب تعمل على الموجة القصيرة جامعة على عجل ذرات الطاقة الانسانية .

وكانت الوحدات بعد ان تهاجم العدو ترتد الى الوراء نازفة

الدم ، مصمة المدينة بالاشاعات عن ضروب المعاناة والتخريب .
وتدفقت وحدات جديدة ، وكما هو الحال مع الأخريات وجهت ضربة قصيرة وضعيفة ثم تهاوت مسلوبة القوى من الجوع وغياب المعدات والذخيرة ومن الدعاية العدائية النافثة السم الزاحفة على جميع الاركان مثل لفات من الافاعى الرمادية .
وفى الطرق المنتفخة الممزقة المبللة ببول الخيول وروثها وفى الدروب المكسوة بالثلج كانت تتبعثر جثث الخيول الفاطسة والعربات المرمية المحطمة ، والمدافع المقلوبة وعجلاتها فى الاعلى .
وعلى منحدر الجبل وراء غاتشينا كانت عربة مصفحة مقشرة مقلوبة على جنبها منذ ثلاثة ايام والى جانبها كان يشتغل بلا كلل ميكانيكيون بمطارقهم المحطمة وكماشاتهم المخدشة موجهين اللعنات الى الزمن الهازئ المتورم المتقلب على الحقول والمدن .
وكان من المستحيل اطفاء الحياة بأى شىء . كانت تبقبق وتجيش فى الطريق على الهدير المنفلت للمدافع . كانت تضحك من الرشاشات المنفرية من بصقات الرصاص ، والتى كانت تريد ان تميت هذه الحياة بدم وقرقعة عظام .
وكان وجه الجنرال يودينتش الشبيه ببوز كلب الصيد يبدو متجهما لا على ملصق من الملصقات ، بل على كتفين عريضتين بعيدا وراء معمعان الجبهة النارى . كان الجنرال يسوط بالسوط جنبى حصانه الابيض المدورين ، وينخزه بمهمازيه بشراسة .
كان الجنرال يشبه الزمن . وكان مثله سمينا وحقودا . كان يريد ان يسحق الحياة التى تجسدت امامه فى جيش الخصم . وقد كان كل شىء فى هذا الجيش الغريب غير مفهوم للجنرال يودينتش .
ان هذا الجيش لم يكن ينظم الاستعراضات والمواكب الاحتفالية فى المدن التى يكسبها ، ولم يقم بصلوات الشكر فى ساحات لا تزال مضرجة بالدم ، ولكنه كان يزحف الى الامام صاكا على فكيه وبنادقه بصمت وارتعاص ، وفى عيون المقاتلين الصرعى من هذا الجيش كان يمكن ان ترى ، حتى بعد الموت ،

الاسف العنيد على أن الرصاصة التى اطلقها الجندى الابيض قد أعاقت القتيل عن ملاقاة الجنرال يودينتش .
وكان الجنرال ، اذا نظر فى هذه العيون ، يرتعش بكل ظهره وخديه الكلبيين من فكرة هذا الالتقاء .
وكان وهو يدخل المدينة على فرس أبيض مغذى جيدا ، غالبا ما يفكر ، خائب الامل مستاء ، فى اصرار هذه الحياة الشبيه باصرار النحل وفى صلابتها ، وهى تسعى للانتصار على الزمن نفسه .
وكان يفكر بجحود هذه البلاد التى يجلب لها بدلا من الجوع وآلام ولادة خيرات غير معروفة فى المستقبل ، طحين قمح حقيقيا وقطع الزبدة الكندية المضغوطة منقولة فى طوابير عرباته الموثوقة بقوة . ان مئات الآلاف من الايدى المرتفعة لملاقاة موكب الجنرال لم تكن تاخذ طحينه ، بل كانت تدفعه بحقد وازدراء .
ولم يكن الجنرال قادرا على أن يهضم ذلك .
وفى الاماسى حين كان الجنرال يطالع نشرات القيادة الجارية فقرات ليلقيه على ورق صقيل مخشخش من صنع انجليزى كان ينقلب الى وحش ، وينفخ خديه . وكانت اصابعه القصيرة ذات العقد تدعك الكاغد البريطانى بغيظ . استدعى الجنرال يودينتش رؤساء الاركان وطالب بصوت مبحوح عالى النبرة كصوت رقيب اول بأن يشدد الضغط لتحطيم الصلابة غير المفهومة التى يبديها المدافعون عن بتروغراد .
وطنت فى الاثير البرقيات اللاسلكية ، وفى صباح اليوم التالى اندفعت افواج الجيش الروسى المظفر ذى الاسماء الاعلام التى مجدها تاريخ قرنين ، اندفعت فى هجمات مستميتة مضيقة الانشوطة حول المدينة المتجمدة ، وصارت قنابل الشرابنيل تزعق فوق متنزهات تسارسكويه سيلو وغاتشينا * واجهزة التسديد فى المدافع تتحسس المداخن الآجرية لمصانع الضواحى .

كان مقر قيادة الفرقة يحتل بيوتا ريفية متفرقة فى احدى القرى القيصرية ، وكان قياصرة روسيا وقيصراتها قد زرعوا فى

* ضواحى بتروغراد (لينينغراد حاليا) (المترجم) .

كل مكان حول بتروغراد هذه القرى الغفيرة ، الاقطاعيات للحاشية القيصرية ، وكانها اولاد غير شرعيين .

كانت قنابل الشرابنيل تنطلق مقتربة من القرية اكثر فاكثر ، وترن رنينا مجلجلا ، وتبقر الثلج برصاصات صافرة .

كانت العربات المنهكة لوحدات تموين الفرقة بالمواد الغذائية تهرب على الطريق مارة بكشك حارس الطريق المنهار مثل بيت من الكارتون . ولم يكن فيها اى اثر للمواد الغذائية . وكان سائقو العربات قد ملأوا العربات الى الاعلى بالاشياء التافهة التى ليس لاحد حاجة بها : فخاريات مع الجيرانيوم المهشم المتجمد ، ومقاعد ريفية قصيرة القوائم وارائك وافرشة من الريش واسرة .

وفى احدى العربات كان تمثال مرمرى لاحدى حوريات الاساطير يهتز وقد ربط واقفا ، والظاهر انه انتزع من حديقة قصر .

كانت ذراعه الرقيقة الممتدة باصابعها الممتلئة الصغيرة الشبيهة باصابع محظية بلاط عاطلة من القرن الثامن عشر تنقذف نحو السماء عند كل نتوء فى الطريق ، ومن جانب كان يبدو وكان الحورية تطير فوق العربة مباركة هذا الهروب الحسن التدبير .

وكانت قنابل الشرابنيل تتكاثف اكثر فاكثر ، واذا بنافورة نارية من قنبلة ترتفع بين العربات المتواثبة . انقلبت عربة سائرة . ودارت عجلاتها فى الهواء بفراغ وبطريقة هازئة . وسقطت على ظهرى الحصانين ساحقة ومحطمة اياهما . واصطدمت العربة التى تحمل الحورية بالعربة الساقطة .

انقشع دخان الانفجار ببطء . ما زالت الحورية تتارجح فوق العربات ، ولكن بلا ذراع الآن وقد تغطى صدرها ووجهها بطبقة كثيفة حمراء ، والتفت حول عنقها ساق حصان كافعى البوا .

من ايكة بعيدة زحفت شخوص رمادية واطئة محنية متراجعة على الثلج . لقد كان الصف الاخير من حراس مقر قيادة الفرقة يتراجع تحت رمى البيض .

خرج رئيس الفرقة الى مقدمة مقر القيادة ، ورفع المنظار الى عينيه . كان يقلقه الرمى ، ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن الوضع الفعلى . فان وحدة المخابرات قد تلفنت بأن كل شىء على

ما يرام ، وان قوات الاحتياط توقف البيض .

ما كاد المنظار يرتفع حتى سقط ، وتارجح من السير المشدود به .

نزع رئيس الفرقة قبعته من راسه ، والقاها على مقدمة البيت ، اورسل صلية قصيرة من السباب . واقتحم باب البيت ، وصرخ :

– الجميع الى الخارج ! اسرعوا ! خلوا التفاهة المكتبية جانبا ، واخرجوا الرشاشات الى الشارع . لقد عزلوا جنود الحراسة .

خرج العاملون فى المقر من الباب الواطئ حاملين البنادق فى طنين وكركبة مثل مجموعة من النحل اثارها دخان . وعند الباب نشأ ازدحام . عند ذلك لم يرد الذين كانوا منشغلين فى الرشاشة الانتظار حتى ينتهى الازدحام عند الباب . جلبوا الرشاشة الى النافذة ، ورفعوها وزحزحوها ثم ضربوا بها اطار النافذة . وانهار الاطار فى فرقعة ورنين وصريف من مفاصله الصدئة ، ونزلت الرشاشة برفق فى شجيرات جافة من العليق البرى تحت النافذة .

كان رئيس الفرقة يلوح بمسدسه على مقدمة البيت .

– الى الصف ! الى الصف ، يا رجال ! انطلقوا الى الغابة لاغاثة جنود الحراسة ! يا رماة الرشاشة ، ثبتوا الرشاش على حافة القرية ! تحركوا ، يا مناكيد ، اسرعوا !

وركض وراء الصف الذى انتظم مستقيما على عرض الشارع ، وزعق ، وهو يعدو ، مكورا كفيه حول فمه ، متلفتا الى الخلف :

– يا غريبينكوف ! . . ارسل من يبلغ اعضاء المحكمة العسكرية بأن يرحلوا الى ابعد ما يكون . لا وقت للمحاكمة فليقضوا على المعتقلين ، ويذهبوا هم من هنا بكل ما لديهم من طاقة .

وخز رئيس الاركان ظهر جندى احمر يرتدى حذاء لباديا اصفر رسمت عليه زهور بصبغة الانيلين ، واشار له الى طرف القرية . وركض الجندى الاحمر على الثلج الخفيف متهاويا دافعا بالبندقية اثناء عدوه .

ووصل الى بيت صغير له جدار آجرى ، كان يجلس على

مدخله جندى أحمر قمىء ، وقد تغطى كله بنقش من حفر الجدرى الدقيقة ، وكان يصد جماعة متزاحمة من الريفيين الفنلنديين واخزا الهواء حولهم بحربته قائلا :

– لا تتحركوا ! . . سيحاكمون كولاككم مرة واحدة ، ويذيقونه ما يستحقه . . . تابوت محكم . . .

صمت الريفيون ، وراقبوا الجندى الاحمر بعيون متلصصة متوحشة كليلة مرعبة .

صرخ الجندى ذو الحذاء اللبادى الاصفر لدى وصوله :

– يا كيمكا ! هل اصبتم بالجنون ؟ كفى هرجلة ! لقد اصدر رئيس الفرقة أمره . البيض يطوقون .

اشار كيمكا المجدور الى الفنلنديين بحربته بلا مبالاة :

– انظر . اذا تململوا أبقر بطونهم .

قال ذلك بصفراوية ، ودخل البيت .

ارهف الفنلنديون السمع . صدرت طلقة فى البيت مكتومة ، وكانها خلال مخدة . واخذ الفنلنديون يرغون ، واحس الجندى الاحمر باحساس غير مريح . وبعد الطلقة خرج رئيس المحكمة العسكرية ، وهو يزرر غلاف مسدسه . كان رجلا نحيلا مكور الكتفين . وكانت شفتاه ترتجفان . وصرخ بالفنلنديين :

– اذهبوا ، اخرجوا ، والا قتلتكم جميعا ، يا مصاصى دماء !

اندفع الفنلنديون من عند البيت . التمعت ذيول قبعاتهم وراء الاسيجة والاشجار . وكان الجندى ذو الحذاء المصبوغ وقد وثب فى أثر رئيس المحكمة العسكرية ، وقد عدل حزامه بجيوبه الجديدة من الذخيرة ، واحكم شده على بطنه ، وهرول ليلحق بصف رئيس الفرقة .

صاح رئيس المحكمة العسكرية فى أثره :

– أبلغ رئيس الفرقة باننا ذاهبون الى انتروبشينو .

ازدحم اعضاء المحكمة العسكرية على مدخل البيت وكان آخر من خرج منهم رجلا عجوزا جاف العود فى معطف مدعوك ، ولكنه مزرر بشكل معتنى به ، وخوذة قد غطست الى أذنيه – ومن وراء ظهور الآخرين نظر الى صف رئيس الفرقة الذى كان يقفز متنقلا عبر الحدائق ، واهتزت لحيته الفضية الشعثاء .

وقال رئيس المحكمة العسكرية :

– هيا ، يا رفاق ، لنذهب .

وسار فى الشارع . وتبعه اعضاء المحكمة العسكرية فى جمهرة لا ينتظمها صف

اقتربوا من البيوت الاخيرة للقرية ، وكان طريق معرش بالاشجار عريض يخرج منها الى الغابة . وفجأة تناثر من الغابة زهاء خمسين فارسا فى خوذ المانية فولاذية كما تتناثر الارانب بين سنابل الحقل .

كان هؤلاء خيالة العقيد بيرمونت – أفالوف ، العقيد الذى باع سيفه وشرفه وجنسيته سواء لقاء الماركات الالمانية أو الروبلات الروسية أو الجنيهات الانجليزية .

راح الفرسان يعدون متفرقين ، ولمعت سيوفهم المشهرة فى الهواء الثلجى لمعان الفضة الكامد .

توقف رئيس المحكمة العسكرية ، واخرج مسدسه من غلافه بعصبية .

– تناثروا . ليركض كل واحد خلال الافنية الخلفية ، وعبر الحدائق . ومن يتخلص يتسلل بمفرده الى انتروبشينو .

انحلت جمهرة الرجال وتفرقت .

وقف رئيس المحكمة وراء جذع شجرة زيزفون معمرة .

وغرز مسدسه فى زوائد القشرة المتضرسة ، وسدد بغير تعجل نحو الفارس الذى كان يعدو فى الامام . واستطاع ان يرمى خمس مرات قبل أن يضغطه الفرس المهاجم بجنبه على شجرة ، وشق السيف الهابط خوذة الرئيس ، وترك على جبينه فلعا عميقا .

كان أعضاء المحكمة العسكرية يتراكضون خلال الحدائق قافزين وزاحفين عبر الاسيجة مطلقين النار فى اثرهم . وكان الخيالة يلاحقونهم .

كان الجندى الاحمر المجدور والعجوز الجاف العود فى خوذته النازلة الى اذنيه قد وصلا الى طرف الغابة . ووراءهما كان الحصان الضخم يلحق بهما لاهثا لهاثا ثقيلا مبديا حدواته وكانه يرقص . توقف الجندى ورفع بندقيته . واطلق لسانا اصفر داويا ، واذا بالفارس ينقلب على الارض كالكيس . مضى

الفرس يرقل الى الجندى ، وتوقف . مسك الجندى بمقوده والتفت الى العجوز :

– أيها الرفيق المحقق ، اركب وساركب وراءك فنحن فوق الحصان اكثر اقتدارا .

واركب العجوز ، وامتطى هو ايضا . لمع كفل الحصان بين شجيرات الغابة واختفى .

بعد ان انتهى الخيالة من مطاردة اعضاء المحكمة العسكرية ساروا راكضين فى مؤخرة الصفوف .

وعندما خرجوا الى الحقل أخذ الريفيون الفنلنديون المشتتون يتقاطرون ببطء وواحدا بعد آخر نحو جثة رئيس المحكمة المرمية تحت شجرة الزيزفون ، كما تتقاطر الذئاب على جيفة . ووقفوا لحظات صامتين ، وفجأة ، وكانهم تآمروا ، اخذوا يدوسون الجثة بأحذيتهم اللبادية الفاخرة المؤطرة بالجلد .

الفصل الثالث عشر

– لقد ضعنا بالتأكيد . اية ظلمة هذه ! لا شىء يرى . سنضطر الى ان نتعذب تحت الاجمات حتى الصباح .

نظر يفغينى بافلوفيتش مظللا بصره بيده من فوق اجمة كثة تغطى حافة الغابة . على بعد حوالى عشرين خطوة وراء الاجمة كان شريط شاحب من الثلج يلوح مسودا ، وينقطع فى فراغ دامس يفوح برودة ووحشة . وفى هذه الهاوية الداجية كانت نقطة لامعة تومض بين الحين والآخر .

قال يفغينى بافلوفيتش بصوت سرى فيه دفء الامل :

– يبدو وكان هناك ضوءا ، يا ريبكين .

غرز الجندى الاحمر بصره فى الظلمة ، وهز راسه .

– لا ، هذا مجرد توهم . من التعب ومن الجوع . وحتى اذا كان هناك شىء فى واقع الامر ، فالامر سواء ، يا رفيق آداموف . يجب الا نتحرك حتى الصباح . سنصطدم بالبيض . هيا ، لا تتعفرت ، يا حصان الضابط !

صرخ على الحصان المبقع الذى سحب المقود .

فسأل يفغينى بافلوفيتش فى جزع :

– ما العمل ؟

– لم يبق الا شىء واحد . لنتوغل فى الغابة . ونرقد الحصان ، ونلتصق فى بطنه لكيلا يغادرنا دفء الحياة ، وعلى هذا الشكل نقضى الليل .

سار يفغينى بافلوفيتش فى اثر ريبكين والحصان رافعا من الارض بصعوبة قدميه المتخدرتين من البرد .

أختار ريبكين مكانا تحيط به الاجمات فى دائرة ، وسحب الحصان فى داخلها كاسرا اغصانا ، ثم ضرب على ركبتى الحصان وأجبره على الرقود . ولما أرقد الحصان نادى :

– تعال ، يا رفيق آداموف . اضطجع تحت بطنه تماما ، وتكور ، وستنعم بدفء الموقد .

فسأل الجنرال :

– وانت ؟

– وانا ايضا سأضطجع الى جنب . لقد تعودنا على ذلك .

استلقى يفغينى بافلوفيتش . ومن خلال المعطف دب من بطن الحصان الصاعد الهابط برتابة دفء ناعم .

كانت الاغصان المتجمدة ترن رنينا جافا فوق الراس ، والسحب تعدو فى السماء عجلى متقطعة . وكانت النجوم الوامضة تلوح بينها ضاربة الى لون بنفسجى . تململ ريبكين ورفع راسه ، وقال بخفوت :

– السماء تصفو . والنجوم تظهر – وبعد ان صمت برهة قال – بى شوق شديد الى ان اعرف : هل يوجد رب ، ام فى الواقع لا يوجد الا هواء ؟ انت ، يا رفيق آداموف تعرف العلوم . فاوضح لى .

أجاب الجنرال بدهشة ناعمة :

– ولكنك بلشفى ؟

ضحك ريبكين :

– بالطبع ، وعندى بطاقة حسب الاصول .

– يعنى ، لا يمكن ان تؤمن بالله .

أجاب الجندى الاحمر :

– بالطبع . ولكن ذلك لا يغير شيئا . الامر غامض لنا بدون

رب . نحن فلاحون . . . أيستحيل جمع الحقيقة الالهية والحقيقة البلشفية ؟ . .

اسبل النعاس جفنى يفغينى بافلوفيتش . كان همس ريبكين يندمج مع هسيس الاغصان المتجمد . واجاب الجنرال من خلال النعاس :

– الحقيقة دائما واحدة ، يا ريبكين . دائما واحدة . فقط يحتاج كل انسان الى ان تكون له القدرة على أن يتعرف على الحقيقة . وذلك يصعب التحدث عنه . من الممكن الجمع . فقط ان تحتاج الى ان تؤمن بأن الحقيقة التى تقف معها هى الحقيقة الوحيدة .

تحرك ريبكين مغطيا قدميه بأذيال المعطف الممزق ، وربت بملاطفة ريفية على بطن الحصان .

هدا الحصان ، وقال ريبكين :

– اظن ان ذلك ممكن جدا . نحن ، بالطبع ، لم نتعلم كثيرا . لقد علمنى الكاتب الريفى القراءة بالتهجى لقاء فلس . ولكن اذا قرأت ، ولنقل الانجيل ، والى جانبه مثلا برنامج الحزب ، فانك ستجد ان ما فى الكتاب وما فى البرنامج حقيقة واحدة . ان المسيح تعذب من اجل الكادحين الفقراء ، والبلاشفة يتعذبون من اجل ذلك أيضا . اما تحول الكنيسة الى دعامة للاغنياء ، فان الكهان مذنبون فى ذلك . والكهان بشر أيضا ، ومعرضون للخطيئة .

رد يفغينى بافلوفيتش بكلمة واحدة : – نعم .

– ارى ان النعاس يداهمك ، يا رفيق آداموف . فنم . وغدا ربما نستطيع ان نتسلل . اما اذا لم نستطع ، فان أمرك يهون ، وانا سأتحمل المصيبة . . .

سأل يفغينى بافلوفيتش فى دفقة من الحيوية وقد فتح عينيه قليلا :

– ولماذا أمرى يهون ؟

– وفق تصور البيض . وقد يصفحون عنك ، لانك برتبة جنرال ، اما ريبكين ففلاح ريفى ، فتفضل على الرمى .

– ما تقوله سخافة ، يا ريبكين . سينالنا نصيب واحد من الشر . والآن ، لننم ! . .

تنهد الجندى الاحمر :

– ليلتك سعيدة ، يا رفيق آداموف .

انضغط يفغينى بافلوفيتش على بطن الحصان بقوة أشد . وخلال نقاب النعاس فكر بكلمات ريبكين ، وتصور الجنرال لقاءه مع البيض . وفجأة أحس بالذعر والنفور المرهق . ولكى يبعد عنه هذه الفكرة دفع الخوذة على عينيه ، ودس انفه فى وبر الحصان .

– انهض ، يا رفيق آداموف . حان وقت الذهاب . الدنيا تتنور .

ومن خلال النوم شعر الجنرال بهزات حذرة على كتفه ، ففتح عينيه . ابتسمت له برقة آثار الجدرى على خدى ريبكين .

– أطلت فى النوم . ومع ذلك يؤسفنى ان اوقظك ، ولكن لا بد من ذلك .

فرك يفغينى بافلوفيتش وجهه بالثلج بسرعة ، وصعد الى الحصان .

وامسك ريبكين المقود .

– وانت ، الا تركب ؟

– الحصان ضعيف ، ولا يحمل الاثنين . ثم ان المسافة ليست بعيدة .

وسار الجندى الاحمر على الثلج يقود الحصان . وراء طرف الغابة ، حيث لم يكن يرى فى الامس غير هاوية سوداء ، كانت تنبسط فرجة بيضاء منبسطة . ثم اعقبتها مرة اخرى مجموعة من اشجار البتولا . وتوقف ريبكين بعد ان اجتاز غابة من اشجار البتولا .

– انظر ، قرية – قال متضاحكا ومد الى هناك اصبعه – لو كنا نعرف لما اضطررنا الى النوم متجمدين فى الغابة . ولكن لمن القرية ؟ لنا ام لهم ؟

واندس فى دغل ، وجلس القرفصاء ، ونظر طويلا من تحت يده ، والتفت الى الجنرال بوجه مبتهج :

– لنا . علم أحمر على أحد البيوت . اسعدنا الحظ . لنذهب بسرعة ! . .

وامسك مقود الحصان مرة اخرى ، وسار على الثلج وثبا ،

ساحبا بندقيته . وعند البيوت تماما ، ظهرت من وراء البيوت مجموعة من الجنود تحمل رافدة طويلة . نادى ريبكين :

– يا رفاق ! يا اولاد . ساعدونا !

سمع الجنود الصياح فالقوا الرافدة ، وانتصبوا والتفتوا . ارسل ريبكين آهة قوية ، وقعد . فقد لاحظ على اكتاف الجنود الاشرطة الحمراء . اندفع ريبكين نحو يفغينى بافلوفيتس :

– بيض ! . . اهرب الى الغابة . اما انا فساهلك على أية حال . ساعيقهم عن التقدم !

صرخ بذلك ، راكعا على ركبة واحدة ، متناولا البندقية .

ادار الجنرال الحصان ، ومسه بساقيه . الا أن هذا الحيوان المتعب الجائع الذى تشمم رائحة الطعام وزريبة اخذ يعانـد . تلفت الجنرال ، فراى الجنود يركضون طالعين من البيوت . جذب ريبكين التراس بضراوة ، ولكن عبثا ، فقذف بالبندقية جانبا ، وصاح :

– التراس تجمد ! لم تبق الا نهاية واحدة . اللعنة عـلى امهاتهم جميعا .

تراكض الجنود . ورأى الجنرال ثلاثة منهم يقعون عـلى ريبكين . وركض اثنان ، وامسكا مقود الحصان ، وجذبا يفغينى بافلوفيتش بقسوة الى الارض . رفعوا ريبكين من الارض مشدودا بحزام . وكان خط من الدم يجرى من فمه ، كان صامتا . قادوه الى يفغينى بافلوفيتش ، ووضعوه الى جانبه . اقترب من يفغينى بافلوفيتش جندى ضخم له وجه غير روسى . ونظر فى وجهه ، وجذب لحيته بقوة ، وقال بلكنة ظاهرة :

– وغد عجوز – وبصق – فى آخر العمر ، ومع ذلـك بلشفى .

ضحك جندى آخر ، وضرب يفغينى بافلوفيتش فى جنبـه باخمص بندقية ريبكين . ترنـح يفغينى بافلوفيتش ، وتأوه بائسا كتأوه الطفل .

عند ذاك افلتت من قلب ريبكين كلمة غير متوقعة إمـا من الاشفاق او من الذهول :

– لا تمسوا العجوز ، يا اوغاد ! فهو منكم ، من صنـف الجنرالات .

تبادل الجنود النظرات . واحمر الجندى الضخم ذو الوجـه غير الروسى ، وصاح مخفيا ارتباكه .

– الى الأمام ، الى المقر !

الفصل الرابع عشر

كان يفغينى بافلوفيتش واقفا عند طاولة فى بيت ريفـى ينظر ، غير رافع عينيه ، الى اصابع الضابط الابيض الطفولية الوردية المتشققة الجلد عند الاظافر .

وسمع صوت الضابط الفتى المقرقش مثل تفاحة ريانة :

– هل تستطيع ان تثبت بالوثائق بيان الجندى الاحمر الذى اعتقل معك بانك جنرال سابق فى الجيش القيصرى ؟

أجاب الجنرال :

– بالطبع . لدىّ بطاقة شخصية . وفيها سجلت خدمتى . ولكن ما حاجتك الى ذلك ؟

قال الضابط مندهشا :

– كيف ما حاجتى الى ذلك ؟ ان ذلك يغير المسالة تماما . أين بطاقتك الشخصية ؟

فك يفغينى بافلوفيتش ازرار معطفه ، واخرج البطاقة من جيب داخلى . وقدمه للضابط . تناولـه الضابط باستنكاف ، وقلبه ممررا عينيه على ما كتب فيه . وتورد وجهه قليـلا ، وصفا ، وصار ناعما ، وقال وهو يغلق البطاقة :

– حسنا . ارى من الواجب الاعتذار لسيادتك على تطاول المراتب السفلى . سيتعرضون للتوبيخ الانضباطى . انت مطلـق السراح ، يا صاحب السيادة . وساخبر العقيد بذلك الآن . نحن بحاجة ماسة الى الرتب القيادية العالية .

اغمض الجنرال عينيه بتعب . ونهض امامه للحظة العالـم الذى مات فى وعيه ، عالم الجنرالات والكتافيـات والاوسمـة ، والنظام المتحجر لتسلسل الرتب ، والآلة الثقيلة الميتـة للامبراطورية المنهارة ، المتمثلة فى شخص العسكـرى الآلى الجالس امامه فى هذه اللحظة ، والذى يرمـز الى التصنـع والانضباط والتنفيذ . وصار واضحا على الفور ان هذه الآلـة

قد أصبحت الى الابد غريبة ومعادية له ، كما هو غريب ومعاد لها . وتغضن ، وكأنما من ألم الاسنان ، وهز رأسه ، وقال للضابط ببطء ، وناطقا بالكلمات بانفعال :

– أتظنني قادرا على أن أخدم في جيشكم ؟

ابتسم الضابط :

– ولم لا ، يا صاحب السيادة – قال دون أن يفهم ودون أن يشك في ان فهم كلمات الجنرال بطريقة اخرى غير ممكن – فلست انت طالبا متطوعا من مرتبة دنيا . ولا أحد يشك في أنك بلشفي بالاختيار ، يا صاحب السيادة .

ضحك الجنرال ضحكة هازئة ، واعترض قائلا :

– لم تفهمني بالشكل الصحيح ، يا حضرة الضابط . فانا اردت أن أقول لك بالذات ان الخدمة في جيشكم غير مقبولة لي اخلاقيا .

سقطت من يد الضابط علبة السكائر الخشبية على المنضدة ، وتفرس الضابط في الوجه الجاف المحفور بالتجاعيد ، وصاح :

– هل فقدت عقلك ؟

احس الجنرال بكراهية فجائية صدرت من الاعماق بأن وجه الضابط المتورد الخلي البال ذا الشاربين الاسودين المشذبين فوق شفة ناتئة يقرفه الى حد التقزز . حرك فكيه ، وتوجه للضابط قائلا :

– جاهد لتتصرف تصرفا لائقا . انا اكبر منك مرتين . وأنا لا أقول لك انك فقدت عقلك وأنت تخدم في جيشكم .

تناول الضابط علبة السكائر من المنضدة ، وفتحها وألقى سيكارة في فمه ، وأشعلها بعصبية . وتقلصت عيناه وصارتا ماكرتين مفترستين نافذتين .

ثم جلس على الكرسي ، ووضع ساقا على ساق ، وطرح يديه على ركبتيه ، ومص من سيكارته وألقى الدخان في وجه يفغيني بافلوفيتش عن قصد .

– من انت ؟ بلشفي ؟ – سأل ذلك بسخرية ازدرائية لغرّ ابله وأضاف – فيا لها من حكاية !

أجاب يفغيني بافلوفيتش :

– لا ، لست بلشفيا .

– اذن ، فلماذا لا تريد ان تخدم في جيشنا ؟ من انت اذن ؟

هز الجنرال كتفيه ، وقال بنفس الازدراء الهادئ الذي تحدث به مع بريكلونسكي :

– انت لا تفهم ذلك . ولا تستطيع ان تفهمه . . . عندما يطير جرم هائل في الفضاء الخارجي تنجذب الى فلكه اجرام صغيرة حتى ضد ارادتها . وهكذا يظهر تابع ما سابع . . . ومع ذلك فانت لا تفهم شيئا ، وأنا أرى الكلام معك زائدا .

انتهى الجنرال الى ذلك شاعرا بأن دمه كله قد تدفق الى وجهه من الكراهية العارمة المفاجئة لهذه القطعة الشطرنجية الماثلة امامه مقلصة عينيها الخاليتين من أي معنى مثل عيني دمية منصوبة .

نهض الضابط من الكرسي وراح يصفر .

– سمعنا بهذه الاغاني . تتظاهر بأنك معتوه .

وتقدم الى الباب ، وفتحه وهتف في الرواق :

– يا زاخارتشنكو ! اركض الى السيد العقيد ، وقل له انني ارجوه ان يأتي على وجه السرعة .

وأغلق الباب ، وجلس ثانية على المقعد ، وأخذ يتفحص الجنرال بوقاحة عابثة لشاب متغطرس .

أشاح يفغيني بافلوفيتش وجهه عنه .

ولم يلتفت على الطبطبة الحادة لخطوات مقتربة ، ولا على صوت باب يفتح ، كان يتمعن بقلق حي فناء البيت الخلفي . كانت خنزيرة صغيرة مبرقشة بالاسود والابيض تحك جنبها على العارضة في زريبة صغيرة . وكان جرو اشعث يقتنص بمرح عابث ذيلها المعكوف الدوار بأسنانه الفتية . ورفع ديك عجوز بادي الوقار احدى رجليه ، وراح يراقب بشكل سوداوي لعبة الجرو الرياضية ، حانيا عرفه ، مغمضا نصف اغماضة عينه الصفراء الزجاجية ، وكأنه يريد أن يقول : «حسنا ، لنر كيف تقدر على ذلك ، أيها الشباب ؟» .

ولم يلتفت يفغيني بافلوفيتش الا على صيحة الضابط الضارية :

– أيها الاسير . . . استعداد !

نظر يفغيني بافلوفيتش ورأى أمامه عقيدا حليقا أملس

رشيقا فى بزة ضابط انجليزية عليها كتافيتان ألمانيتان . وسمع العقيد بلاغ الضابط العجول متلمظا بشفتيه المشدودتين مثل اطارين منفوخين لدراجة . ولما استمع الى ذلك تقدم من الجنرال :

– انت ترفض الانتقال الى صفوف الجيش الشمالى الباسل ؟

صمت الجنرال ، وشفتاه من تلقائهما تشكلتا فى ابتسامة ساخرة – هادئة زاحفة لا تحتمل .

وارتفع صوت العقيد :

– أنا أسالك .

ومرت فكرة مباغتة : ان يلدغ فى آخر المطاف ، أن يحطم بالاهانة هذا الوجه المفتعل الملمع بلمعة الحلاقة .

فقال الجنرال وهو يقلص عينيه :

– فى الجيش الشمالى ؟ وهل عندكم جيوش فى جميع جهات الارض ؟

ارتد العقيد ، وانتفض اطارا الدراجة وهسّا :

– هل تفهم العواقب ؟

وازدادت الابتسامة الساخرة زحافا وعدم احتمال . وتذكر الجنرال عضو مجلس الدولة الابيض اللحية الذى حذر من العواقب فى القاعة العالية هناك .

وقال بصوت عال زائد عن الحاجة :

– العواقب افهمها . أما أنت فلا تفهم الاسباب .

قلب العقيد بصره ، وصاح :

– اسالك للمرة الاخيرة : هل ترفض خدمة روسيا ؟

وانفعل العقيد برمونت-افالوف . انه ، وهو المصبوب فى بزة الضابط الانجليزية ذات الكتافيتين الالمانيتين والاوسمة الروسية لم يكن قادرا على فهم هذا العجوز ، مثلما لم يكن الجنرال يودينتش قادرا على فهم بتروغراد الرافضة لزبدته الكندية .

ولكن الجنرال انتكص امارة على الرفض .

وامر العقيد وقد تحجر كل وجهه :

– فتشوا هذا الوضيع !

فتحت أيدى الجنود طيتى المعطف ، ودبت الى الجيوب ، وضغطت على الضلوع بقسوة وألم . وتلمست احدى الايدى

شيئا فى الجيب الصدرى للقميص ، وجذبته . ولمع الشىء لمعانا كامدا .

قال الجندى وهو يمد الشىء الى العقيد :

– تمثال صغير ، يا صاحب السعادة .

فبسط هذا كفه . فاستقر على الراحة العريضة بشكل مريح كما فى مهد ، تمثال بوذا الذهبى الذى كان الجنرال يحفظه بحرص هدية من السارق وقاطع الطريق «التركى» الذى اعدم . انحنى العقيد يتمعن فيه وتراءى له شبه غريب بين ابتسامة بوذا الحكيمة والخالية من المعنى وبين ابتسامة العجوز فى خوذة جندى أحمر . تعبس ، وراز الصنم على يده .

– ذهب – وابتسم ابتسامة ساخرة – هكذا ، ايها الجنرال المتبلشف . تعلمت حتى السرقة – وفجأة استشرى وصاح – من نهبت ، ايها الوغد العجوز ؟ من ؟

اختلجت شفتا العجوز شاحبتين . الا أن الجنرال لم ينطق بكلمة . فقد بدا الامر مضحكا وزائدا .

ألقى العقيد تمثال بوذا على المنضدة .

سأل الضابط فى هيئة استعداد ، وقد فطن الى قرار العقيد :

– بماذا تأمر ، يا حضرة العقيد ؟

– الاعدام !

قال العقيد ذلك وعدل من حزامه الصقيل .

– لكليهما ؟

– لكليهما .

فهتف الضابط بأعلى صوته رغم ان الجندى كان الى جانبه :

– يا زاخارتشنكو ! اخرجهما .

عند حائط الزريبة صار احدهما يقف بانحراف عن الآخر ، وايديهما مربوطة بحزام : بدا الجنرال الجافتان الهرمتان ، وبدا مراسل المحكمة العسكرية كيمكا ريبكين الفلاحيتان الموبرتان .

وكانت السماء الرمادية الصفراء تنشر ثلجا خفيفا . ومن بعيد كان يترامى قصف مدفعية متعاقب موصول . وبدا وكأن رحى ثقيلة تدور فى السماء ، ومن تحت فكيها يتناثر ثلج دقيق ناعم .

وهذا ما قاله كيمكا وهو يراوح من قدم الى أخرى :

– الثلج يتناثر كالدقيق .

وفى الجهة المعاكسة اصطف الجنود فى خوذ فولاذية وكان العقيد يقف على مبعدة متكئا على عصا .

طاف يفغينى بافلوفيتش ببصره فى الافق الواطئ المستنقعى . وفجأة تحرك الافق من مكانه وتمدد . وسرت على وجهه نسمة دافئة منعشة ، ومن هذه النسمة صار كل ما يحيط به ينداح فجأة فى الفراغ وكان وراء منكبيه قد انبسط جناحان يخفقان رافعين الجسد الى فوق . والتفت الجنرال ، بقدر ما سمحت به يداه المربوطتان ، الى جاره وقال برقة :

– وداعا ، يا رفيق ريبكين .

فأجاب ريبكين بنعومة وبنفس الرقة :

– شكرا على الكلمة الطيبة ، يا رفيق آدا . .

وغطت على المقطع غير المنطوق ألسنة الطلقات الصفراء .

محتويات

الواحد والاربعون ٣
قصة شيء بسيط ٦٢
التابع السابع ١٦٨

Перевод сделан по изданию:
Б. Лавренев. Собр. соч. в 6-ти томах, том 2,
М., «Худ. литература», 1963 г.

ИБ № 4684

Редактор русского текста *Н. Кочарова*. Контрольный редактор *Э. Рысь*. Художники *Б. Алимов, П. Никипорец*. Художественный редактор *Е. Поликашин*. Технические редакторы *Е. Дюткина, Р. Никифорова*. Корректор *В. Симонов*. Сдано в набор 9.09.88. Подписано в печать 27.04.89. Формат 84×108 1/32. Бумага типографская. Гарнитура каирская. Печать высокая. Услови. печ. л. 11,34. Усл. кр.-отт. 11,87. Уч.-изд. л. 13,68. Тираж 3030 экз. Заказ № 1222. Цена 1 р. 70 к. Изд. № 5073. Издательство «Радуга» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 119859, Москва, ГСП-3, Зубовский бульвар, 17. Ордена Трудового Красного Знамени Московская типография № 7 «Искра революции» В/О «Совэкспорткнига» Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 121019, Москва, пер. Аксакова, 13.